

يوم ظهور المذنب

ساحل البحر. الساعة ٤:٢١ ص

رغم العلو، وقرب الاكتمال، لم يُسِغ القمر على البحر سوى مزيد من الغموض، الظلام يكسو الأفق إلا من أضواء مشاعل بعيدة تنوهج وتخفت كأنفاس نائم، السحب كثيفة تدفعها رياح صاخبة، الأمواج تهدر بغضب وتثر زبدًا، تطارد «داروين» الذي أصر على الخروج ورائي، تدفن في الرمال قدمي، زجاجة مياهي، وقوائم كرسي أجلس عليه منذ ساعة، أعيد مشاهدة الحلم في العدسة للمرة السابعة بعد تعديله إلى الزمن الطبيعي.

زمن الحلم: ٥,٢ ثانية

الزمن الحقيقي: ٥١,١ ثانية

الحلم يحدث في الليل، أرى نفسي نحيلًا، وأصغر سنًا، ربما من عشر سنوات، قبل أن أترك العنان للحيتي، وقبل أن يتخلل الأبيض السواد، عاري الصدر حافي القدمين أرتدي بنطلونًا من الكتان، جالس على رصيف ميناء مهجور من السفن والبشر، أنظر إلى سماء ساحرة، سماء تسبح فيها قناديل وردية طويلة الأهداب! تنبض بتور يسري في أجسادها بتناغم كل بضعة ثوانٍ، مفتون لم أقوَ على الرمش حتى جذبني البريق، بريق أتى من قاع البحر، مسافة أمتار سمحت لي برويته، تمثال متقن لسيدة في رداء أزرق يكشف كتفين ناصعتين، ووشاح أبيض، تقف بثبات على قاع البحر بين الشعاب المرجانية، خصلات شعرها حمراء داكنة، موجة تصل لم منتصف الظهر، ضيقت حدقتي استيعابًا، كان ذلك حين تحرك رأسها بهدوء... تجاهي! تعجبت لما أدركت الحياة فيها، انتفضت فوقفت، ودون تفكير حبست في صدري نفسًا قفزت به إلى البحر متجاهلاً القرش السابح بجوانبها.. واصطدمت بالسطح! سقطت فتالكت نفسي حتى اعتدلت ثم قمت مغمورًا بالدهشة، لامست المياه الثابتة كلوح من الزجاج، ثم بررت عليها يحذر كما سار المسيح يومًا، حتى وصلت إلى سيدة البحر، جثوت على ركبتي لأتفحصها، ثم رفعت قبضتي وهويت على سطح المياه الشفاف، ببطء شديد لا أعرف له سببًا، ولما يشتت وقفت فقفزت حتى تشرّخ سطح البحر فسقطت في المياه، الغشاوة ضربت حدقتي، واخترقت البرودة عظامي، دفعت الماء بساقي ثم أفرغت رتتي كي يسهل السقوط إليها، لامست القاع فتوازنت، خطوت نحوها مقاومة طحالب تعرقلني، انتظرت التيار أن يرسل شعرها بعيدًا عن وجهها ففعل. كالمرمر بيضاء، عينان واسعتان ورموش كثيفة، أنف دقيق، وشفتان مستديرتان في لون العنب القاني انفرجتا عن ابتسامة آسرة، انتابتي نشوة عجيبة ثم تنهت أن صدري لا يطلب الهواء عن عمد! صرت يرمانيًا في بضعة ثوانٍ! وابتسمت صاحبة الرداء الأزرق، قبل أن تمد إلي رصعًا موشومًا بأصابع بيانو، تلف حوله كالسوار، مددت يدي لألمسها فالتقطت أذناي وقع نبضة هائلة، التفت ورائي فرأيت القناديل تسقط في الماء، تنهمر، والظلمة تضرب القاع مقتربة كأخطبوط عملاق قرر الفرار فبث حبره، تملكتني الفرع فالتفت إلى السيدة التي لم تعد حيث تركتها، اختفت، تلاشت، كان ذلك آخر ما رأيته قبل أن يحيطني الظلمة.

نهاية الحلم

رجعت بالزمن لحظات للوراء حتى توقفت عند وجه السيدة، قرّبته وتمنعت فيه... من أنت؟

أي شخص غري سيدر ج هذا الحلم ضمن الأضغاث والهديان، لكن الحدث يبدو فريدًا لمن توقف عقله عن إنتاجها، فمنذ ثلاث سنوات تشوشت أحلامي كإرسال ضعيف من محطة راديو قديمة، شذرات مبهمة ألثت وراها حين أستيقظ، لتسرب من راسي كالياه من الأصابع قبل أن اعتدل في فراشي، لم أعبأ في البداية، عزوت ذلك لعطب أصابني مع بلوغ الأربعين، ضعف في نشاط الفص الجبهي المسؤول عن تذكر الأحلام، وقلة نوم تصل إلى أربع ساعات يوميًا، تناولت الأقراص ومارست النوم ساعة إضافية، لكن الأحلام انعدمت تمامًا، صرت أنام كحجر ثقيل في بئر، حتى رأيت «العين الثالثة»؛ عدسة «AR» ملأت أخبارها السمع والبصر، لم أستطع مقاومة العبارة المكتوبة في الإعلان:

«سجل أحلامك واسترجعها وقتما تشاء، وشاركها مع الآخرين».

كان ذلك كافيًا لإثارة فضولي، خلعت النظارة القديمة التي أنتمي لجيلها، وارتديت عدسة «العين الثالثة»، اتخذت يومين حتى أستوعب مميزاتها، فهي كالنظارة القديمة في خصائصها لكنها تلاصقت أثناء النوم، أثناء الجنس، وحتى في السباحة، تنظر معك لأي شيء فتتشر من حوله البيانات مجسمة، تاريخ صنعه، كفاءته وكيفية عمله، تستطيع أن تتحكم في أرصدتك عن طريقها، تسجل أحداث يومك من وجهة نظرك بدقة عالية، توفر لك الاسترخاء عن طريق التنويم اللوني أو المشاهد الجنسية المحفزة، تصب فنون الموسيقى والأفلام في الحواس، تقروك بيولوجيًا وتحلل كفاءة أعضائك بتقرير مفصل، بالإضافة لتسجيل أحلامك، مشاركتها مع الآخرين على الشبكة، عرضها للبيع أو عموها، تنفذ «العين الثالثة» أوامرك كمجني مصباح مطلق الإمكانيات، هكذا حصلت على أول أحلامي، بعد شهر كنت أقرأ فيها كل صباح كلمة «لا أحلام»، تومض بإحباط في طرف عيني، لأنيقظ اليوم قبل الفجر بدقائق - ميعاد أرقى المعتاد - بنبضات قلب تهزني، عرق غزير، وكلمة «حلم واحد» تنوهج بانتظام في حدقتي، قمت على أطراف أصابعي لمحاول ألا أوقظ «مريم»، فأجلل حالاتها وهي نائمة. خرجت من البيت إلى البحر، يتعني الشغف، وكلبي النيم بالسرطانات الصغيرة، أطفأت نباحه بأمر من العدسة، غرست في الرمال كرسيًا أرغمت عليه، وأعدت مشاهدة الحلم مرات لم أحصها، حتى قاطعتني نداء هامس في العدسة:

- نديم... إنت فين؟

جلستها المفضلة كانت بجانب النافذة المظلة على الشاطئ، تتكئ على وسادتها المخملية الكبيرة، رواية «السيدة دالواي» الورقية التي ورثتها عن جدتها فوق ساقبها، تحاول أن تنتهيها للمرة السبعين، شعرها الأسود الفاحم يغطي رأسها الملقى إلى الوراء، تتابع في عدستها الأثيرة سير المشاهير، أخبار الموضة، وعالم الأبراج الذي تؤمن به إيمان الراهبات في الصوامع. العدسة المعززة للواقع ومن قبلها النظارات أغنت مريم - كما ستغني قريباً - عن الكلام، ظاهرة الـ «Muteness telepathy»، خرس التخاطر، العقل يلقي الكلمات إلى رأس من يريد، دون مجهود، دون مواجهة، دون ثروة، أصبحنا نسمع نبرات أصواتنا حين نخلع عدساتنا كل شهر للتنظيف والصيانة، أو إذا تحدثنا لإرادياً... ونحن نيام.

تأملت قسائمها الناعسة وبشرتها الشاحبة وصدرها الذي شف الأوردة الخضراء تحته، قبل أن أخش عقلها ببدء، فتحت عينين ذاهلتين تحت جبين مقطب:

- مالك؟

سعلت، وضعت كفها على صدرها وأغمضت عينيها من ألم الحشرة، ثم عمالكت نفسها وخاطرتني بعد ثوان:

- مادونا ماتت.

- مادونا مين؟ المطربة بتاعة زمان؟

- كنت متوقعة، القمر وزحل في زاوية ١٨٠ من بيت ميلادها.

قاومت انبعاث السخرية في شفتي:

- وده معناه إن مادونا تموت؟

- مقابلة الكواكب بتولد ضغط نفسي ممكن يؤدي للموت، والأسبوع ده فيه مشهور كان لازم ينطفي نوره.

قالتها وأرسلت إلى عدستي فيديو للمطربة الراحلة في آخر ظهور لها على المسرح منذ ثلاثين عامًا، بدت نحيلة كمصاصي الدماء.

- طلبت يستخونها؟

- لا، قالت كفاية «مادونا» واحدة قدام الرب.

- ذكية، نسخة «ريانا» (***) الثانية ٩٠٪ هتموت بجرعة زائدة زي نسختها الأولى.

لم تجبني مريم، تاهت، لحظات أطلقت عليها «استقبال الوحي»، تشرذ في السقف وتلقى فيضاً إلهياً، قبل أن ترفع خصلة وراء أذنها وترجع إلى عالمنا بابتسامة باهتة، وفي محاولة منها أن تبدو طبيعية تغير الموضوع بأي سؤال:

- صحيت بدري!

- قلقك، خرجت أقمشي على البحر.

- حلم؟

تذكرت وجه سيدة البحر فهزرت رأسي نائياً ومططت شفتي:

- خيالات مش واضحة، مسحتها.

- أنا مسحت كابوس أول ما صحيت.

لم أشأ أن أسألها عن التفاصيل، فمريم شفافة، هوائي إذاعي فائق الالتقاط، تحلم بجارة لم ترها منذ سبع سنين تشاجر وزوجها، لتلتقي بها مصادفة فنجدتها تشكو وتفكر في الطلاق! أو تحلم بي، حلمًا يجعلها ترمقني طوال اليوم بعينين دامعتين أو تركز على أسنانها غضباً، قرون استشعار لا تلتقط في العادة إلا موجات الحزن أو الاستغاثة، لذا تمسح أحلامها حتى تخرج من الحالة التي تسبغ مزاجها بالقلق والتوتر.

اقترب الروبوت فوضع أقراص مريم الصباحية وكوب الماء ثم التفت إلي:

- صباح الخير، تحب تظفر؟

- عاوز قهوة، هاتيا لي على الأوضة بتاعتي.

مسح جسدي بمجساته ثم أردف:

- ضربات القلب مش منتظمة.

- نفّذ.

أوما الروبوت: ٤ دقائق.

نطقها وانسحب إلى المطبخ فالتقت مريم أقراصها، تابعتها حتى فتحت فمها حتى تريني أنها ابتلعها، ثم انزلت في الأريكة، كان عليّ التحدث معها عن المذنب حتى أنلاني فرغاً مبالغاً فيه سيصيحها جراً اقترابه:

- النهارده هيطهر المذنب، المراسد أكدت إنه هيعدي بهدوء.

رمقتني للحظات ثم رفعت يدها فحفت الإضاءة، أمرت الهولوجرام بتجسيم المشتري بيني وبينها، دار الكوكب حول نفسه دورة كاملة قبل أن توقف مريم الحركة عند بقع داكنة كالحروق أدنى لقطب الجنوبي:

- شوميكار - ليفي ٩، مذنب انحرف عن مساره سنة ١٩٩٤ وانفجر في كوكب المشتري في واحد وعشرين خطية، الواحدة كان لها تأثير خمسين قبلة هيروشيما، لو وصل مش هتلتحق نخاف، هتقابل الرب أخيراً.
- أو تفاجأ.

هزت رأسها وزمت شفيتها بابتسامة ثم أشارت بيدها فاختمت المشتري وتوهجت صورة لمادونا من أغنية «Frozen»، ما لبثت الراحلة أن تمشت حتى منتصف الغرفة وحامت الغربان في السقف، بدأت مريم تحرك شفيتها مع الكلمات وتتخلل يديها جسد المطربة الراحلة، وكان عليّ أن أقوم.

- أنا رايح المحاضرة.

مريم لم تجبني...

مريم لم تعد هنا...

لم تكن كذلك حين تزوجنا، وحتى أنجبنا ابتنا «سلاف»، كأن روح صاحبة الاسم حلت في جسدها من بعد ابن قد صلب، فبخلاف حساسية رثيها التي لازمتها منذ ولدت كان مزاج مريم هادئاً، تعشق الموسيقى، وتبتسم بخجل إذا أهديت وردة أو شاهدت فيلمًا، حتى سقطت يوماً من فوق سلم المنزل، فقدت الوعي فأرسلت شريحتها إشارة استغاثة، في المستشفى لم يظهر المسح الشامل أي خلل في المخ أو الرئتين، لكننا ومنذ عدنا إلى البيت تملكها شروء عجيب، دخان ثقيل تسلك إلى كيانها، صارت شبحاً يقيم في أركان البيت، شبحاً يأبى الإفصاح، أهملت داء صدرها فعاودتها الأزمات رغم زرع رئة جديدة، ولما نصحتها الطبيب بشغل وقت فراغها خاضت بشغف في علم التنجيم والأبراج، باتت لا تتحرك من البيت إلا بعد تقصي زوايا الكواكب ووضع القمر، زحل والمريخ والزهرة وأورانوس باتت أقاربنا، نصحتني طبييها بالمعاملة الهادئة، وأسرتني بأن انشغالها رحمة من رحمت الإله، فنسبة الدويامين في عقلها لم تعد تترن سوى بمتابعة العالم افتراضياً في العدسة أو الهيام بين النجوم، أما الأقرص اليومية فتحافظ على مزاجها وتصرف عنها هواجس لا تخفيها الابتسامات الصفراء، فذلك بأي حال أفضل من أن تنضم إلى مصحة مدمني التواصل الاجتماعي، أو تتحرر.

وقعت يا مريم، فتوقفت عقارب ساعتك، وتوقفت بعدك بخطوات، مددت يدي إليك فنظرت في عيني ولم تستجبي، أراقبك بجسد تبدل خلاياه بمعدل مائة وخمس وعشرين مليون خلية في الدقيقة، كل سبع سنوات أصير شخصاً آخر، تغيرت ثلاث مرات خلال عشرين سنة، وأنسى، في مكانك، تهيمين في النجوم كمروصد قديم لم يعد يستعمل، أثر هش باقي يأبى السقوط... ويرفض الترميم.

حين أطلقت شاشة طائري تنبيه الوصول راجعت في «العين الثالثة» المادة العلمية التي سألتها، ثم هبطت أمام الباب، مكان المحاضرة كان مسرحاً قديماً شُيد على الطراز الروماني كحرف الـ «U» اللاتيني، يتكون من ستة عشر صفّاً من المدرجات المرقمة، تتوسطه دائرة قطرها واحد وعشرون متراً تصلح للعروض الموسيقية ومصارعة العبيد إن وجدت، يشعر الحاضر فيه كأنه قد عاد إلى سنة ٢٠٢٠، أعتر منذ تجديده بعد زلزال البحر المتوسط الذي أغرق الدلتا والإسكندرية بإلقاء محاضراتي فيه، أقف من بعيد، مُراقباً الجمهور الذي ما زال يجمل للحضور المكاني حيناً وشغفاً رغم تسجيل محاضراتي بالأبعاد الثلاثية، فالهفوات والتفاعل الحي لها مذاق خاص، يُخرج قاطني ناطحات السحاب الذين لا يغادرونها بالسنين، ويتيح فرصة للقاء من لحم ودم بدلاً من مقابلات الصور الهولوغرافية.

حين امتلأ المسرح دخلت، تلقيت التصفيق المعتاد فرفعت يدي وايتست مجاملاً، المحبون في الصفوف الأولى تزين وجوههم ابتسامات التفهم، المعتدلون في الوسط يشحذون عقولهم بالأسئلة، والمعارضون «مُسبقاً» يتناثرون في الأطراف، يرفعون ألقاب مضيئة فوق رءوسهم: نصاب، مغرور، مُلحد، كافر، زنديق، داع لإباحة الجنس، نصير المثليين، المسيح الدجال فوق رؤوس سبعة منهم، والمجون فوق البقية الباقية، عن نفسي أفضل اللقب الأخير، فهو ما أشعر به حقيقة حين اعتلي خشبة المسرح.

العنوان كان يتحرك فوق في وهج بنفسجي مُريح «المقابلة!» ومن تحته اسمي وتخصصي، عالم بيولوجيا ودكتور في علم النفس التطوري. سلكت حنجرتي برشفة مياه ثم أعطيت الإشارة فبث الهولوجرام الصور من ورائي وانبعثت الموسيقى، أفضل مقطوعات شوبان، تصنع مع الإضاءة المنخفضة حالة من التركيز والترقب:

- من ميت سنة تقريباً سيطر على العلماء هاجس الإشعاع الذري، أعجوبة العصر وقتها، استخدموه بشكل عشوائي مع النباتات على أمل الوصول لصدف وراثية مفيدة يطلع منها أنواع جديدة، أو تحسن نوع موجود بالفعل، وقتها ما قدروا يوصلوا للنتائج تستمر أو يتبنى عليها فرضيات جديدة، سنة ١٩٧٠ قدروا يحقنوا الـ «DNA» في النباتات والبكتريا والحيوانات، بهدف تبديل بعض الصفات البيولوجية وتحسين الكائن الحي، بعدها بأربع سنين نجحوا في خلق أول فأر مُعدل وراثياً للتجارب. شكراً لكل الحيوانات التي ضحت بحياتها عشان خاطرنّا، سنة ١٩٨٠ نجحنا في تخليق أول خلية بكتيرية تقدر تمتص البترول وتهضمه بهدف القضاء على التلوث الناتج عن تسريبه، سنة ١٩٩٤ صنعنا أول ثمرة عمرها على رفوف المحلات أطول بكثير، أضفنا إنزيمات تمنع التعفن، محاولة ناجحة للتحنيط، ومن هنا بدأنا نعدل أكلنا كله، بغض النظر عن الأضرار التي فهمناها على المدى البعيد، بعدها بسنين حاربنا العقم، خفضنا أول تجربة في تصنيع جنين من ثلاث آباء، خلية ضعيفة من أم، سيتوبلازم قوي من أم ثانية، وحيوان منوي من أب، وكانت دي أول خطوة في فهم فكرة الخلق، ومن النتيجة دي قدرنا نخلق مواشي عضلاتها مضاعفة، سلامون سريع النمو، وقراخ يصدور أكبر، لكن للأسف، التطور كان بطيء جداً بسبب تكلفة التجارب العلمية، لغاية ما ظهر الـ «CRISPR»...

توقفت لحظات ليستردوا أنفاسهم ويهضموا ما فات، فالوجه الرئيسية لم تبدأ بعد:

- الـ «CRISPR» تقنية خفضت تكاليف التجارب بنسبة ٩٠٪، لأن اتضح إن البكتريا التي نجت من هجوم فيروسي تحتفظ بسجلات المعركة، بصمة الحمض النووي للفيروس، فقدرنا نرمج بروتين الخلية في حالة اختراق الفيروس للجسم تاني، بحيث يهاجم وينفك، ودي كانت بداية القضاء على الإيدز التي فضل سنين طويلة عفريت الشعوب. ومن هنا افتتح الباب لثلاث تحولات غيرت شكل الهندسة الوراثية: واحد، بدأنا نقضي على الأوبئة القديمة؛ إيولا، إيدز وسرطانات. اتنين، بدأنا نصمم أولادنا حسب الطلب؛ شكلهم، لون عينيهم، ذكاءهم، وللأسف جنسهم، معاً فلوس أقدر أصنع طفل متفوق على جنسه، خالي من العيوب، سوبرمان، أمالو مفيش فلوس، أكفني بأن ابني أو بنتي يكونوا من البسطاء، أجازف بأنهم يتولدوا بإعاقات محتمة، مستوى معيشة تحت السلم الاجتماعي، وفرص شغل معدومة، لأن الروبوت أسهل وأرخص وأمن طبعاً، فيضطروا يقبلوا بالأعمال التي فاضلة، أو ينضموا للجاعات الإرهابية، أو يعيشوا من المخدرات والدعارة، ده غير خلل نسب الذكورة والأنوثة، البنات أصبحت عملة نادرة في دول كثير، وطبعاً بيختاروا الرجالة بشكل يناسبهم، يعني انتخاب صناعي يؤدي لنتائج كارثية. ثالث تحول، كان القضاء على الشيخوخة، متوسط عمر الإنسان كان سبعة وستين سنة في ٢٠١٤، أصبح النهارده ٩٥ سنة، لكن، هل طول عمر البشر مفيد؟ للأسف لا، زيادة سن المعاش ضغطت على الشباب في فرص الشغل، وعلى المجتمع في الموارد، كمان الجنس في السن الكبير ضعيف، والطموح معدوم، وأصبح مطلوب من الشباب إنهم يخدموا المعمرين، يعني نص العالم القوي أصبح عايش عشان يرعى نص العالم العجوز، أوروبا بقت دار مُسنين، واليابان بتنتهي سكانياً، ومن هنا لجأ أجدادنا لتغيير الأعضاء عشان يبقوا أكثر حيوية مع تقدم السن وما يحتاجوش مساعدة، هنا يقابلنا سؤال: كام جزء مني أقدر أغيره وأفضل نديم؟ من بعد نجاح نقل الرأس في ٢٠٢٣ واعتماد الأعضاء المخلقة من الخلايا الجذعية في المعامل ما بقاش فيه حدود: كبد بأنظمة دفاعية أعلى لمقاومة الأمراض، قلب سوبر باور، أعضاء جنسية بتصنع المعجزات، وجلد بنت في العشرين بدل التجاعيد، باختصار تقدر تتحول لحد غيرك بنسبة ٩٥٪، يعني أنت فعلياً، أنت، لا تمثل أكثر من ٥٪ منك، حد سال نفسه قبل كده إيه الجزء اللي فينا بيمثلنا؟ إيه اللي في أقدر أسميه نديم؟

ترقبت الوجوه التي عبث السؤال بملاعها ثم ابتسمت في تشف، قيل أن أستعد لإطلاق النار:

- مفاجأة، مفيش تعريف، إحنا تقريباً قربنا من خلق إنسان كامل بنسبة ٩٥٪، ومع ذلك، لسه فيه موت! إيه ده؟ هو الملك... ليه مصمم يموتنا رغم اجتهدانا؟ هل تطورنا يقلقه؟ خرجنا عن خط السير المكتوب؟ هو مكتوب أصلاً؟ ولأ إحنا قربنا من كواليس الخلق اللي وهمتا بيها الأديان؟ مصانع الإله، المشروع السياحي الأساسي اللي بيروج له، جنة الخلد، مصدر قوته، الجزيرة اللي بيشاور لنا بيها عشان نمشي على الخط، القيامة، الحساب، والخور العين «للرجال بس طبعاً»، أو النار الأبدية اللي هتفخم جسمك، وجلدك اللي هيتغير عشان تتعذب تاني! فين كل ده؟ ولية يهتم بيها بغض النظر عن كل المخلوقات اللي بتنهش في بعض طول الوقت في سلسلة غذائية قمة في التوحش والدموية! أسألو نفسكم مين اللي أقنع القط يعذب الفأر ويلعب بيه قبل أكله؟ أو الضبع اللي يياكل الضحية وهي صاحبة!

التنهاره الإنسان، بالعلم الي وصلنا له، اكتشف إن السواد الي بين المجرات مادة مش فراغ، عملنا مصائد للنيازك العملاقة المليانة بالمعادن ونقلناها للأرض قبل ما تحرق في الغلاف الجوي، قدرنا نعيد تصنيع الفضة والزنك الي اختفوا، عملنا مستوطنات في المريخ مستعدة لاستقبال البشر، روضنا القوة النووية في كل استخداماتنا، استخرجنا بترول القطب الشمالي بعد دويان الجليد، بتحكم في المناخ بنسبة كبيرة، كافحتنا الشيخوخة والأمراض، ومسألة وقت إن يوصل عمرنا لطول لانهائي، للخلود، إيه بعد كده؟ نوصل للإله شخصياً؟

المقابلة الي بخل علينا بيها من يوم ما وعينا على الدنيا بدعوى إن جسمنا مش هيتحمل يقابله، ليه؟ هو مش قادر على كل شيء؟ كلام ما يصدقوش إلا طفل اتبهر بالألعاب السحرية بتاعت أبوه، لغاية ما كبر وفهم إنها مجرد جيتل رخيصة، وبساطة شديدة بيبجي وقت يتعلمها ويتفوق عليه، زي ما الروبوت أصبحت سرعة ذكائه الصناعي سبعة وسبعين مليون مرة أسرع مننا كبشر، وفي أجسام منيعة تناسب الخلود، مش زي أجسامنا الفانية الي مليانة عيوب تصنيع، الروبوت اتبرمج بحس، يحزن ويفرح، ويستوعب الحب لو طبطبنا عليه، ويباخذ قرار في لحظة خطر، فاضل له إيه؟ شغف، إرادة حرة، وإحساس بالألم عشان يحمي نفسه من الهلاك، بمجرد ما الألم يكسي جلده الخارجي؟ هنصدر قانون حقوق الروبوت، زي ما فيه حقوق للإنسان والحيوان، ونبدأ نخطط لنظام حياته في كتاب يحوِّفه من العواقب، ونحذره من الغلط، حساب، جنة، ونار تحرق هيكله، ونعيد تجميعه تاني عشان يتحرق تاني، وشوية شوية هنحسده على تفوقه وسرعه في العلم، وبعدين نحارب بقاءه، ونضطر نخلق له نهاية، تاريخ صلاحية، لأنه ما ييموتش، فنقتله، بأعاصير وبراكين وزلازل، هيقاوم، ويثور، ولما يدرك إننا مش ألهة، هيتنصر علينا، ولما يتربع على عرش الأرض، ويتدي يتباهى بقوته، ويتغر، هيفكر يخلق نوع جديد، يكون له عبد، عشان هو يترقى ويستحق لقب، إله...

أعشق لحظات الصمت التي تلي انتهاء كلماتي، التصفيق الفاتر والوجوه المصدومة، النفور والتخبط، واللعنات المتساوية بين المؤيدين والمعارضين، مازال البعض يُكن للإله معزة خاصة رغم اقتراب جحافل العلماء من بيته بذلك القدر، أكاد أرى سور حديقته الوارفة، بابها الحديدي الصدئ، وظل يديه على النافذة، ينظر إلينا وللمشاعل بين أيدينا بقزع، في انتظار لحظة حرق جدرانته، نسف معمله وإسقاط تمثاله العتيق، سيشتعل غضب العميان، سيحرقون الروبوتات التي أفسدت تفكيرنا، ويدمرون أجهزة التعليم السريعة التي فجرت المعارف فينا ثم قادتنا إلى الثورة على السماء، ولكن، شاءوا أم أبوا، ستبقى جثة الإله المصلوبة، عبرة للإله القادم.

حين أضيء المسرح طلبت من الحاضرين طرح بضعة أسئلة، متحججاً بضيق وقت مزعوم لتجنب الصدام مع متحجري الفكر، ليضيء السؤال الأشهر بوهج أخضر من فوق الرؤوس الغاضبة:

- إنت بتنفي وجود الإله، وتو تسمح لي إنت بتنتيه كمان!

- أولاً أنا ما أقدرش أمين الإله، لأنني مش معترف بوجوده أصلاً، ثانياً، لو قلت لك إن فيه ديناصور واقف في القاعة دي، جنبني هنا، وإنت مش شايفه، مين الي المفروض يقدم دليل على وجوده، أنا الي ادعيت وجوده؟ ولأ إنت؟ للأسف إنتم بتطالبوا دايماً إن الي بيتنفي وجود الإله - لأنه مش شايفه - هو نفسه الي يقدم دليل على عدم وجوده! في حين إن الأدلة معدومة، ولو وُجدت، بتكون أدلة ما يقبلهاش العلم والعقل، لأن الإيمان ممارسة بنشرها من أجدادنا بدون تفكير، بدليل إن شكل الإله في خيالك أكيد ما بيخرجش عن رجل كبير بدقن بيضاء، شبه أي شيخ حكيم في أي قرية، أنا باصنّف الإنسان إنه «كائن متدين»، غير قادر على رؤية إلهه، لكن قادر يخلقه لنفسه، وبعده، ويسجله بأساء مختلفة في تولميت ديانة، ومُهم جماعي، وإله بيدعي حرية اختيار المخلوق لمصيره، ورغم كده إذا حد اختار عدم الإيمان بيه، يستحق عقاب أبدي، لمجرد إنه ما صدقش الفكرة! الإجابة على سؤالك يا سيدي الفاضل، أنا مؤمن بالإنسان، مؤمن بداروين، مؤمن بالتطور البطيء، التطور الي صنع منّا جنس سوبر، مفيش كينونة متفوقة صممت جيناتنا المميزة، مفيش آدم، مفيش حواء، والدنيا ما اتخلقتش في ست أيام، إحنا تطورنا على مدار ملايين السنين، وما اتقابلناش والديناصورات في أي زمن، فيه أجناس كثير سيقتنا وجاهاها مالية المتاحف، أجناس خرجت من البحر، وبالتكيف تطورت إلى جنس الهومو؛ الفصيلة الإنسانية أو القردة العليا، هومو - هابيليس؛ الإنسان الماهر، هومو - إريكيتوس؛ الإنسان المنتصب، إنسان النيندرتال البدائي، وآخرها الهومو - سايبان؛ الإنسان العاقل الأول؛ الي هو إحنا، ولسة التطور مستمر؛ ضرر العقل والزيادة الدودية واللوز، وحليات الذكور؛ الأعضاء القديمة الي بطلت سلالتنا استخداما، تشهد على بقايا مراحل فانت من التطور البطيء جداً، تطور صعب رصدته في حياة الإنسان، حد يقدر يلاحظ ابنه وهو بيكبر؟ حد يقدر يشوف قارة إفريقيا وهي بتبعد عن أمريكا الجنوبية ثلاثة سّتي في السنة؟ هل تقدر ترصد اللحظة الي بيتحول فيها الإنسان من مراهق لراشد؟ وهل فكروا ليه المصري القديم اخترع ختان الذكور؟ ليه قرر يعدل في الخلق؟ لأنه شاف تطور رصده واخترع طريقة لتحسينه، ما يقيناش محتاجين غرلة الحماية، لأننا بقينا بنلبس هدوم، والتور مولود بدون غرلة، وقدرته الجنسية بيضرب بيها المثل، يلا تقلد تطوره الناجح... يا عزيزي، أنا مش ممكن أو من بشيء غير لو أخضعته للتجربة وشفته بعيني، ولو فيه إله يمشل الخير فليه يتخاف منه؟ ولو حكيم ليه خافين من المستقبل؟ ولو عارف كل حاجة ومقدرها مسبقاً ليه طلب ندعوه؟ ولو متواجد في كل مكان ليه ببنني له بيوت العبادة؟ إذا كان فيه إله خالق، فهو ما يشبهش الإله الي حكمت عنه الكتب السماوية، الكتب الي شجعت في يوم من الأيام المتطرفين على ضرب قنبلة نووية تبيد الملايين... باسم الدين.

انتهيت فرشفت من مياهي والتقطت سؤالاً من بين الوجوه المعتدلة:

- هل الروبوت ممكن يمتلك المشاعر؟

- إيه الفرق بين فيروس حقيقي وفيروس إلكتروني؟ ولا حاجة، الاثنين ميتين، خلايا جسمنا مكونة من بروتين وأحماض أمينية غير حية، زي الفيروس، لكنها مع بعض قدرت وبمساعدة الطفرات، تحقق الحياة. كيميا؛ الحواس كيميا، الذكاء كيميا، الشخصية السيكوباتية كيميا، والحب كمان كيميا، إنت عشان تحب جسمك بيفرز ستة أنواع من الكيميا: «الفيرمونات»، ودي مادة لجذب الحبيب زي الي بتفرزها الزهور لجذب الحشرات، و«النورإبينفرين» الي بيحفز «الأدرينالين» الي بيخليك تنهج وتغرق لما تشوف الأنثى، و«الأمفيتامين والسيروتونين» ودول الي بيدوك إحساس إنك طابر من السعادة لما بتقعد معاها، وبالمناسبة دول نفس المواد الي في تركيبة الشوكولاتة، وطبعاً «الدوبامين» الي بيأكد إدمانكم لبعض ويبفيض في جسمكم لحظات الجنس، و«الأوكسيتوسين» لتقوية العلاقة وربطكم بمصير واحد. كيميا بيتتهي أثرها من تمتاشر شهر إلى أربع سّتين في أي علاقة، وفي حالات الانفصال بيعاني الحبيبة من أعراض انسحاب تشبه انسحاب الكوكايين من الدم، كيميا برضه، شيء ميت بيوهمك إنك حي، ده كله ممكن برمجته في الروبوت، أو يمكن النوع الجديد الي هيقوم على أنقاض نوعنا، ويورثنا، مش هيجتاج للمشاعر، هيشوفها نقطة ضعف في السلالة القديمة، ولازم يتخلص منها.

أنهيت إجابتي وبحث عن سؤال من الصفوف البعيدة فَعَلَا الوهج رأس رجل:

- إيه بعد الموت؟

السؤال المربع، اقتربت من مدرجات المسرح لأجيب، مُراعياً الذمة والصدق في حقن الحقيقة العارية تحت الجلد بهامورة صرف صدفة، كان ذلك حين لمحتها، برداء أزرق وكثفين ناصعتين ووشاح أبيض تحت شعر أحر موج! تجلس بجانب صاحب السؤال، جف حلقي بغتة وتعرّق رأسي، إنها هي، سيدة البحر، سيدة الحلم، رفعت يدي لأحجب الإضاءة المسلطة على وجهي، وسألت «العين الثالثة» عنها فقرأت ملامح وجهها دون أن تُظهر بيانات حوفا، فقط صورة تشبهها، تجلس في وضعية اليوجا بحديقة ما، طال صمتي حتى ظنّ الناس أني عاجز عن الإجابة وسرّرت المصمّيات، فمالكت نفسي وأجبت دون أن تغيب عن نظري:

- إيه بعد الموت؟ مم، فين الكائنات اللي ماتت من ملايين السنين؟ فين تفاحة نيوتن؟ الإجابة، ولا حاجة، الموت هو نهاية الرحلة، الطاقة اللي جوانا زي كل أنواع الطاقة، لا تُستحدث من عدم، ولا تفتن، بنسبها الروح أو النفس، أيّا كانت التسمية في الآخر لما الجسم يَبْنِيه الفيسيولوجية بتضعف وتنهار، الطاقة دي بتغادره، تشتت في الطبيعة بين الأرض والحيوان والنبات؛ إعادة التدوير.

علا الوهج الأخضر نفس الرجل:

- وبعدين؟

اقتربت من حافة المسرح لأتبينها، كانت تنظر نحوي في ثبات، وابتسامة مترددة تلوح بين شففتيها. أجبت عن السؤال:

- للأسف، ماحدش رجع عشان يحكي لنا، في النهاية إحنا كائنات عضوية، الأجهزة ما رصدتش كيان روحاني جوانا، الفرق اللي بينا وبين الشامبانزي في الجينات لا يتعدى نسبة ٢٪، الشامبانزي أقرب إلينا جينياً من قريه للغوريلا، إحنا نوع من أنواع الكائنات، نوع محظوظ إنه تطور وسط ٩٩٪ من كائنات ما قدرتش تتحمل الحياة وانقرضت، بس للأسف، الأنا العليا بتاعت الإنسان صوّرت له إن خلقه عجيب، نُفِيز عن باقي الكائنات بطفرة التفكير والابتكار، وأكد شايف نفسه متصل بقوة أعلى مهمة بيه دولاً عن سائر المخلوقات، وبغض النظر عن حجم الكون اللانهائي فهو المخلوق الوحيد اللي عليه العين، هو المختار، زي الدودة الشريطية ما شايفة أكيد إن الإله خلق الإنسان عشان يُشبع شهيتها، وده اللي خلّى الإنسان يستبعد - بغيرور شديد - إن حياته تنتهي ببساطة، وبدون تنويج، لدرجة إنه خلق قصص خرافية ومعجزات تؤيد وجود إله حامي، ونسي إن مفيش دليل مادي واحد على وجود حياة بعد الموت، أو مهندس ورا الكون ده، باختصار، خوف الإنسان من الموت هو اللي خلق فكرة الإله، إله يوفر له فرصة ثانية لحياة جديدة بعد الدفن، جنة يكمل فيها الحياة الأرضية القصيرة، أمل يعيش بيه، أفضل ما يواجه حقيقة إننا مجرد كائنات ما نفرقش كثير عن أصدقائنا من الثدييات، وإن موتنا هو نهاية اللعبة، لكن هل المفروض نخاف من الموت؟ لا، لأننا لو عايشين فالموت مش موجود، ولو الموت اتوجد، يبقى إحنا مش موجودين، يعني مش هنتقابل، ده ما يمنعش إن فكرة وجود كيان مستول عن حسابنا ومشاكلنا بتوفر مجهود كبير على خلايا المخ خاصة بالنسبة للأطفال والسطاء من الناس... وأنتي كلامي بمقولة للراحل «كارل ساغان» عالم الفيزياء المشهور اللي قال إن العلماء بشكل شبه يومي بيعترفوا إن نظرياتهم اللي تعبوا في تجاربها كانت خطأ، طالما شافوا بعينهم دليل جديد أو سمعوا حجة أقوى من حجبتهم، العالم يتطور، والمفاهيم كل يوم تتجدد رغم إن التغيير مؤلم، والغريب إننا ما بنسمعش عن سياسي أو رجل دين غير رأيه أو اعترف إنه غلطان.

قلتها ورفعت يدي مشيراً بانتهاء المحاضرة، فمن السخيف أن أبداً في رصد تمليل الحاضرين من أوجاع مؤخراتهم على الكراسي، لذا أفضل مغادرة المسرح مبكراً ودون إنذار، بخلاف أني لا أطيق صبراً أن أرى حمراء الشعر عن قرب.

صعدت سلماً أوصلني إلى ممر طويل في نهايته تخرج جانبي للشارع، المطر لأول مرة منذ سنين ينهمر فوق الرؤوس، كل في انتظار طائرته، فتحت مظلي وصارعت بعيني الزحام حتى وجدتها، ذات عينيّن مُحَاضَرتين بكحلّ ثقيل، وشفّتين تغرب بينهما شمس، عمشوقة كالمهر تميل إلى النحافة المحببة دون كيغان بارزة ودبابيس في الكتفين، غجرية الذوق، أنفها مثقوب بحلقة فضية، وصدرها مُرصع بسلاسل طويلة لم تحف ترقوتين قاتلتين، وبجانبيها تحت المظلة، وقف صاحب السؤال الأخير، بلا معلومات تدور حوله في العدسة! تحدّثا ثم ابتسمت، مثل ابتسامتها في حلمي، من أنت؟ سألتها وما كان منها إلا أن التفتت كأنها سمعتني! التقت أعيننا للحظة فتوقف الزمن، وقطرات المطر، وتوقف عقلي، وبقي النبض يعطن في أذني، نبض غير نبضي، ربما نبضها، ومقتني لشوان لم ترمش فيها، ثم أشاحت بنظرها عني لما صممت على اختراقها، اتخذ الأمر لحظات حتى أستوعب خروجها العجيب من حلمي، وأستوعب الشبق الذي لفحني، كان ذلك حين التفت الرجل الواقف بجانبها، ثم اتجه نحوي، الفضول ثبت قديمي في الأرض، طلبت من عدستي تحديد مكان الطائرة فأعطتني أجل انتظار خمس دقائق، رفعت ياقة سرتي وأشحت بنظري نحو السماء، حتى اقتربا.

- يا حبيبي على المحاضرة، هائلة.

التفتُ متصنعاً المفاجأة، الرجل وسيم، في منتصف العقد الخامس، يرتدي سترة أنيقة، عيناه خضراوان رائقتان، شعره مسرّبل فوق جبين واسع وصدغ عريض نبت فيه لحية قصيرة، ابتسمت مُجَابِلاً:

- أشكرك جداً.

صافحتني بقبضة قوية:

- طارق هارون، متابع لنظرياتك من فترة، أنا صاحب السؤال الأخير عن الموت.

- فرصة سعيدة.

ثم أشار لسيدة الحلم: ناليا.

أسيفتُ وجهي بابتسامة ومددت يدي بسلام لم يكتمل في الحلم، مدت يدها فلاحظتُ وشم أصابع اليانوس يحيط الرسغ! قاومت اندهاشي بابتسامة فأردف طارق:

- تسمح لنا نقف معاك، لغاية ما طيارتك توصل؟

- الشرف لي.

قاومتُ أن أطيل النظر إلى وجهها، أو أنفقد دبلّة زواج بين الخواتم المكدسة في يسراها، قال طارق:

- تحليلك مثير، البشر نوع من الأنواع وهيئته سيادة نوع جديد، والإله مُجد فكرة، ابتكرناها عشان نتوج نفسنا فوق باقي الخلق وننطقن نفسنا إن النهاية مش نهاية.

- إحنا ما نفرقش كتير عن الكائنات الي حوالينا، يمكن أكثر حاجة بتميزنا، إننا الكائنات الوحيدة الي بتكذب.

ضحك: «بميزنا»!

- طبعاً، الكذب أعظم حاجة تستحق نفخر بيها، أكيد مش هتحب تقول لمريض إنه هيموت، أو لمراتك إنك شايف ست تانية أجمل.

ابتسمت الحمراء ولم تعقب، ألم يشن الأوان أن تتكلمي؟ قولي أي شيء، أسمعيني صوتك.

أردف طارق:

- حقيقي، بس إحنا كمان مميزين بالأحلام.

عمّ يتحدث؟ عن ظهور رفيقته في حلمي ليلة أمس! شردت للحظة قبل أن أجيبه:

- كل الكائنات بتحلم، بتشوف أحداث يومها.

- لكن، مش بتتنبأ بمستقبل.

- التنبؤ، نفحات الإله لهنّي آدم! لكن للأسف أنا مش معترف بآدم، ولا بفكرة التصميم الذكي المفاجئ للبشر.

أردف طارق: حاسس إنك هربت من الإجابة.

- إطلاقاً، ببساطة، الإنسان في الأحلام عنده قدرة اتصال مُمكن عن طريقها يشوف الحاضر الي حصل في نفس اللحظة في مكان ثاني من الكرة الأرضية، موجات، ولما الحدث يتحقق بعد وقت، يتحول لنبوءة من المستقبل، وكرم منسوب للإله، الأحلام بتثبت إن الماضي والحاضر والمستقبل موجودين في نفس اللحظة، وبالتالي بتتقي الزمن.

- يعني لو حلمت إنك هتقابلني في المحاضرة النهارده، فده لأني قررت من يومين إني أحضر؟

تراجعت الكلمات في حلقي، قاومت أن أسترسل:

- مسألة وقت قبل ما نفهم إن الأحلام مش هدية من رجل كبير بدقن بيضا براقبنا.

- أو يمكن رسالة من جانب آخر إحنا ما نعرفوش.

تأملت وجه طارق للحظات نحاولاً استيعاب كلماته، كان ذلك حين اقتربت طائرة فخمة:

- للأسف طيارتنا وصلت، سعيد جداً بمعرفتك.

صافحني ثم أرسل إلى عدستي بطاقة إلكترونية تومض بكلمة «الملاذ»، تحتها كُتب «اترك جسدك بالخارج» وعنوان في حي الزمالك بالعاصمة القديمة:

- يا ريت في يوم تشرّفنا.

ابتسمت مجاملاً، فهزت حمراء الشعر رأسها واتجهت إلى الطائرة، سبّانة ساقها اليسرى موشومة بـ«ماندالا» الأحلام، ومؤخرتها على الشكل المفضل لديّ؛ قلب «مثالي» مقلوب. رفعت رأسي بالكاد لأحييها بإيماءة قبل أن يرتفعا إلى السماء ويختفيا.

بوادير ظهور المذنب كانت تملأ السمع والأبصار، تسابق الناس في ناطحات السحاب والأعالي المعمورة متابعة حُصى اقترابه، سيُخلق من الغرب إلى الشرق في وميض عجيب دائماً ما ظنه القدماء نهاية العالم، تلك الدعوى التي ما زالت تجد الصدى داخل الصدور، يوم تعيش الأجيال وتموت في انتظاره، برعب ودعوات برحات الإله، يتبعون نبوءات الأنبياء والسحرة التي تؤكد - في كل عصر - أن النهاية وشيكة، ساعة الحسم التي سنجيا بعدها حياة خالدة ملؤها النساء وقناطير الذهب وأنهار العسل، أو تُسلخ في شؤاية أبدية شحومنا وقودها، تُديرها ملائكة العذاب في سرمدية.

لِم يكلف ملائكتك العناية بنا وهو الذي يقول «للشيء» كن فيكون؟

لِم خلق الملائكة من الأساس؟

ولِم خلق الشياطين وسخرهم؟!

«سخرهم» تعني التعاون معهم؟

ولِم ترى أعين الديوك الملائكة فتصيح في الفجر، وترى الحمير الشياطين فتتهق؟!!

لأن الحمير ترى الموجة تحت الحمراء؟ والطيور ترى الموجة فوق البنفسجية؟

ونحن أيضاً ☺...

أصبحنا نرى الأشعة غير المرئية، منذ قرنين، ولم ندرك شياطين أو ملائكة.

ثم ما فائدة الرؤية الخاصة للحيوانات إن كانت غير مُكلفة أو عاقلة؟

وهل الإله في حاجة لمُساعدة الملائكة في إدارة هذا الكون؟

أليس مُطلق القدرة؟ مُطلق العلم؟

ولِم خلق ذلك الكون الواسع ثم اختص ذلك الكوكب الصغير فقط بالحياة؟!

ما الداعي لتلك المسرحية الأسطورية باهظة التكاليف؟

سينقرض جنسنا من الوجود دون أن نبلغ نهاية الكون، فقط ليفرض مُعجبيهِ من معارضيه؟

أليس ذلك بذخاً؟

أما كان الإله قادراً على الفرز والانتقاء قبل الخلق؟

أما كان قادراً على حفظ الدين الذي يريد؟

أم أنه يخوض التجربة معنا؟

يخوض تجربة هو أعلم بنتيجتها مسبقاً!

لماذا إذن يطلب منا الدعاء؟

إذا كانت الدعوات تفي بالغرض فلمَ لم يشفِ مرضى الطاعون أو يعيد إنهاء أحد الأطراف المبتورة لضحايا الحروب؟

لماذا هذا القدر من المعاناة رغم أنه يستطيع منعها بسهولة؟

ربما لأن الإله... لا دين له؟

لون الأسئلة التي لا إجابة لها أصفر مائل للاخضرار؛ لون المياه الآسنة، لون العفن المفروش على الأرض، تتزاحم في عقلي فيمتلئ صدري بالعدم، سائل أسود لزج يسيل من أذني ومن بين أسناني، يطفح، فأرسل لشاشة طائرتي إحدائيات الهروب إلى إدماني الأثير؛ إلى الحي الغربي.

في تلك الليلة كان الحي صاخباً، مُضاءً بالوان بنفسجية وقرمزية بعثت في نفسي نشوة، وسط دعوة «المتدينين» بتكثيف التضرع والصلاة، ونداءات «الطبيعيين» بممارسة الجنس أثناء مرور المذنب ليُلقي إشعاعاته في الأرحام، طغت الحمى على الجميع، سافر الأغنياء إلى الفضاء قبل أيام لرؤية المذنب عن قرب والتقاط الصور التذكارية بجانبه، واكتفى السواد الأعظم بمتابعة تسابق الشركات بتريليات البيتكوين (***) لرعاية الحدث وبث الإعلانات أثناء متابعة المركبة الهندية التي ستصاحب المذنب خلال رحلته الطويلة وحتى عودته.

خُضت الشوارع مشياً حتى نسيني الوقت، متعة السير لا تضاهيها متعة الموسيقى الهادئة وصراخ النشوة يتخللان الأذن والعقل، والوهج الملون فوق الرؤوس تقرأه العدسات، يُعلن به كل عن مواقفهم كما أعلن الآباء قديماً عن أحاسيسهم في سطر مكتوب على مواقع التواصل الاجتماعية البائدة، رجل يكتب «أنا المسيح، نزلت من السماء على شرف المذنب»، وآخر يثبت حلياً في هولوغرام؛ يُضاجع صديقه على الملأ، فتاة تباع بويضاتها لمن تريد الإنجاب، وأخرى تعلن عن موعد انتحارها مع ظهور المذنب بسبب عشق لم يكتمل!

ثم حانت لحظة الظهور، أظلمت الهولوجرامات فجأة وبدأ العد التنازلي، سبعة، ستة، خمسة، أربعة، ثلاثة، اثنين، واحد، وسطع المذنب، وهج يتحرك ببطء شديد، يمر وراءه ذيلًا من الغبار، والثلج الجاف، يتفتت فينثف سحراً يجفف الحلق، توقفت الموسيقى، الروموس فوق الرقاب مشدودة مشدودة مشنوقة بحبال خفية، ذاهلة، تحاول استيعاب أن ذلك المذنب حين زار الأرض في مرة سابقة،

كان يطلع على وجوه أجداد فنوا في التراب، فالإنسان يراه مرة واحدة في حياته، زيارة لها رنين وقداسة، صلاة خاشعة لإله عتيق يتجلى، لحظات لم يقطعها سوى دوي طلق ناري من مسدس عتيق، اخترق جمجمة الفتاة التي أعلنت عن انتحارها منذ قليل، سقطت صريخة بين الجموع، تاركة عدستها لتسجل آخر لحظاتها، ليراها الحبيب الذي خان وهجر، اتخذ الأمر لحظات ليفيق الناس، ابتعدوا عنها في دائرة، قبل أن تنهال الصور من العدسات، ليشهد العالم رجفة أصابعها وموتها قبل أن تحف دماؤها، ثم علت الموسيقى الهادئة من جديد، واستعر الجنون، ثم بدأت ممارسات الجنس علناً.

لم حرم الإله الانتحار؟

يشد بنا الألم وتضييق الحياة، نرغب في الرحيل مع اقتراب مُدَّبب أو مرض فتاك، أو فراق عشيق، أو حتى دون سبب، لتلتقي العذاب مُضاعفاً! معذرة... أنا لم أطلب الالتحاق بدنيته، أرفض الاختيار، أرفض الاختيار، سأترك ورقتي فارغة، وسأضرب أحد الملائكة لأحصل على كارت أحمر، اشطب اسمي من سجل المُتحتين، لا أرغب في شهادة من مدرستك.

حين بلغت الشارع الوردي حقت أصداؤه المرح، باتت صيحات الاحتفال هبسا، وانبعثت الهمسات من الأركان، الهولوجرامات تعرض الأفلام الجنسية المجسمة، والدرونات النانومترية(****) المملوكة لأصحاب الشارع تحوم كالذباب فوق الرؤوس مراقبة وبثاً للإعلانات أمام الأعين، بدا الحي وكأن الزمن توقف عنده منذ عشرين عامًا، تجار التبغ الخام يبيعونه بالجرام(*****)، بانعر المياه الصالحة للشرب يروجونها في الخفاء، سياسة تحديث الأجساد يمسسون في أذني «Upgrade»، يعرضون الأعضاء الصناعية المستعملة والعدسات المسروقة بذكريات أصحابها، وآخرون يروجون الدُمى الجنسية الحية بجمع أشكالها والأجهزة التناسلية المزودة بالروائح والسوائل، والبعض يرفع إصبعيه الخنصر والإبهام، مشيرين لأعلى وأسفل، دليل امتلاكهم ملفات من موسيقى ال«Resurrection»، وتعني القيامة، تجنبت سماعها لمعرفتي بخط سيرها «الفادح» في ثنايا عقل من يجرؤ؛ لذا أكتفي بالتبغ عادة، ليس هناك أفضل من سيجارة ملفوفة آمنة أوقفت الشركات الغبية إنتاجها، تأملت فائريعات العرض دون أن أتوقف كي لا يهاصرني السامسة، ثم وصلت إلى «بيت الحور»؛ مبنى عتيق من دور واحد، مغطى كاملاً بأوراق الشجر، يستوي فوق ثلاثة أدوار تحت الأرض، قرأت الشاشة بصمة عيني، أضاء النور الأخضر تأكيداً على خلوي من الأمراض، قبل أن يفتح باب المصعد، ركبت، فبهط بي إلى أسفل.

كم أحترق من أقر بأن الشقراوات هن النساء، أو صرّح أن الخمريات هن نصف الجميلات، النساء «تركية»، هاتان الشفتان تحت هاتين العينين، هذا الحد وتلك الحفلة المسدلة فوقه، انحناءات القوام ودرجة اللون التي تكسيه، عارية أو نصف عارية، تركية، الخلطة التي تجعل من الأبنوسية ملكة جمال، ومن الشقراء خنزيراً برياً، ومع ذلك فدائماً ما يصيبني التردد أمام الهولوجرام، تنوع الإناث لا يجعل القرار سهلاً، قُلت الفتيات بأصابعي لدقائق طال، قبل أن أردد في نفسي ما أقوله في المطاعم عادة «ليست تلك وجبتك الأخيرة حتى تتقيها بذلك المهم»، ليقع اختياري اليوم على هندية، وفي المرات القادمة سأجرب حسناء برازيلية أو يابانية حوراء، اخترت البنفسجي للون الغرفة، والفانيليا للرائحة، وموسيقى السيتار لأذني، ثم نوع الجنس الذي أرغب في ممارسته، وبالطبع ملات القائمة بأقرب الأوضاع إلى لياقتي مع بعض الطموح، قبل أن أنتهي قائمة الطلبات الخاصة، يأتي الرقص في مقدمتها، ثم يتولى الخيال الدفة ليحقق أظلم الرغبات، أرسلت من سواربي البيتيكوين المطلوبة، فتطلق الهولوجرام «رقم سبعة» فتوجهت للغرفة.

أغلقت الباب ورائي وكانت على السرير مرخية، ليس مُدَّبب يمر بالساه أو زلزال يهز الأرض أن يقلق راحتها أو يحرك فيها شعرة، رأيتي فابتسمت بملامح شلت تفكيري كما تشل الحية ضحيتها، اقتربت مني بخطوات ملؤها الغنج، ولما باتت على بُعد ستيمترات التقت شفتي، بثت في جوفي فرموناتها المكثفة قبل أن تدفعني برفق لأعطس في كنية، تساءلت يوماً لم ضمرت حاسة الشم لدى الإنسان دوماً عن باقي الحواس؟ ثم استنتجت السبب؛ فالرائحة أقرب الحواس إلى الجنس، الغزال يطلق المسك من سُرته في موسم التزاوج إعلاناً عن الرغبة، يقترب الذكر، يشم الإناث حتى يعثر على الرائحة التي تحركه، ليقرر التزاوج، أما الإنسان فالجنس لديه ابتعد عن الطبيعة، خضع للتقاليد الاجتماعية، فهو بخلاف الطعام والشراب والتنفس، يستطيع الانتظار؛ لذا جعله القدماء محظوراً محرماً، تابو، لا نستطيع ممارسته حين نرغب، لا نتكلم عنه إلا سراً، فعلاً مشيناً، نجساً؛ لذا كان علينا إهمال أنوفنا، الترفع عنها والشعور بالعار منها، أو غلقها نهائياً لو استطعنا، متناسين تماماً أننا نهرس بأقدامنا عضو الإثارة الجنسية الأول...

إنه التطور، إلى الخلف..

حقائق مؤلمة ليس من المناسب تذكرها في حضور إلهة هندية.

تحت دائرة التور، وعلى نغمات السيتار، تلوت وتمايلت، تحركت أطرافها وخصرها في موجات تدوير العقل، أوضاع رسمتها كتب الكاماسوترا قديماً، قبل أن تشدو بصوت بث التنميل في أعصابي، كانت تعرف جيداً ما تفعل، ما إن ناديتها حتى زحفت فوقي، انهالت عليّ مسحاً وتقبيلًا، غرقت فيها، شملت، أوصلتني إلى حدود الجنة قبل أن تهمس في أذني بأن علينا التوقف، فضربات قلبي غير منتظمة، تجاهلتها فاعتدلت، تلت عليّ تعليقات الأمان الخاصة بعاهرات الروبوت فارتميت على ظهري مستسلمًا، دلكت صدري ونصحتني باستبدال قلبي بآخر جديد، ثم اقترحت منتجاً لشركة، دفعت تكلفة ذلك الإعلان، بعد دقائق ابتسمت ثم انكفأت عليّ، استوقفتها، نظرت في وجهها ثم طلبت تغيير لون جلدها للون المرمز ففعلت، ثم بدلت شعرها الأسود بالأحمر، وغيّرت من هيئة شفتيها لاستدارة عنقود عنب ووسعت عينيها قليلاً، نظرت إليها للحظات مُستعيدة تلك التاليا، ثم التقتها، بروح أخرى وشغف غريب، حتى أصدرت مفصلاً صرياً فتلوت فوقي بحرقية حتى انتهت ولحمت، لدقائق لم أحصها، أنظر إليها في عجب غير مصدق الشبه بينها وبين تاليا، بثت في أذني نغمات زغرغت ثنايا قلبي، ومسحت جسدي بالزيت ثم دلكت متصفاً ظهري فهويت في بحر كاربيبي، سقوطاً لانهائياً نحو مياه زرقاء فيروزية، ما إن لمست سطحها حتى غفوت، لأستيقظ فوق كرسي مريح، مُرتدياً ملابس التي تم غسلها، وفي عدستي يدور فيديو لأفضل لحظاتي مع فتاة الروبوت الهندية، لحظات منتقاة تُظهرني «إسكندر أكبر» في أعني فتوحاته فوق جزيرة بيضاء سعف نخيلها أحمر، تومض تحتها الاختيارات: تمجيد حيواناتي المثوية نظير رسوم سنوية، تخفيض ١٠٪ على زيارة منزلية لنفس الفتاة، أو الحصول على تسجيل مجسم للقاء. أوقفت الصورة وتأملت ملاحي، لدقيقة كاملة، قبل أن أختار المحو.

ألقيت جسدي على كتبة الطائرة وطلبت عودة للمنزل، هامداً خامداً، تضربني رعشات النشوة، وأحاسيس أخرى في لون الطحالب اللزجة أهرب من التركيز فيها، أتابع في الشاشة مُدْبِئاً يقترّب من الأرض بسرعة خيالية تراها شديدة البطء، كخطواتي في أول زيارة قمت بها إلى الحي الغربي، وأول معرفتي ببيت الحور، وقتها كان قد مر على زواجي من مريم اثنتا عشرة سنة، تربع الملل فوق الاكتاف وترهلت أطرافه، وله كل الحق، فهو أهم اختراع لفصيلتنا والمحرك الأساسي للتطور والتغيير، هل رأيت خرتيتاً يشعر بمثل من قبل؟ وهل رأيت في المقابل بجعة تمارس «القَمَص» ^(*****) أو ليّ البوز؟ بالطبع لا، فقط الإنسان هو من يعاني تلك الأعراض، فراغ الهواء من الصدر حتى يتقلص وينقبض، شد الأعصاب من الأطراف رويداً رويداً حتى تنقطع، لتفقد ما يُسعر نارك، ما يحفز تحديك لذاتك، لتصبح حتى رؤية المذنب.. روتيناً يومياً...

فالزواج؛ كاختراع، غير مُصمم ليستمّر أربعين عاماً، ومن الحيانة أن ترتبط بامرأة قبل أن تكتشف نفسك أولاً...

لم أكره مريم يوماً أو أرغب في استبدالها. هي الكورتيسا، ملكي المتوجة، القديسة، هي عذراء الكنيسة المرفوعة فوق الرءوس، أدركت ذلك مع الوقت كطفل يستكشف قدرات إله، حتى صدقت بها وآمنت، ومارست الشعائر، بثّ أربح فكرة الاقتراب منها أو لمسها، أقشعر من تحيلها عارية، وأنفر إذا مارسْتُ عليّ غنج الإناث أو اشتيمت في أنفاسها الجوع الذي أراه في الأخريات، سور شفاف ضُرب بيّني وبينها، ليعلو حتى السحاب من بعد إنجاب ابتنا، تُوجت على عرش، باتت معاشرتها تدينسها، لها، وللهاالة المقدسة التي تشع من حولها، شعور جارف لم أستطع إيقافه أو كبجه، سبعين ألف سنة جنسية باتت تفصلنا، حتى لاحظت هي، فالتغير والتفور لها رائحة نفاذة، في البداية أومات لي بصمت، ثم نُوّهت بكلمات متوارة خلف كلمات، تهربت منها بكل الحجج حتى ضرب الشرخ كرامتها، ولم أسمع صوت التكسير، فالأزيز بداخلي كان عالياً، طغى على بقية الأصوات، أزيز نحلة مُستغرّة مجنونة محبوسة في رأسي، تنفجر للخروج من أذني، أو تثقب جهتي، لامتناس رحيق الغزلان، أو لسعهم، في البداية كنت أتعجب من نفسي، لم تنكأ الحيات وتزاحم حين تظهر يسوق النخاسة غزالة تروقني؟ تضغط على مفاتيحي بأصابع قدميها، أو تلمس شعقي، تثيرني فيخلع خيالي ملابسها قطعة قطعة، أراها عارية، أتخلل الجلد لأتابع القلب النابض وتدفق الدماء في شرايينها، قبل أن أدخل فيها، عبر عينيها، أو تتورطها بعد فتح حوضها إجبارياً، أرتديها كقفاز، أتحرّك بها وأرقص في المرأة، أنفُس برئيتها، ألامس جلدها بأصابعها، أخربشها وأكسب، أمسح لفحات سخونتها، بكفيها، ثم ألقى بكلماتي في أذنها، بعد أن ألق طيلتها تطهيراً، هراء ذكوري مليء بالفكاهة والانتصارات المزيقة على التنانين والجبال والأشخاص، وقد أذكر بعض القصص المثيرة التي تُحفز هرموناتنا، أو أضعها في اختبار شخصية وأتركها تزهو بنفسها حتى تتساقط أسنانها فأجدها في سلسلة حول رقبتني، ثم أقنعها أنها فريدة من نوعها دون النساء، لها أربعة أضاء وثلاثة أرداف، وعقل عالم فيزياء، حتى تقف حلماتها؛ احتراماً، فالأنثى تبجل الصياد الماهر حتى وإن وضع رأسها المحنط على الحائط، وتعتق النصب على أن يكون باسم العشق، في تلك المرحلة تكون قد قُلِّيت في زيتي واهم جلدها، هنا أتلو خواطري بعد أن أسمعها في رأسي صاخبة صارخة، أبنها كموجات الراديو بين الكلمات وتحت الأنفاس، نداء، بل أمراً: اركعي أينها الأنثى، يا من بالغ التطور في نحتك وتركيبك وخرط منحنياك، أنت الدليل الوحيد المقبول على وجود إله، أنت الشهية الأولى والأخيرة، أنت ملخص الكون في سبعة وخمسين كيلوجراماً، أنت تَبْرُكُ بض طري ورة من التجوم، اسجدي، طبعي وافهمي، فأمامك جواهر جي حقيقي، يُقدر صنعتك وعيارك، دعيني أنتزع عنك جلدك فالجو حار رطب، دعيني أحصد أعلى شطحات جنونك، أعيد عبادة الأنثى ثانية إلى الوجود، على يديك، ليست هناك من تقوتها الموجات. يَرْمُقَتْنِي في شروء، يحدقات مُتسعة تلمع بالخيال، يَرْتَبِكُنْ، ثم يَبْتَلِعُنْ رِبْقَتِي فأكتفي بصمت وبإسامة، أهر رأسي بجُمالة وأسلم عليها بود، بل بأطراف أصابعي، كأني لم ألت في مائها حجراً، كأني لم أعاشرها وأنجب منها أطفالاً في تلك الدقائق القصيرة، ثم أرحل وبني نشوة، وظفر مكبوت، سأراقبها وهي تقترب من بابي، قطعة جائعة في موسم الزواج، قطعة تعاني أعراض الانسحاب من الإدمان قبل الإدمان، وسيكون لي الرأي الأخير، إما أن أفتح لها الباب، وإما أن أكتفي بجرها بعيداً لتزداد خريشة ومواء وجنوناً.

ظننت نفسي يوماً عبداً للفروج مُبْجِلاً للأنداء، أو أنني أمر بالمراهقة المتأخرة التي تُصيب الرجال بلا استثناء، تصيب حتى من تزوجوا عن عشق حقيقي وخلد التاريخ قصصهم، ثم قرأت عن «عنتره بن شداد»؛ ذلك الشاعر العربي الذي كتب الدواوين في محبته عبلة، وخاطر بحياته لأجلها، ثم خانها!! مع أكثر من ثلاثين امرأة، وتزوج عليها، قرأت أيضاً عن «هيو هيفتر» صاحب مؤسسة «بلاي بوي» الإباحية، قبل أن يموت كان مرتبطاً بثلاث عارضات يصغرته بستين عاماً، في وقت واحد، ويثني على الفياجرا التي أعادت إليه الحياة! هنا، أدركت أنني كائن يعلو سلم السلسلة الغذائية، ضارٍ مُفترس للنساء، وعلى أن أنصالح مع نفسي وأكف عن جلد الذات، فهن الغزلان وعرقهن مرق، من يلوم الأسد على القتل والنهش؟

فالبقاء دائماً وأبداً سيبقى للمفترس.

شيء ما ليس على ما يُرام، أليس كذلك؟ بل أشياء، إن كانت العلاقة بين الذكر والأنثى من تصميم إله فلن ألتطوع لإخياره بالنبا الحزين، سبلعتك يشوبها العطب كلما طال بها العهد، عيب خلقي - إن كان للخلق وجود - أو تطور لم يكتمل بعد! مثل الأجساد التي نحتها من أجلنا، هشة ضعيفة، مليئة بالثغرات، محمولة بالشهوات.

إن كان الإله يفضل النباتيين، لم لم يجعل في صيد البازلاء متعة كمثعة صيد الغزلان؟

إن كان في الجنة «حور عين» للرجال فلم لم تجعل للنساء؟

ولم لا تقبل النساء بفكرة التعدد في الأرض إن كن من تصميمك وعلى دينك؟

من ذا الذي يستطيع إرضاء أنثى واحدة؟

هذا سؤال في الخيال غير العلمي.

ليس من الأفضل لك أن تنكر الخلق؟

تدفعه بعيداً عن مسؤولياتك، أو تعتذر، حتى لا تُتهم بسوء التصميم، حتى لا تُرفع عليك دعوى إتلاف متعمد أو إهمال؟

بعد لقاء مع صديق قديم، أسرّ لي همساً بأن الحور العين تركز السحاب الموكوم، وتسللن خلسة من فوق سبع سيات محوسها الملائكة، ليستقرن في الحى الغربي، أستطيع هناك أن أعيش تجربة خلق الغزلان من عدم، في مكان يُسمى «بيت الحور»، فجينات نساء الأرض مُبرجة في ذاكرة الآلات، لك الاختيار في كل تفصيلة، بداية من شعرها وحتى أصابع قدميها، صوتها، لونها ورائحتها، درجة حرارتها، وحتى درجة غنجها، لن تميز بينها وبين أنثى متمرس على الجنس سوى أنها لا تعبس في وجهك تأنيباً أو ترميك بعدم الاهتمام وقلة الشغف بعد الجنس، وتستطيع أن تعيدها عذراء بهمة في أذنها، لتتصر «ذكورياً» بفتوحاتك، ورغم أنك ستفتقد حُفلات التمتع ومتعة الرفض والإصرار والترقب، إلا أنها تحت الطلب بشكل حصري، متاحة مُرحبة ومضيافة هائجة في أوقات ندرة الغزلان الحقيقية، فكثيراً ما تحتفي القطعان وكان يبينهن اتفاقاً، هكذا ذهبت إلى «بيت الحور»، يسبقني الفضول، أسلمت نفسي للآلة فصعدت بي إلى أطراف الجنة، لتفجر في نفسي الأسئلة، لماذا نظرنا إلى الجنس كفعل نجس؟

الم يتكره الإله؟

الم يختره وسيلة للتزاوج؟

ولم نستحم بعده؟

ليس من المنطقي أن نستحم قبله؟

الإجابة النموذجية بصوت عميق وبشدة فوق الهاء: «التطهر»!

والتطهر لا يتقي إلا من الدنس والتجسس والذنب!

يخفف وطأة الخطيئة ويمحوها بالماء والصابون، فالجنس الذي تربينا عليه فعل دنس محسوب على الأنثى، لكنه عمود للذكر، بل ومحط فخر وتبؤ، في مجتمع يحرمه ويستنكره في الظاهر، لكنه مهووس به في الباطن، بل ويسرع فور الانتهاء منه في التخلص من آثاره.

وماذا عن ممارسة الجنس مع أنثى روبات؟ هل هذا حرام؟

ليس هناك خلط في الأنساب أو احتمالات إنجاب من الأساس، من يملك القرار؟ وأي مرجع نعود إليه؟

وماذا عن غشاء البكارة؟ ذلك الجدار الذي دفن الكثيرات تحت التراب، لقد اعتقد القدماء أن الأنثى خلقت فقط من أجل تسليّة آدم، بل وخرجت من ضلعه أثناء نومه حين شعر الملل!! فمن البديهي أن يصدقوا أن الغشاء هو هدية الرب للتأكد من الشرف!

لكن لم يخلقه الإله في الفيل والشمبانزي وأجرذان؟

ولماذا خلقه في الأنثى ولم يخلقه في الذكر؟

وماذا عن عضو يقضح الزوج إذا خان؟

هل الغشاء هو مرحلة في التطور؟ وسيلة الجسم في حماية نفسه من الميكروبات؟

وربما وسيلة لجعل المرأة تترث قليلاً فيمن ستستضيفه؟

المهر ليس في جلدة رقيقة، بل في العقل.

أقبل الإله اقتراحاتي لتحديث متجاته؟

أقبل النقد؟

هكذا ظننت يوماً، وكذلك «أوديب»، كان ملكاً على طيبة الإغريقية حين ضرب الوباء مدينته، حار في الأسباب فسأل عرافاً فأخبره أن في المدينة رجلاً دنساً، وهو سبب الوباء؛ لأنه قتل أباه وتزوج أمه، ولم يخبره باسم الرجل، فهدده أوديب حتى رضخ في النهاية ثم أشار إليه معترفاً: إنه أنت أيها الملك... هاج أوديب وماج، وضع العراف في السجن واتهم آخرين بالمؤامرة عليه، قبل أن يكتشف أن العراف على حق، الرجل الدنس لم يكن إلا هو نفسه، قتل أباه وتزوج أمه وأنجب منها ولدين وبنتين، دون أن يعلم، لماذا؟ لأن الإله لعنه بلعنة أزلية قبل أن يولده، وكان عليه أن يكفر عن ذنب «لم يقترفه» بفق عينيه، لأنها لم تريا الحقيقة.

حين عُدت إلى البيت ركض نحوي «داروين»، ذلك النقي ذو الشعر الأبيض الذي فعلت كل ما بوسعي لجعله كلبًا مثاليًا، زرعت فيه شريحة التحكم عن بُعد، أضبط درجة نباحه، نوبات غضبه، وأمره أن ينام فيسقط على ظهره حتى أوقفه، كما جنت من جيناته عوامل الضعف كي يطول عمره؛ فلا نعاني فراقه المؤلم مثلما حدث مع كلبنا السابق، فهو الكائن الوحيد الذي تتحدث إليه مريم باستفاضة، حتى إنني فكرت في استنساخه تحببًا لانتكاسة قد تغرق فيها لسنوات، ولنفس السبب ألتجئ اختيار روبات على شكل إنسان للعناية بالبيت، كي لا تعاطف معه إذا تعطل أو وجب الاستغناء عنه، ولم يكن ذلك ليغير من الأمر شيئًا، فمريم تذرف الدمع على الشجر المقطوع، على الدب القطبي حين انقرض، وفي أوقات الفراغ للثنا.

ارتقيت السلم ودلفت إلى عمر الغرف، إلى حجرة سلاف، وفتحت الباب، كالعادة كانت فوق كرسيها الجلدي المريح، والروبوت بجانبها ينظف الغرفة ويرتب أغراضها المتثورة، مُستغرقة في عالمها الافتراضي الذي لم تعد تغادره إلا للنوم، تأملت ملاحظتها، لم تتغير يومًا، من رآها صغيرة في فيديوها المتحركة على الخائط لن يبدل مجهولًا ليميزها كبيرة، أنذكر حين راقبتها طوال مراحل الحمل بانبعث ثلاثي لتسعة أشهر كاملة في شاشة الحزام المحيط بطن مريم، ثم تابعت انبثاقها من الرحم إلى المياه، لا يمر يوم إلا وتراودني فيه تلك اللحظات، اندفاع الدم، خروج الرأس، الجسد اللين اللامع، العيث في وجه الحياة، الصعود إلى النور، الشهقة، الصرخة، ثم الاستسلام للنوم بعد بكاء هزيل كمواء القطط، تلك الساعة التي كنت أتحنيها لأتأمل عينيها المغلقتين على أحلامها، فمها الذي يلوك ثديًا وهميًا، ولعبتها التي تحنننها، رغم سعادي بنضج سلاف أفتقد تلك الأيام، ربما لأن المصير محتم، فعل أحدهم يومًا أن يصبح شمسها التي تضيء حياتها، وسأصير أنا كوكبًا بعيدًا غير مسكون، يؤنس عينيها كلما شردت، لا أستطيع تخيل ذلك اليوم، ولا أمتنع نفسي من قنني بلوغه، تلك الكلبة الصغيرة ذات الخمسة عشر عامًا، ستصير أمًا، وستعرف من الحياة ما تعرفه النساء، أو هي بالفعل عرفت.

زرعت قدمها ففتحت عينيها:

- ما شفتكيش من يومين!

- أسفة، مسافرة برلين، الأولياد فاضل عليها ثلاث أسابيع.

- طيب الحظن يياخذ عشر ثواني.

- حضنين.

ونامت برأسها على صدري فقبلت مفروق شعرها:

- احكي لي.

- متأخرين في البرجة، وعندنا مشكلة في الوزن، الروبوت المفروض يقل كيلو كمان عشان الطفوف في كثافة المية، وعندني مشكلة صغيرة في عزل المفاعل.

قالتها وعرضت باخولوجرام تجربة يسبح فيها الروبوت الذي صممته على هيئة بشرية، يغطس تحت المياه بستيترات بسيطة:

- عارفة! إحنا صغيرين كان كل أملنا مفاعل فري عشان الكهرباء ما تقطعش، النهارده بتسي داخله أولياد الروبوت بمفاعل عندها مشكلة صغيرة في عزله، لو قلت الكلام ده من ثلاثين سنة كانوا قالوا عليك مجنونة.

ضحكت فداعبتُ أرنية أنفها، ليأتي وقت السؤال السمج الذي يخرج من صدري دائيًا بجزة من المري، فعليًا تقبل أن لايتي صديقًا، نفس مشاعر النساء تجاه فكرة الزوجة الثانية، تلك المنطقة العتيقة التي ترفض التطور في غي:

- أخبار صديقك إيه؟

- كويس.

- مم.

تلك «الميات» الممدودة، أقولها حين أكنم في قلبي أمرًا، تأملت جسدها، يشبه جسد أمها مع فرق النضارة، ثم تخيلت ذلك الحقيق وهو يلامسها، وقبل أن أتخيلها تلامسه بدورها زفرت تشنيتًا لأفكاري ثم سألتها مُغيرًا تلك السيرة العكسة:

- بتسجلي أحلامك؟

مالت برأسها للحظة رأيت فيها ملامح مريم:

- ياسجلها ومقسها، عادية وكوايس.

- كوايس!

- الكوايس بتجيب إعلانات أكثر من الأحلام العادية، فيه واحدة باعت حلم لشركة أفلام بسبعين ألف بيتكوين.

- طب والأحلام اللي بتشوفي فيها حاجة من المستقبل؟

- دي باشيلها لوحدها ومش باعرضها لحد.

مسحت على شعرها فابتسمت:

- بابي، أنا محتاجة أشترى الـ iJacket قبل ما أسافر.

- يفرق عن الجاكت القديم؟

- يفتّر أربعاش لون بدرجاتهم، ويضبط المقاس لوحده، والأنتي فيروس اللي فيه «Updated» من غير فاتورة، ويتحمل الـ «NIA» (*****) سبع ساعات، بتلتمة وأربعين «بتكوين» بس.

من يملك صد إعصار بيديه يملك صد عيتي سلاف؟

باستسلام فاوضتها: بتحيني؟

ابتسمت بعفوية رغم ما يعتمل في صدرها من ناحيتي:

- إنت العالم كله.

وَفَع تلك الكلمة يعيد ترتيب خلايا جسدي، غابت في صدري للحظات ثم لثمت خدي بقبلة وغاصت في كتبها:

- لازم أرجع الـ «VR» (*****) عشان عندي شغل كثير.

ضغطت على سيواري الأسود نحوًا المبلغ إلى سيوارها زاهي الألوان، ألقت برأسها إلى الوراء عائدة إلى باحتها الافتراضية، مغمضة العينين، واسمة ابتسامة عذبة على شفثيها لا توحى بأن ذلك الرأس الصغير يحوي من العلوم ما يعجز عن استيعابه علماء القرن العشرين، فقد أنفقت معظم ما أملك يوم قررنا الإنجاب، انتقينا لها أفضل صفات الأجداد الوراثية، قبل أن نحقق بالجينات المحفزة للذكاء، لم أكن لأتحمل أن تصبح صغيرتي من المتأخرين المنبوذين في ذلك المجتمع، كما لم أحلم يومًا أن تحلل علاقتي بأُمها كأمراة مجربة، فجهل الأطفال يجعل منا آفة، حتى يكبروا ويغادروا البيت، ليكتشفوا أننا لم نكون سوى بشر، وأحيانًا وضيعين، لتتطرق الأعين بما لا يقوى على قوله الرجال، تنظر إلى أمها بشفقة، وضيق من غيابها في عالم النجوم والأبراج، وإليّ بإعجاب، من أفكار التي تصدم الجموع، بالإضافة لنعصب لا تحفبه الأحضان.

صغيرتي لا تدرك بأنها الكون الذي أحيا فيه ومن خلاله، لا تدرك أنها سبب عودتي إلى البيت كل يوم، ولا تستوعب أن ابتسامتها كافية لملء أخواء بداخلي، فقد أصبحت أُمي وابتي وزوجتي، يعد ارتقاء مريم العذراء، بين النجوم.

حين وقفتُ في مرآة الحُتام تأملت لمسات أنثى الروبوت على جلدي، وغثلت قبولي عرض الاحتفاظ بحيواناتي المنوية نظير رسوم سنوية، أن تنجب أنثى الروبوت مني طفلًا! ابنًا خالداً لا يموت!!
ماذا سأدعوه؟

ابتسمتُ ففسلت أسناني ثم تأملت قسائتي، رغم أفراس إيقاف الشيخوخة اليومية فإن غُطَي الأربعين هو بداية عد تنازلي هامس لنهاية ما، فمن تحت الجلد شخص يتجعد، يهرم، يمل الحياة ويضيق بمن حوله، وبنفسه، يقف خلف عينيّ ويُردد بأعلى صوت ما أقرؤه، يصرخ بما أفكر فيه، وينفث في رأسي أحلام يقظة أضاجع فيها كل «ياه» مؤنثة تقترب من دائرتي، حتى أقوم من مكاني بُعداً عن فمه كربه الرائحة ومظهره المزري، فملابسه ضيقة بالية، مثار دائماً، كفحل في هياجه، مزاجه عصبي وأسنانه صفراء، يكبرني بعشرة أعوام، له مثل صوتي، وعينيّ إذا جحظتنا، غسلت وجهي ونفضت عقلي كي لا أوقظه، ثم ابتعدت خطوات، رسمت المرأة جسدي ثم أضاءت الهالة الحمراء حول دهون خفيفة بالبطن، إجهاد في منطقة الكتفين والقلب، وبقعة داكنة في طرف جبهتي تظنها المجسات دائماً جرحاً لم يلتئم، قبل أن تستعرض بياناتي، وزني زائد ثلاثة كيلوجرامات، البنكرياس الصناعي يعمل بكفاءة، ونصائح بتعديلات غذائية مقترحة، قرأتها باستهتار مريح، ثم خرجت إلى الغرفة.

مريم كانت جالسة على الفراش، ترتدي قميص النوم الوردى، تطالع النجوم وتقرأ مزاج الغد من قمر مجسم يدور أمامها وقضاء يشع ويتوهج، بمائل خريطة السماء والنجوم التي ربما تكون قد فنت منذ آلاف السنين المصنوية ولم يصد خبرها بعد. اندسست بجانبها. تأملتُها لدقيقة لم تُبد فيها أي اهتمام لوجودي، فانشغلت في العدسة بيوميات نزاعات المياه الإفريقية والآسيوية، أسعار اللتر النظيف الذي تجاوز سبعة بيتكوين، وتوابع الزلزال الأمريكي الذي ضرب كاليفورنيا وكولومبيا قبل أن أطفئ النور وأستلقي. مرت دقائق كدت فيها أن أغفو حين سمعتها تهمس ولم أكن قد سمعت صوتها منذ أسابيع، تتمم بها في رأسها من أفكار، صوت خفيض يتبعه نجيب خافت تنكره إذا سألتها عن سببه ولو رأيت الدموع في عينيها! فما كان مني إلا أن أعطيتها ظهري وأغلقت عينيّ، حتى إذا نفخ النوم في أنفي همست:

- نديم.. بتحبي؟
- هل تحب الشجر؟
- هل تحب البحر؟
- هل المسيح مسيحي؟
- بحبك طبعاً، بتسألني؟
- محتاجة أسمع.
- هي نجومك مش بتقول لك؟
- النجوم ما بتكلمش عنك.
- تنهدت، ثم لامت ساقِي:
- رجلك ساقعة جداً يا مريم.
- سحبتُها في صمت، تلك كانت طريقة مريم في طلب الجنس، دعوة خافتة ما تلبث أن تراجع مع أول معارضة، كم أكره انسحابها، أغضب من صمتها، من يأسها، أردفت:
- ما سألتيش النجوم مرة ليه رجلك ساقعة؟
- نظرية التطور ما طالتنيش.
- محتاجة تتحركي عشان الدم يجري.
- ضاقت صدرها فسمحت نفساً وزفرته:
- مالك؟ (سألتها مستفزاً).
- ماليش.
- نفسي مرة تتكلمي.
- أنا باتكلم.
- وأنا مش فاهمك.
- الشمس في البيت التاسع، السنة دي سنة الكشف بالنسبة لبرجك، هتفهم كل حاجة.
- فعلاً!

- علم النجوم موجود لأن الإنسان بيعيد أخطاه.

أنفهم أن نطلب غزلان الغابات المفتوحة المكر والخديعة لاصطيادها، الترقب والاختفاء، بندقة دقيقة التصويب أو جعبة سهام

حادة، وتوقيت مناسب، لكن أن تطلب «غزالة مشوية على الفحم + العيش والسلطات» نفس المجهود والشقاء، فذلك تعذيب نفسي لصيادها، والمعادلة بسيطة:

ضعف الإغراء = ضعف اندفاع الدم سفلتيًا + (الملل والتعود

× عدد سنين الزواج) ٢

وبالتالي:

ضعف اندفاع الدم سفلتيًا = إحباط أنثوي + (إهمال جسدي

× عدد سنين الزواج) ٢

بحث في جمعيتي عن طليقة رصاص من أجلها، عن شبكة صيد غير مليئة بالثقوب، أو سهم متصب متأسك، ولم أجده، عاهرة الروبوت عصرت روحي حتى غادرت عصارة الجنون دمي، كيف تدور ماكيناتي دون رحيق يُسعر شراييتي؟
- مش مصدق إنك لسه بتكلمي بالنجوم والخط، الموضة دي بطلت من زمان.

رمقتي بلا تعبير، ثم أعطتني ظهرها منتهية الحوار، راودني التعاس، غلقتني وكاد يفتر بي لكن دقائق صمتها كانت صاحبة، فليس للوردة ذنب إن ذهبت رانحتها وذبلت. حسمت أمري، شققت معصمي بسكين مشحوذ والتفتت فعانقتها، لم تستجب، ولم ترفض، قبلت رقبتها ثم لامست صدرها، بدأ نفسها يضطرب، اختلطت دموعها بنهيجه، خلعت بيجامتي ورفعت عنها قميصها، وطلبت من العدسة استرجاع ليلة ساخنة مع «صديقة عابرة» لتشتعل الجذوة بداخلي، واستجابت مريم، بسلبية، استلقت على ظهرها تقليديًا فاعتلتها، بلا مقدمات، وتعمدت أن أكون عنيفًا حاسيًا، عليّ أن أترك فيها ما يكفيها شهرًا أو سنة، فلا تنظر إليّ بشجن، ولا تعاتبني من خلف الكلمات، عسى أن ينسيها الارتجاج كواكبها ونجومها، عسى أن تقرر الترهبن في دير سانت كاترين، حتى حانت سكرات انتهائي، وأردت التجويد - حيث إن النهايات الأخيرة تدوم - فخدشت شحمة أذنها بلفظ جريء مصحوب باسمها، أو هكذا ظننت، «Shit»، ما نطقته لم يكن سوى اسم صديقتي العابرة التي تنوى من تحتي في العدسة... هل سمعت الاسم؟ ريبا، وريبا لا، سكنت حركتي لإرادتي وساد الصمت والترقب، انتظرت منها أن تبدي ردة فعل ولم تفعل، فقط خفت أنفاسها قبل أن تغمض عينيها وتستلقي على جنبها، انتظرت دقائق حتى انخفضت حرارتي ثم خلدت إلى نوم ثقيل سأقوم من بعده مهشم العظام.

بعد يومين.

حين أنهيت عملي التحية سيرا إلى المقهى، ورتين اعتدت عليه منذ سنين، احتساء القهوة وسط الناس يبعث في شراييني الحياة، 'نقاء الأعين، فمسات، ارتضام الشوكات والملاعق وتبادل النظرات مع أنثى غنشي لشوكولاتة، وربما اصطباها، جلست قرب النافذة واستعدت العنوان، «الملاذ» أترك جسدي بالخارج، طلبت من العدسة معلومات، ثوانٍ وانهمرت البيانات، فيلاً قديمة بالزمالك تطل على وادي النهر الجاف، نضاه بالشموع والقناديل، لا كهرباء، لا شبكات، لا عدسات «AR»، من يدخل الملاذ يصير مقطوعاً عن العالم الخارجي، المكان يوفر الطعام، الاسترخاء، والصمت! وخدمات روحانية أخرى.

الكلمات تحمل تساؤلات أكثر منها إجابات، فتلك الاتجاهات تواكب العلم دوماً مواكبة الرعد للبرق، التواصل بالكائنات غير المرئية والاندماج في الطبيعة، هالات الطاقة التي تحيط أجسادنا، والشاكرات؛ مراكز القوة التي تعالج الأمراض، تأثير البلاسيبو، تلك الفكرة السحرية التي استخدمها الأطباء قديماً، مواد غير فعالة، وغير مضرّة، تُعطى للمريض عن أنها لعلاج، وما يلبث أن يتحسن بتأثير الوهم النفسي، لفترة، قبل أن يتكسب فجأة، أو يكتشف انتشار السرطان في كل أعضائه، لم تسجل حالة واحدة شفاها العيب في الشاكرات المزعومة بشكل كامل، والطب لم يتقدم يوماً على أيدي شامانات البوذية، ومع ذلك فالناس ما زالوا يتهافتون وراءها، خصوصاً الصفوة والمتقنين، يسافرون من أجلها الهند وأمريكا الجنوبية أو الميرج، ليضعوا أنفسهم تحت إمرة معلمين يوجهونهم إلى حالة من النشوة فيقعون فريسة سهلة للتلقين والتصدير... ثم راودني وجه تاليا... تلك التي أثارت في صدري نبهاً لا أستطيع حجباً، لأنه من الداخل، عجزني عن استيعاب ظهورها في حلمي يجعل من مقابلتها ثانية حاجساً لم أهاق يستكشف عالم النساء لأول مرة، رغبة مستعرة في إجابة، في القمص، هل حمراء الشعر - أكثر إناث الأرض نادرة - كانت تناديني؟

أنهيت القهوة وخرجت، فصنعت الصدفة خير من انتظارها، سأذهب، سأقفز من الطائرة، ثم أرتحل.

منذ متى أفكر بما سيقال لأي أنثى؟

حتى وإن كانت متزوجة، فبعض الغزلان المحبوسة في المحميات يمللن الحياة حتى يقفزن على الأسلاك المكهربة انتحاراً.

وضعت الإحداثيات على الشاشة، دقائق ودخلت حدود القاهرة القديمة، مدينة الذكريات، عبرت وادي النيل الجاف إلى أرض مليئة بالأشجار العتيقة، أرض كانت يوماً تُعرف بالزمالك، هبطت فمشيت في شوارع مكسوة أرضها وجدران بناياتها العتيقة بأوراق الشجر والأغصان الجافة، أحراش المجر، فمنذ انحسر النيل بسبب نزاعات المياه ^(*****) وارتفعت درجات الحرارة عالمياً بعد ذوبان جليد القطب بنسبة مخيفة، باتت تلك المنطقة التي طالما تجولت فيها صغيراً معقلاً للفجر والأجانب النازحين عن أوروبا، يسكنون أطلال العوامات الراسية على الطين الجاف ويمثلون الشوارع يميناً ويساراً، يقفون خلف بضاعتهم المعروضة بعناية، سُترات حرارية مستعملة، مخلفات إلكترونية لإعادة التدوير، كتب ممنوعة، وزجاجات مياه نقية مهربة، بالإضافة إلى ماكينات نزع وتغيير بيانات الشرائع ^(*****)

تخللت المازة حتى وصلت أمام «الملاذ»، لافتة نحاسية على باب فيلاً قديمة من ثلاثة طوابق ترجع ربما لمائة عام مضت، تحمل واجهتها بنائياً نقوش عتيقة، تغطيها فروع متسقة تكاد تخفي لون الحجر، بالإضافة إلى شجرة بسقة غليظة الخدع في الحديقة تطلل المني. بحثت عن جرس أو شاشة استقبال ولم أجده، فقرعت مقبضاً على هيئة صدفة مستديرة، بعد دقيقة فتح الباب عجزاً قرأت عدستي أن عمره لا يقل عن خمسة وتسعين عاماً، عارٍ تماماً، كسلحفاة دون ذرقة، التجاعيد والأوردة تفرش جلده، وفوق رأسه طربوش قاني لم تحجب من تحته شعراً أبيض ناعماً يتدل على جانبي وجهه:

- مساء الخير، طارق موجود؟

رمقني لدقيقة كاملة، بلا تعبير، ثم ضاق ما بين حاجبيه قبل أن يُغمض عينيه ويفتحها ببطء ويزر رأسه إيجاباً حتى سأله:

- ممكن تقول له نديم؟

فتح الباب، ثم أشار إلى مساحة رُصت فيها الأحذية فخلعت حذائي، سرت وراء خطواتي على أرض خشبية ثنن، محاولاً منع عيني من تأمل مؤخرته المترهلة، قبل أن يستدير أمام حائط متخّم بالصناديق المغلقة، أشار إلى عينيّ بسبابته ففهمت:

- بس أنا لازم أكون على اتصال...

ملاحه لم تحمل التفاوض، عباوت كلماتي بين قديني فخلعت عدستي في هدوء ووضعتها في صندوق، غنسلنا النظر لعضوه المنكمش بين فخذي، الموت مبكراً أهون عليّ من رؤية «مجددي» يتدل بين فخذي كالزائدة الدودية، نفست عن نفسي ذلك الكابوس ودنفت وراءه إلى صالون عتيق تفصيه شمعدانات نحاسية، أجلسني على كنية مريخة والتقطت من فوق المنضدة إبريقاً نحاسياً، صب منه مشروباً عسلياً في كوب صغير وضعه في راحتي وأنا أتأمل عضوه المنكمش الذي بات في مستوى وجهي، اشتيمت المشروب ولم أتبين نوعه، قبل أن يتعد العجوز العاري، ساد الصمت، أو هكذا تخيلت، حتى التقطت أذناي المنمّس، صوتاً خافتاً لأنثى تنن، تتأوه في لذة، وضعت الأعشاب جانباً واقتربت من الجدار فأصغيت، نعم، هذا مواء الجنس، مواء سكت بفتة! طالعت الصور الموضوعة على بيانو عتيق، صورة لزوجين بملابس زفاف ترجع أزياءهم خمسين عاماً مضت، وصورة في باريس لطفل صغير مع الرجل والسيدة من الصورة الأولى، طفل يشبه طارق كثيراً، وصورة لطارق كبيراً في بنية أوروبية بين الثلوج، وصورة لها: تاليا، في مقهى كن يضل يوف على «النهر» أسرنتي ضحكته، والشمس على ملاعها قبل أن أجلس أمام البيانو، رفعت الغطاء برفق وعانقت أصابعه مستديراً من الذاكرة مقطوعة.

- شويان؟

النفثُ فوجدتها بالياب، زجاجة حليب رشيقة مرصعة بالنمش، حافية، تدخن سيجارة ملفوفة بورق شجر، تُفجّر دخاناً أخضر،
ترتدي قميصاً مفتوح الصدر، فوق تنورة عجزية مطرزة، وفي رسغها ألف سوار لم تُحِب وشم أصابع البيانو، أفقت منها فتظاهرتُ بإكمال
اللحن ثم أجبتها:
- غريب جداً!!

(*****) بدأت نزاعات المياه في الشرق الأوسط في أكثر من جبهة، الأولى في شمال الجزيرة العربية بعد سيطرة تنظيم «داعش»
الإرهابي على مياه نهري دجلة والفرات، وفي غرب الجزيرة بين إسرائيل وفلسطين والأردن وسوريا ولبنان على نهر الأردن قبل
جفافه، أما في إفريقيا فقد بدأ النزاع بعد تعنت إثيوبيا والاستئثار بنسبة خمس وعشرين بالمائة من مياه النيل الواصلة إلى مصر، مما
أشعل النزاع بين البلدين.
(*****) ماكينات تُصنّع في معامل قراصنة المعلومات لتزع الشرائح المزروعة تحت الجلد من قبل الحكومات، تقوم تلك الماكينات
بتحديد مكان الشريحة وانتزاعها، أو التلاعب بمعلوماتها للتهرب والتخفي.

من نظرات صيد الغزال

حين يقترب الغزال لا تُبدِ إعجاباً، اكتفِ بلامبالاة لا تصل للتجاهل، وقليل من التحدي مع خفة الدم، احرص على صُنع شرخ في ثقتها بنفسها كي تشني رقبتها قليلاً؛ علّق على وبرة في ملابسها، قطعة جرجير وهمية بين أسنانها، أو أحر شفاء لطف جوانب فمها، وتذكّر، فأمامك ثلاث ثوانٍ فقط لمباغته الأنثى، ذلك هو الزمن الذي لا يستطيع فيه غمها تكوين رد فعل تجاهك.



ضرب الاستنكار ملاحظها:

- إيه الغريب؟!

- إن مفيش أنش بيتهوفن في العالم، تركيبة غنكم فيها نقص ناحية التأليف الموسيقي.

- استفزازي قَرَبها مَترًا، غمرتني رائحتها، جلد معبق بزيت مُسكر، نفست دخانها ولامست أصابع البيانو بأنامل مليئة بالخواتم:

- نوكتورن ١٥ لشوبان، أوبوس ٥٥، اتعزف سنة ١٨٤٤ وأهداها لـ"جين سترلينج".

- واو! ده كبير على أنثى - وكان عليّ أن أبدأ حوارًا - المقطوعة دي ليها معايا ذكرى عاطفية، أول مرة أسمعها أيام المدرسة خلّصتني أحب البيانو، لعبت ستين لحد ما الحياة شغلّتي، البيانو ده بتاعك؟

- لا، بتاع شوبان، عزف أغلب أبحاثه عليه.

- لحظة!! يعني إيه بتاع شوبان؟

- هزت رأسها بابتسامة فتفحصت ماركة البيانو المحفورة على لوحة نحاسية صغيرة، «Pleyel»:

- أكيد بتهزري! ده بجد! أنا واقف قدام بيانو شوبان الأصلي!

- كالقطة مسحت شفتيها بلسانها:

- وعزفت عليه كمان.

- إزاي جه هنا؟

- والد طارق اشتراه من مزاد في باريس.

- أوف!! مفاجأة، بصراحة المكان كله عاجبني، حاسس إنني في فيلم قديم.

- المبني عمره ١٥٠ سنة، مفيش كرسي اتغير.

- عمم، تاليا؟ صح؟

- هُزت رأسها: ذاكرتك قوية.

- إحنا ما اتقابلناش قبل كده؟ أقصد قبل المحاضرة؟

- ما أضش.

- مسحّت ملابسها بعينيّ وابتسمت:

- ذوقك عجري!

من نظرات صيد الغزلان

أبد الإعجاب بملابسها أو حُلِيِّها في مرحلة «الاستكشاف»، بلامح الوجه أو تصرف تصنعه في مرحلة «الاختبار»، ثم بعضو أو مساحة في جسدها في مرحلة «القفز داخل خطوط الدفاع».



قالت: جدتي من غجر إسكتلندا.

- أسمع عنهم لكن ما تغيلتش أقابل واحدة منهم.

- ما نختلفش كثير عن الأجناس اللي بتكلم عنها في محاضراتك.

- عامة أي فئة منعزلة، بيبقى فيها صفات خاصة، غالبًا سيئة.

- أمراض؟

- أو جمال متفرد.

طال صمتها فأشرت إلى الحائط:

- من شوية كان فيه حد في أوضة قرية بيعيط أو...!

- ده كان صوتي.

وابتسمت دون أن ترمش، تتفاخر الفائزة بموائها الصباحي، نازعتني نفسي أن أقص عليها حلمي لكنني تراجعت، فتلك بداية سخيفة ما كنت أنا شخصيًا لاستيفها، سألتني:

- بتعمل إيه هنا؟

- عاجيني الرجل العريان اللي بره فجيت أشتريه.

قلتها وأشحت بنظري نحو البيانو حتى ابتسمت فاستطردت:

- بصراحة، أنا مش عارف أنا جاي أعمل إيه هنا!

اتسعت ابتسامه أبرزت غمّازتين قاتلتين، سحبّت نفسًا من سيجارتها الملفوفة وتابعت:

- أغلب اللي بيعجوا هنا أول مرة بيعقوا مش عارفين همّ جاين ليه.

- تقدرني تساعدني أعرف؟

- مبدئيًا ممكن أساعدك تبطل أسئلة إنت مش عاوز تسألها.

أبدت الإعجاب من جراتها بهزة رأس:

- بمعنى؟

- إنت جاي هنا عشاني؟

نحجّت في بعثرة خلایا وجهي، وتوهمت للحظة أنني اشتيمت ريقها في زفير خرج مع حرف الشين في «عشاني». ابتسمت رغما عني ثم حسمت أمري بالرقص على سلمها:

- يمكن!

أضفأت سيجارها في منفضة وغمزتني بعينها:

- إجابة غلط.

كان ذلك حين حضر طارق، يرتدي قميصًا أبرز ذراعين قويتين في جسد متناسق لم أتبيته يوم قابلته:

- العالم الوسيم، صفتين نادرًا ما يجتمعوا في شخص واحد.

ابتسمت بتواضع رغم الزهو الذي أصابني:

- عادة الكلام ده بيبقى تريقة.

صافحني بحرارة ووجه تورّد بالدماء:

- صدقني، الناس اللي زيك حقهم غمّا يتغروا.

ثم أحاط كنف تاليا بود من يتمم على ممتلكاته:

- دي مفاجأة، أنا وتاليا كنا متراهنين، هي مصممة إنك جاي، وأنا قلت مش هتيجي.

نظرت لتاليا: أرجو يكون الرهان كبير.

أجاب طارق: تاليا نادرًا ما نظرتها بتخيب، الرهان الحقيقي إن الملاذ بعجبك.

- المكان جميل، من سنين ما نزلتش القاهرة القديمة.

- أنا عمري ما اقتنعت أسكن في أبراج فوق السحاب، حتى بعد ما اتهجّرت القاهرة، الحياة الحقيقية هنا.

ثم نظرت إلى تاليا: ولا إيه؟!

هزت رأسها وابتسمت فهمس في أذنها، دقيقة كاملة يُسر لها بكلمات لم أميزها، نظرتُ خلالها في عينيّ قبل أن تنفرج شفاتها:

- فرصة سعيدة.

- أأ أسعد!

قَبْل طارق يدها وللعجب تحركت الدماء في صدري، غيرة لم أفهمها، انتظر حتى خرجتُ ثم سألتني:

- شربت حاجة؟

- شربت حاجة مش عارفها.

ضحك طارق: ده روزماري على كاموميل، مهدئ للأعصاب.

- هي... تاليا؟

- مرافي.

امرأته، زوجته، صديقته، عشيقته، أيّا كانت فهي تعرف أنني جئت من أجلها، وأرادتني أن أعرف أنها تعرف، حمراء الشعر تمارس السحر. أردفت:

- حكّت لي إنها من أصول غجرية.

- ده صحيح، من سبع سنين كنت بادّور على حد يعزف بيانو في الملاذ ويساعدني في إدارته، لغاية ما قابلت تاليا، جدتها من غجر إسكتلندا وكانت صديقة عزيزة، ست جميلة كان عندها ملكة قراية الناس، بمجرد ما تبص في عينيك تسرد لك ماضيك ومستقبلك في دقيقة، وتاليا ورثت الصفة دي.

- أخذت بالي، يا ترى الحياة مع حد عنده الشفافية دي عاملة إزاي؟

- في البداية كنت بانحطض من الكشف، أنا تقريبًا عريان قدامها أربع وعشرين ساعة، وبعدين اتعودت، هي كمان اتعودت تطفي عينها معايا، الحب لازم يكون أعمى.

ابتسمت، وكان عليّ كبح أسئلتي عن أثناءه، فمن المفترض أنني لم آت من أجلها، رغم أنني لم آت «إلا» من أجلها، انصرفت بعينيّ إلى البيانو:

- البيانو ده مفاجأة.

- والذي كان عاشق للموسيقى، اشتراه من مزاد بمعظم ثروته تقريبًا... كان مجنون.

ثم أشار لصورة فوق البيانو:

- ده بابا، ودي ماما، الله يرحمهم.

- إنت شبه والدك، حاسس إنني أعرفه، هو عازف مشهور؟

- لأ، والذي كان دكتور بشري، ده بيته، وفي الدور اللي فوق كانت عيادته.

- وده إنت؟

- في فرنسا وأنا باعمل دبلومة الطب النفسي، والذي ساعدني أدرس طب، بس أنا اخترت طريق ثاني، أعتقد إنه لو كان عايش دلوقت كان أول واحد يتهمني بالجنان، خاصة بعد ما حوّلت فيلته لملاذ.

- احك لي عن الملاذ.

- اسمح لي أعمل لك جولة.

خرجت وراه، تقدمتني إلى سلم خشبي دائري، وقف بجانيه العجوز ذو الطربوش القاني والغرلة المتحررة، همس طارق في أذني:

- ده هادي، كان تمرجي عند بابا، بيشتغل معاه من وهو عنده أربعناشر سنة، رجل أصيل ما أقدرش أستغنى عنه.

- هو طيب فعلاً، أخذ متي العدسة وقلّعتني الجزمة.

ضحك طارق:

- معيش. قوانين الملاذ وبتحاول نحافظ عيبها.

- بس هو عريان ليه؟

تأمل طارق العجوز ثم التفت مبتسماً:

- يمكن لو عشت ظروفه في يوم تعمل زيه.

اتفقت معه من باب تقبّل الآخر، وإن لم، ولن، أبتلع مصير الصديق المترهل المنكمش.

في الدور العلوي اتجهنا يسارًا، إلى باب عليه رسم لثلث (Δ)، واره برفق عن غرفة كبيرة، برتقالية السجاد والمخادع والحوائط، شبه خالية من الأثاث، استلقى فيها سبعة أشخاص على جنوبهم، ثلاثة في هدوء التهايل وأربعة في أفواههم غلايين عتيقة، يرتدون بيجامات كثانية مريحة، ومن فوقهم سحابة كثيفة لا تكاد تتحرك، تخدعهم تاليا، تقف بينهم كالغبار في ليل مظلم، تُذكّي نار الغلايين

وتشذو بنحيب عجيب غير مفهوم، كلمات صوفية، وربما غجرية، ممزوجة بذبذبة غريبة تدغدغ الأذان تأتي من جهاز مُركَّب موضوع في ركن، همس طارق:

- دي الأوضة «دلنا»، هنا بنحقق أعمق درجات النوم، نوم إحنا تقريبًا ما بنجربوش، استرخاء كامل بمعنى الكلمة، بنصوم ثلاث أيام عن الأكل، ما عدا المية، وبتغير موجات المخ من موجات النشاط اليومي العادي «بيتا»، لموجات «دلنا» الي أنت سامعها دلوقت، بتنزل تقريبًا من ثلاثين «هرتز» لثلاثة «هرتز» (*****) فرصة للمخ يرتاح، يسترخي، ويسرّب أفكاره للعقل الباطن على هيئة أحلام.

- الي بيدختو ده أفين؟

- لأ، ده مشروم بيتزرع في الهند، بيطفي الأصوات الداخلية العالية، وبيحقق صمت تام، زي صمت الفضاء.

- ثلاث أيام من غير أكل!

- قمة التنفية والشفافية، بتوصل لحالة تركيز ما وصلتهاش قبل كده، في النوم بتطفو الحقايق على السطح، المخ مش محتاج يتظاهر أو يمثل، بيكون على طبيعته، فطرته، لكن أول ما تحصل اليقظة، بتبدي تظاهر وتتحرك بشكل مختلف، ما بتكونش إحنا.

- هم.

مياقي المدودة، أقولها حين أشتم العيب، وحين أبحث بعيني عن حمراء شعر ولا أجدها.

- ندخل على المرحلة الي بعدها.

اتجهنا إلى غرفة أخرى يحمل بابها رمز ألفا «α»، فتحه طارق وكان وراءه باب آخر يسبقه بمرّ ونصف، أغلق الأول وراءنا وجذب ستارة صغيرة تخفي نافذة زجاجية سمحت لنا بالرؤية، الغرفة كانت تشبه الأولى في المساحة لكنها بنفسجية، حتى الوسائد والسجاد، والشموع المضاءة، جلس فيها ثلاثة أشخاص على الأرض في وضع تأمل بوذي، تخفي أعينهم عصابات قماشية، وعلى صدورهم سلاسل تحمل أحجارًا بنفسجية براقه. همس طارق:

- مش كل الي بيخلصوا المستوى «دلنا» يقدرُوا يكملوا للمستوى «ألفا»، اتنين أو ثلاثة بالكثير، أصل الوحدة مرعبة بعد صخب الحياة، وخلع العذسة وقت طويل بيحتاج مجهود، المشكلة الأساسية في الأحلام، مش كل الناس بيكونوا مستعدين للي ممكن يشوفوه.

- والسلسلة الي على صدورهم دي...؟

- أمائست؟ حجر يساعد على الانسجام بين الجسم والروح، السلام الداخلي، ويصد الطاقة السلبية.

كم أعشق تفاني النضاب، خاصة حين يصدق نفسه، يبيعك حجبًا أو شطية في سلسلة، ويروي الأساطير عن كونها مبعث نشاطك وحيويتك، منع تركيزك الحاد، تسحب السموم من جسدك، تقويك جنسيًا، تفعل لديك خاصية الطيران دون أجنحة وتصد عنك الحسد، ولو كان الحسد حقيقة لما كل المشاهير يا أغنياء!

- هم، وفي المستوى ده بيعملوا إيه؟

- بعد صمت طويل تسمع صوتك الداخلي، إحنا بنعيش ونموت، وصدفة إن حد فينا يقدر يسمعه مرة، بتطلع من موجة النوم «دلنا»، لموجة «ألفا»، حوالي ثلاثاشر هرتز، استرخاء كامل وصعوبة في خلق الأفكار، واعيين، لكن متنوع الكلام، أنفاسهم هي أعلى حاجة ممكن يسمعوها، الموضوع بيان سهل، لحد ما يتم الإحلال.

- الإحلال!!

- اللحظة الي اللاوعي أو العقل الباطن يفرض فيها سيطرته على العقل الواعي، يبجل مكانه ويتولى الدفة.

- الي أنت بتكلم عنه ده اسمه «Bipolar Disorder»، اضطراب ثنائي القطب، فرصة ممتازة للهلوسة.

- الي بنسميه هلوسة ممكن يكون أول حوار حقيقي مع الرب.

- عندي فضول أعرف سبب حضورك محاضرتي! على حسب ما فهمت أفكارك بتناقض قناعاتك، إنت بتفترض وجود نفس بتحركنا، وإننا جنس مميز، وإن من دون كل الكائنات لينا معزة خاصة عنده.

- صعب نفهم الخالق، وصعب نقارن تفكيره بينا.

- ده صحيح، لكن ممكن نفهم إن جوجل سنة ٢٠١٤ كان بيستجيب للبشر أسرع منه.

هز رأسه وشرّد للحظات ثم أجاب:

- صدقني، فيه دعوات من الأفضل إنه ما يستجيبش ليها.

- أرجو يكون عارف هو بيعمل إيه.

ابتسم ثم ساد الصمت للحظات حتى أردف:

- في المرحلة الثالثة، الموازين بتتقلب، ودي مرحلة مش يقدر يوصلها غير واحد من المجموعة الي أنت شفتها.

قالها وسكت، صعد الفضول بأذنه السبع على ظهري، وما لبث أن ركب كتفي فراسي ليسد بممصاته فمي وأنفي، أخرج طارق من جيبه سيجارة ورق الشجر الملفوفة، أشعلها وناولني:

- تجرب؟

بعد تردد أخذتها، سحبت إلى صدري نفسًا صعد مباشرة إلى قشرة المخ لينشر حالة من الاسترخاء السريع، سأله بإباء طفل رفض الطعام قبل أن يشتم رائحته فيتخاذل:

- إيه الي بيحصل في المرحلة الثالثة؟

ابتسم: هتقابل أغرب حد ممكن تقابله، نفسك.

- عم!

- لازم تجرب.

إن كان إبليس قد أخطأ، فمن وسوس له؟

السبجارة والفضول كان لها تأثير ورقة صنفرة تحك ثنانيا المخ، لم أملك إلا الصعود وراءه دورًا إضافيًا، سرنا في طرقة طويلة مليئة بالأبواب، حتى وصلنا إلى نهايتها، باب عليه رمز «θ»:

- ثيتا، الموجة الثالثة.

أضئنا سيجارته بإصبعيه وأخرج من جيبه سلسلة مفاتيح نحاسية عتيقة، بها أكثر من مائة مفتاح. انتهى منها واحدًا عليه علامة صفراء، دُشّه في الباب ففتحه وأضاء نورًا أحمر خضب الجدران والكرسي العجيب الذي يتوسط الغرفة، كرسي طيبب أسنان طراز القرن الماضي، هكذا أوحى لي، مكسو بالجلد الطبيعي. له مسندان ومعدع لرقبة، مُعلق فوقه قبتان معدنيتان، الأولى في حجم الرأس، والثانية فوقها، أوسع منها، موصولة بأسلاك غليظة إلى السقف، ومن وراء الكرسي صندوق خشبي كبير مغلق. أشار طارق إلى الكرسي:

- استريح.

- ده كرسي كهربي؟

ضحك: تقريبًا.

بدا الكرسي مُريحًا رغم الصرير الذي أصدره حين جلست، بحثت عن أحزمة لتقييد اليدين والرجلين فلم أجد.

- دي المرحلة الأخيرة، بنيتُ موجات الدماغ خد أربعة هرتز.

- عم، تنويم مغناطيسي؟

- لا.

اقترب ولمس القبة الأولى فتوهجت بلون بنفسجي، ثم لمس الثانية، فدوى طنين خافت منتظم، أشار للأولى:

- ده «EEG» (*****)، وده «MRI» (*****).

- دول أنتيكة من قرن فات!

- صحيح، والذي كان يستخدمهم في العيادة، واحد يقرأ موجات المخ، والثاني يحدد مصدرها عن طريق متابعة الأكسجين في هيموجلوبين الدم، القبة دي بتقرأ الموجات اللي خارجة من المخ، ومن هنا - وأشار للقبة العليا - باراقب مصدرها، ده كان قبل التعديلات اللي كشفت لي موجة غريبة كان صعب رصدها أو حتى ملاحظتها، موجة ثيتا، بتخرج من منطقة «Hippocampus» (*****).

- الذاكرة!

- بالطبع، قضيت وقت عشان أفهم شغرتها وسببها، لغاية ما اكتشفت إنها موجة... من الماضي.

لم ألس الحبال في عينيه، وهذا أقلقني، وقفت، تأملت كرسي طيبب الأسنان - أو الحلاق - العتيق والقبتين من فوقه ثم ابتسمت:

- يعني إيه موجة من الماضي؟

- ذكريات مدفونة، حاجة لمستها إيدك في يوم.

اتسعت ابتسامتي لكنني تماكنت نفسي:

- آسف، ممكن تفهمني أكثر؟

- الأفكار لها طاقة، موجات، زي كل حاجة مادية، أجسامنا طاقة، والكرسي ده طاقة، ذرات وإلكترونات بتدور حولها، كل حاجة في حالة حركة، ومع ذلك كل حاجة بتظهر ثابتة، عينينا بتشوفها بس عشان قادرة تلقط ذبذباتها، لكن لو ذبذباتها سرّعت؟ زي ريشات منور الطيارة لما بتزيد سرعتها - وضئطق بأصابعه - الكرسي ده هيختفي، رغم إنه فعليًا هيضل موجود في الأوضة، إحنا مش شايفينه، نظرًا بس، لأن قدراتنا محدودة.

سكتَ وابتسم بسحاجة فعاجلته: وبعدين؟

- إيه اللي يحصل بقى لو كشفنا الطاقة اللي خارجة من مخك دي، أو بمعنى أصح بطأنا ذبذبتها، فجأة هنشوف في الأوضة حاجة ما نتخيلش إنها كانت موجودة، حرفيًا هتظهر من العدم.

حككت ذفتي ثم تخلّلت أصابعي شعري بحثًا عن رد ولم أجد:

- أنا آسف، بس يعني إيه؟

- اللي هتفكر فيه وأنت قاعد على الكرسي ده، هيتخلّق، في الصندوق ده.

وأشار بيده للصندوق الخشبي المغلق. أمهلته خطوات علّه يراجع.

- الكرسي ده بيحول أفكارك لشيء مادي يظهر في الصندوق ده؟

- بالطبع، زي العبد الرباني ما يقول للشيء كن فيكون.

- في يوم من الأيام منصور الحلاج (*****) قال «ما في جيتي إلا الله»، وأعدموه، مش متذكر إن الرب تدخّل!

- الحلاج ما فهمش غير نص الحقيقة بس، كونك شخصية من شخصيات الكاتب، ده لا يعني إنك تطلع المسرح وتقول أنا

الكاتب.

- كلامك غير مقنع.
- اللي أعرفه إنك مش بتعترف بشيء غير لو أخضعت للتجربة.
- أولك... اتفضل وربني.
- الملاذ ثلاث مراحل، لازم نخوضهم بالترتيب، موجاتك لازم تنضب عشان تحقق السلام الداخلي الأول.
- كلنا «باستثنائي» نتفق أن إبليس أقنع آدم كذبًا بقطف سر «الخلود» من الشجرة المحرمة، ولكن...
- ألم يكن آدم بالجنة من الأصل؟
- لم نهافت وأثناء على الخلود إذن؟!
- نظرت في عينيه بحثًا عن التحدي ولم أجده، كان ساكنًا يبتسم. أجبت:
- مرة ثانية.
- عامة الملاذ تحت أمرك، لو غيرت رأيك يشرفني تيجي في أي وقت.
- حين نزلنا السلام ميزت صوت البيانو، مقطوعة شوبان التي عزفتها منذ قليل، توقفت أمام باب الصالون، حمراء الشعر كانت بالداخل تعزف اللحن براءة لم أعهدا في أنى.
- هي..، اتعلمت البيانو طبيعي ولأ زرع (*****).
- فيه حاجات لازم الزمن ياخذ راحته فيها، الستات لغاية دلوقت بتحمل في تسع شهور يا دكتور.
- عشان كده الطفل البشري أضعف طفل، كان المفروض - لو تصميم ذكي - يقعد في بطن أمه ثلاث سنين بدل تسع شهور، عشان يتولد بيتكلم وييمشي بدل ما يعيش عائلة سنين.
- ضحك طارق بصوت عالٍ فالتفتت تاليا دون أن تتوقف عن العزف، هزرت رأسي في ود ارتديت حذائي ثم عدستي ونظرت إليه من خلافا:
- سؤال، ليه العدسة مش قادرة تعرف عنك معلومات؟
- لأنني شايل شريحتي من زمان، الحياة تحت الميكروسكوب مش مريحة، في يوم لازم تعمل كده.
- ابتسمت وصافحته:
- متشكر على الاستضافة.

-
- (*****) هرتز: وحدة قياس التردد، وتستخدم في وصف ترددات الموجات الصوتية والكهرومغناطيسية وموجات الراديو، وبالطبع موجات المخ.
- (*****) EEG: جهاز لرسم وتخطيط موجات المخ.
- (*****) fMRI: جهاز للتصوير بالرنين المغناطيسي.
- (*****) Hippocampus: الحصين؛ منطقة توحيد المعلومات بين الذاكرة القصيرة والطويلة.
- (*****) الخلاج: أبو عبد الله حسين بن منصور الخلاج، من أعلام التصوف، صلبه الخليفة المقتدر بالله في القرن الرابع الهجري لانه بفساد الدين على العامة والترويج لفلسفة توحيد الخالق بمخلوقاته.
- (*****) زرع المهارات: تقنية تعليمية تم اعتمادها عام ٢٠٢٨، تستخدم البرمجة العقلية لزرع المهارات الحسية في مناطق محددة بالمخ، في دقائق معدودة.

اعتقد القدماء أن صواعق السماء سهام من جعبة «زيوس» كبير آفة الأولمب، يلتقيها توهيباً وتخويفاً على البشر ليصيب بها من أخطأ، كما اعتقدوا أن الرسل تصعد إلى السماء بحيوان خرافي يجمع بين الثدييات والطيور نُحِتَتْ أقدم صوره في المعابد الفارسية، زرادشت يركب فوق ظهره وبرفته ملاك، يصعد من السماء الأولى إلى السماء السابعة حيث كان على موعد مع إله النور لكي يُعلمه الحكمة ويعطيه الشريعة!

آمن القدماء أيضاً بأن شجر الزيتون سيتكلم يوماً، وأن الإله يقبل الدعوات «حصرياً - Exclusive» حين تَطُر السحب فيفتح باب السماء، وأن المسيح الدجال سيظهر في آخر الزمان وعلى جبهته كلمة «كذاب»، يراها المؤمنون فقط، وينخدع الكفرة الملاحدة! يا لها من عنة كبيرة لم تذكر في الكتب السماوية! ثم ينزل من السماء الرسول عيسى، أو يسوع «ولا أعرف لم يختلف الاسم! أم أننا نتحدث عن شخصيتين مختلفتين «شُبّه هم أنه هو!»، ليقُتل المسيح الدجال، واختير «حيوان ليس له وعي» ليسود «العدل المطلق»، فكل شيء مكتوب، كل مؤمن مبشر بإيمانه قبل أن يمي، وكل ملحد موصوم بإلحاده قبل أن يولد، وإمعاناً في الرحمة، كُفّت السماء عن إرسال الرسل «تخفيفاً للتكاليف» رغم أن العالم لم ينته بعد! أم أنه اكتشف أخيراً أن التعذيب لا يُدخل الإيمان في القلب فقرر تغيير استراتيجيته؟ «Whatever»، سأعتبر أن تسونامي آسيا الأخير الذي قتل ثمانمائة ألف، وزلزال أمريكا الكبير، ليس إلا استعراضاً مهيراً لقدراته الفائقة، فالإله ليس له ديانة، ولو أراد لأطفأ الشمس والقمر، أو جعلنا نحلم جميعاً بحلم واحد نستيقظ لنحكيه لبعضنا البعض فنزداد إيماناً به.. أو بلبلة.

نحن نحصى من يحلم بموت شخص أو لقائه، لكننا لا نحصى من لم يحلموا بذلك، النسبة ١ إلى ١٠٠٠٠٠، فمن الطبيعي أن يحلم شخص وسط الآلاف بشيء قد يحدث، هكذا يقول المنطق وعلم الإحصاء، الصدفة موجودة، حتى ولو بنسبة تقترب من الصفر، مثلها مثل خلق هذه الأرض وسط ملايين الكواكب غير المأهولة، ومن أدرانا أنها غير مأهولة؟! فما لا تدركه العين والأجهزة أكبر بكثير.

ملحوظة: كل تلك الأفكار لم تمنح نالياً من رأسي...

منذ رحلْتُ عن الملاذ وصوتها لا ينادر أذني، تلك البجة القاتلة، رائحة أنفاسها، الشمس المشور في وجهها كتنجوم ليلة غير مُقمرة، واحمرار كعبيها الخافيين على الأرض، تلك الساحرة المنتبئة، قارئة الأعين، خرجت من العدم لتلحس ثنايا عقلي بلسان مشتعل، شيء فيها يثير الإدمان، شيء أشبه بمسحوق الهيروين الذي أرسل الكثيرين إلى الجنة، عقلي يذكرها كـ «Snooze» المنبه كل سبع ثوانٍ، أحصيتها على العدسة، العدسة التي لم تسجل صورتها، اللعنة على صاحب الملاذ وقوانينه المتخلفة، هل حقاً يطفأ تلك الفاترة الحمراء؟ يعاشرها كلما أراد؟ نجار يلصق الذهب! لم أصدق احتضانه لها، بدا متكلفاً، كما أن في كلماتها وعينيها نداء، استدعاء، رغبة، توحشاً، أبالغ؟ لا أبالغ، كيف عرفت أنني جئت من أجلها! لما رأيت في عينيها التحدي والاستفزاز حين نوهت أن طارق كان يعاشرها صباحاً، وأن مواءها قد داعب أذني؟ ستتكلم حين أختلي بها، ستحكي وتضفضض، ستشكو وتطلب الترميم أو سد الثغرات، ولن أرفض لها طلباً، إذا أرادت أن تقتلع جذوره من داخلها سأكون الفلاح الأصيل، وزرع الشغف في النهاية ليس إلا...

خدمة للإنسانية...

«أخبار المذنب في اليوم الرابع»

- انتحار جماعة من مائتي شخص بمعلمهم، تجرعوا السم على ظهر مركب في المحيط الشمالي بعدما أطفئوا محركاتها.
- حطت المركبة الهندية بنجاح على المذنب، العالم يرى لأول مرة صورة حية من سطحه، وتقارير أخفّر الأولية تشير لوجود عناصر الزئبق والأمونيا وثاني أكسيد الكربون.
- همرات نيزكية متولدة عن المذنب «خمسة وعشرون ألف نيزك خلال ساعة» تسقط على الصين فتشعل مساحات شاسعة من الغابات.
- الجنون يحتاج الشوارع وازدياد حالات الاعتداءات والاغتصاب.
- جماعة الـ «Resurrection» تعلن عن بث مقطوعة جديدة باسم «المذنب».
- أحد رجال الدين يعلن أن ضفيرة المذنب ليست إلا ذنوب البشر التي تراكمت على مر السنين، وسيبدأ انحرافه نحو الأرض خلال أيام لتدميرها.
- هجمة إلكترونية باسم «المذنب» تضرب شركة «العين الثالثة» وتعطل شبكتها لمدة ثماني ساعات مما أصاب الحياة بشلل لم تعهده الناس من قبل، وتبنت جماعة «Resurrection - القيامة» مسئولية الهجوم.
- يتوقع العالم زيادة عظيمة في نسبة المواليد بعد تسعة أشهر من رحيل المذنب لما لاقته الدعوة الجنسية للتناسل من إقبال.
- اليابان تعلن عن الرغبة في شراء أجنة «أيام المذنب» بمليار بيتكوين للطفل الواحد لزيادة عدد السكان تحت سن الأربعين، وسيتم منح الجنسية للأم والأب على أن ينتقلوا للمعيشة في البلد بشكل كامل.
- مريم نصلي لليوم الرابع في خشوع عجيب...

لثلاثة أيام.. أحاول البدء في صياغة بحثي الجديد عن «الشیطان»، ولا أفلح.

لثلاثة أيام.. أحاول البحث عن طريق لها، أو صرفها من رأسي ولا أفلح.

هاجس أبيض مُشرب بحمرة يسيل فوق قمة رأسي كل سبع ثوانٍ، يفرق أذني فيأمرني: ابحث عنها بالعدسة، حاول الاتصال بها، قابلها، تحدث معها، انظر في عينيها وهي تتكلم، اخترقها، الفف روحها حول رسغك، ثم انتزعها، بهدوء، أشعلها بأنفاسك الحارة ثم صيها بداخلك وقلّب بالملقعة جيداً حتى تتلاشى، سيبقى النمش العسلي فقط على أطراف فمك، ونسيلة من حلقاتها بين أسنانك، فبعض الإناث قابلات للأكل، وبعض الرجال من فصيلة أكل اللحوم.

ولما كان الوصول إليها متعذراً عن طريق العدسة، والوصول للملاذ يعني المرور بطارق البطريق الأخير، لم يكن أمامي سوى الاتصال بها، مفاوَصاً عن شراء البينو كحجة مبدئية، على أن أرغبل خطة بديلة إذا رفض أو اعتذر.

ذكرت الاسم في رأسي وطلبت من العدسة تحقيق اتصال، رُحِب طارق بي في حفاوة فعرضت عليه البيع، لاذ بالصمت خطرات ثم ابتسم:

- مُمكن أوافق أبيعوك، بس بشرط.

- السعر اللي نطلبه.

- عمن اليانو.. نستضيفك في الملاذ أسبوعاً.

فاجأني الطلب، نظرت في قسائمه مُستشفة، ثم لاحظت «ن» الجمع في كلمة «نستضيفك»:

- وإيه اللي هستفيده؟

- ما أكديش عليك، قليل لما باقابل حد باستمتع بالكلام معاه، ووجود أستاذ في البيولوجيا وعلم النفس التطوري في الملاذ مكسب بي.

طال صمتي فقرأ ما يدور في رأسي

- فكرة الملاذ قائمة على سرية الوجود فيه، ما حدش هيعرف إنك هنا، لو خضت التجربة وارنحت عندي أنت اللي هتعمز أصدقاءك.

التجربة أحتاج إليها كما يحتاج الصياد لسهم طويل المدى حتى يظفر بغزال بعيد من بين الأغصان، تابعني بإتسامة اتسعت حتى ضحك:

- بتضحك؟ (سألته).

- أنا سامع الخناقة من عندي هنا، النص اليمين من عقلك؛ النص الثافر، عامل خناقة مع النص الشمال؛ المهمين، الروتين، رافض التغيير.

- أنا مش متعود على صحبة ناس ما أعرفهاش.

- الأسبوع ده مفيش عندي ضيوف، باعمل استراحة بين الجلسات عشان أعرف أعيش، ما تناس إن الملاذ هو بيتي.

كان عليّ إخبار مريم بأنني سأسافر أسبوعاً لإلقاء عدة محاضرات في قارة أخرى، وسأستغل الفرصة لإنهاء بحثي الجديد عن «الشیطان» وعلاقته بجنس الهومو، لم تسألني عن التفاصيل، فمريم لا إكترائية في الظاهر. «Good Luck»؛ قالتها بعينين شاردين ملوهما الشكوك، ثم هامت في عدستها متابعة لأحوال صديقات باهتات يائسات ضاجعت نصفهن في ناطحات السحاب اللاتي لا يغادرنها.

ثم صعدتُ إلى غرفة سُلاف، كانت على كرسيها الجلدي، مُستغرقة في الباحة الافتراضية، داعبتها ثم سألتها عن أخبار الأولياد فأخبرتني أنها نجحت في حل المشكلة الكامنة في مفاعل الروبوت وتستعد ليوم المسابقة، احتضنتها وأعلمتها بغياي لأيام معدودات: بتجيبني؟ ابتسمت بعقوبة رغم ما يعتمل في صدرها من ناحيتي وأجابت: إنت العالم كله...

الكلمة التي تعيد ترتيب خلايا جسدي. غابت في صدري للحظات ولثمت خدي بقُبلة ثم غاصت في كرسيها عائدة إلى عالمها...

وانطلقت طائرتي إلى غابات الزمالك.

حيث يبدأ موسم صيد الغزلان.

هل ستشرب في الجنة خمرًا؟

هل سنسكر؟

لا أظن!

إن لم تشابك الملامس ويرقص العقل فليس ذلك خمرًا، بل مجرد عصير جَزَرٍ باللازنج، مفيد، لكنه لا يثير خيالًا.

ذلك هو الفرق بين مريم وتاليا، القادمة الجديدة، فخمر حمراء الشعر محسوب من خمر الدنيا، أما خمر مريم فممزوجة الكحول، طالما راهنت يا مريم أنك إذا ارتديت جسدي وتنفست برثتي بدلًا من رتيك المعطوبتين لغفرت لي نزوعي وميلي لرحيق الفزلان، إنها طبيعة الذكر يا عزيزتي، ولو اخترتها لأدمتها، هل تضيق الأم بولدها إن رأت فيه شبقًا للنساء؟ نعم، ستصرخ، ستقرص أذنه، ستوبخه، لكنه سيظل وليدها الذي لا تستغني عنه.

في الملائكة تركت عدستي مع العجوز العاري متكمش الغرلة، خلعت حذائي وانتظرت في الصالون، العالم بدون الواقع المعزز للعين الثالثة، بدون المعلومات التي تخلق حول الأشياء لتقرأ تاريخها وتحكي قصتها، بدون التعرف على وجوه الأشخاص وأسمائهم، عالم ثابت كلوحة كلاسيكية مُلمة، سُكون مريب يعث على السأم، ويعرض على النوم، تأملت البيانو العتيق قبل أن أجلس أمامه، رفعت الغطاء وعزفت لحن شوبان منادياً حية الزيزفون البيضاء، الحية التي تظهر مرة واحدة كل مائة عام، تقول الأسطورة إن لحس الدهن من جلدها يصب في العقل علوم الإنسانية وحكمتها، يبدو أن طارق المحفوظ قد لحس ما يكفي، سبع سنوات كاد فيها أن يمحو لونها، أكاد أشعر أنها لم تكن بيضاء بذلك الحد، ولا ألومه إن كنت إفريقية محسوة بالشوكولاتة. لكنها بالتأكيد ملأها السأم حتى وض وفاحت رائحته. تنادي لسانًا آخر، دُكرًا آخر، ليلحس كُثبان أذنيها برطب الكلام.

انتظرت أن تأتي لكنها لم تفعل، دقائق لم أكف فيها عن عزف النداء، لكن طارق هو الذي ظهر:

- عزفك محترف.

- زمان كنت أحسن من كده.. إنت بتعزف؟

جر كُرسياً جلس عليه بجانيبي، ثم ألقى يده على أصابع البيانو فأصدرت نغمة عالية:

- في بولندا، بلد شوبان، سنة ١٨٣٠، حصلت ثورة، في الوقت ده هو كان في باريس، دخل بيته بعصبية شديدة، ورمي يده على البيانو ده، زني كده بالظبط، بس، ثواني والإلهام اشتغل، ألف مقطوعة «Revolutionary Etude»، من أهم ما كتب، كانت مجرد حالة غضب، حوّلها لعمل فني. طول عمري باشوف اللي بيعزفوا بيانو ناس مش من الكوكب، يعملوا معجزات رُسل أنا مش قدها ولا تخيلت في يوم أكون قدها، حاسس إن عيب حتى أحاول، وهو ده السبب اللي خلاني أقرر أبيع لك البيانو.

- رغم إنه كان بتاع والدك!

- طالما صاحبه مات، احتفاظي بيه زي حبس حيوان نادر في الأشر، لا منه عايش براحته ولا منه يمتع الزوار.

هزرت رأسي مُظهرًا الإيمان بما يقول، ما كنت يومًا لأضحى ببيانو شوبان الأصلي حتى ولو طلبه شوبان نفسه. أردف:

- بس هاحتاج منك وعد.

عاجلته: إني أرجع أعزف تاني؟

- لاء، إنك في يوم تدي البيانو ده لحد يستحقه.

أطلت النظر في عينيه: أوعدك.

- أشكرك، يلاً بينا.

صعدت وراءه إلى الدور الأخير، طُرقه طويلة يغطي جدرانها ورق حائط عليه رسوم لنغمات موسيقية وملائكة، تشبه طُرقه الدور الثاني لكنها بدون غرف، فقط باب واحد في نهايتها، اقتربنا فأخرج طارق سلسلة مفاتيحه الرهيبية، انتقى واحدًا دسه في الثقب وفتح الباب.

الغرفة كانت صغيرة نسبيًا، سطح الفيلا المائل على طراز العمارة الأوروبية يمر بها ليميل سقفها فيضطر من يقترب من النافذة المستديرة أن ينحني، نافذة ترى وادي النهر القديم وأطلال الفنادق الباقية من بين أغصان شجرة وارفة، تملو سريًا بسيطًا ملاصقًا للحنائط يسع شخصًا واحدًا فُرشت عليه ملاء نظيفة باهتة، وفي الركن منضدة خشبية فوقها مرآة متوسطة مشروخة، تحمل إبريقًا فارغًا وورقًا وقلما، وجهاز ميترونوم (*****) خشبًا عتيقًا، رغم بساطتها بدت مريخة، وضعت حقيبتني ثم التفتُ إلى طارق:

- مين كان عايش هنا؟

- كانت خلوة، أبويا لما يحب يهرب من الدنيا كان يطلع هنا، ماكانش يسمح للخدم يتجّطوا على الباب حتى.

قالها وانجه إلى النافذة، فتح مزلاجها وأدارها نصف دورة ثم جذب فرع شجرة بيده:

- دي شجرة تين بنغالي، من أقدم أشجار الزمالك، عمرها حوالي مية وخمسين سنة.

ثم اقتطف ثمرة حمراء، مسحها بكفيه وناولني إياها وهو يتسم:

- فوايده وهية.. في الجنس.

- يستعمله؟

ضحك وغمز بعينه: ما بقتش محتاج.

ثم لمس الميرونوم، حرر بندوله فتحرك الثقل يمينًا ويسارًا صانعًا تكتكات منتظمة تشبه ضربات القلب:

- الأيام الجاية الأوضة دي بتاعتك، في الأول الوضع هيكون صعب من غير عدسة ولا هولوجرام ولا اتصال بالعالم الخارجي، زي أعراض انسحاب الميرونين، لكن بعد شوية هتعود، وتقدر تظمن على بيتك برسائل مكتوبة تأكد إنها هتوصل.

وأشار إلى الورقة والقلم، ثم تابع: هاسيبك ترتاح ساعة وبعدين تاليا هتعددي عليك عشان تحضرك.

أغلق الباب وراه فغلقتني الصمت إلا من تكتكات الميرونوم، بدت كمطرقة كبيرة ملفوفة بالإسفننج، تطرق جبهتي بانتظام، تغرسني في أخشاب الأرضية كيمسار يلقي مصيره، نظرت من النافذة إلى حوض النهر الجاف والمراكب الساكنة على الطين، وتذوقت الشمرة فوجدتها مُسكرة لاذعة، ثم تأملت السقف المائل فلاحظت رسًا يدويًا، وجهًا، نصفه لفتاة ذات شعر أسود فاحم تنظر نحاهي، والنصف الآخر لسمكة على فمها بقعة حمراء! لم أستطع إبعاد عيني حتى حضرت تاليا فانتزعني:

- يا ترى عرفت إنت جاي ليه؟

بلوزتها الخضراء بدت مثيرة مع حمرة شعرها، وعينيها العسليتين ورقبتها الطويلة فوق رُعي الترقوتين، وقدمين حافيتين نذوبان فوق أخشاب الأرضية. أجبتها:

- جاي أشتري الببانو.

- ممم.

- ولقيتها فرصة كويسة أرتب فيها أفكار بعثي الجديد.

هزت رأسها: الإجابة غلط برضه.

(*****) ميرونوم: بندول إيقاعي «كرفاص الساعة» يعطي تكتكة منتظمة وثابتة في الدقيقة الواحدة.

من نظرمات صيد الغزلان

استخدام كلمة مفاجئة تقلب دفة الحوار «مع مراعاة مراقبة ملامح الوجه»، ولا تخف؛ فالأنثى أشرف من مما تظهر، وأكثر قدرة على ادعاء الخجل.



- جاي عشان حلمت بيك.

صمتت للحظات: وده بخليك تقضي سبعة أيام في مكان زي ده؟

- لما أكون اتحرمت من الأحلام، ويعددين أحلم بيك قبل ما أشوفك بيوم! مستعد أقضي سبع سنين في الأرضة دي عشان أفهم.

- أنا قررت آجي المحاضرة، وأنت لقطت الموجة في أحلامك، مش ده كلامك؟

- وليه موجتك إنت بالذات من دون اللي حضروا؟

- المفروض إنت اللي تفسر ده.

- وعشان كده أنا جاي أكتشف.

عقدت يديها، ثم مالت برأسها يمينًا: اقلع.

- نعم؟!

- اقلع...

من نظرات صيد الغزلان

لا تتردد في استعراض جسدك دون أن يبدو الأمر مفتعلاً، بشرط أن تمارس تمارين البطن والصدر بانتظام؛
فالمرأة لا تحب أن ينافسها ذكر ثدياء في حجم ثديها.



لم أكن لأتردد أمام ذلك العرض، بتحدٍ قمت، خلعت قميصي، فرمقت بتطلوني، خلعت وراحت أنها ستلاحظ احتفاء دماغي بها، وفعلت، تدحرجت عيناها لأسفل، ابتسمت، قبل أن تُخرج من جيبها جهازاً صغيراً يشبه الذي يباع على أرصفة الأجناب النازحين، قرّيته من رقبتى وضغطت زرّاً في منتصفه فأصدر فرقة أصابتي بألم خطي شديد في منتصف رأسي وآخر في رسغي:

- إيه ده؟

- ده الـ «Mayhem»، جهاز تعطيل الشريحة، في اليوم السابع هسفلها لك ثاني.

- ليه؟

- مش بنحب الحكومة تبقى قاعدة معانا في التجربة.

- غريب إن الوجدع في صدري!

- الحكومة بتزرع شريحتين مراقبة، واحدة حقيقية وواحدة احتياطي.

قالتها وناولتني بشكراً كبيراً لففته حول خصرى ثم أشارت بسبابتها أن أتبعها. ميرت خلف الحافية، أتأمل نغزّي ظهر مثاليّتين وانشاء خصر ووشم ماندالا الأحلام على سانة قاتلة، انحرفت ناليا يميناً قدخلت وراءها حائماً من الحجر الكبير، البخار يتصاعد من مغطس حجري في المتصف، على الجوانب تراصت الشموع وزجاجات الزيوت، وفي الركن مرحاض أرضي نواري خلف ساتر من البوص، ناولتني كوباً صغيراً ساخناً صبّه من إبريق فخاري، اشتيمته ثم تجرّعته دفعة واحدة، مرارته أصابتي برعشة كنمتها وقاومت بحة صوتي بعدها:

- ده إيه؟

- عصير تبغ.

وأشارت إلى المرحاض بابتسامة، لم أكن لأفعلها أمام حمراء الشعر لكنني سايرتها، قبل أن أصل إلى المرحاض أصدرت معدتي صوتاً لم أعده منذ توقفت عن أكل اللحوم، وما إن جلست القرفصاء حتى انتابني ألم رهيب لم أستطع كبّحه، أفرغت معدتي لإرادياً، وبالكاد قاومت نزول باقي أعضائي، غمرني العرق وتلاحقت أنفاسي قبل أن أقوم، التقطت منشفة ساخنة ودون أن تنوه لفتها حول عينيّ فساد الظلام، ثم أمسكت كفي برفق وقادتني إلى المغطس، ساعدتني فجلست في مياه ساخنة تصل إلى صدري، لم أرغب في سواها عما تفعله، سمعت زجاجة تُفتح وقطرات تُصب، ثم فاحت روائح غخلطة مهدئة للأعصاب، كان ذلك حين مدت يديها إلى عنقي تدلكه وفروة رأسي، ثم دست أصابعها خلف تجويف الترقوة بقسوة محبة لم أظنها ستصدر عن هاتين اليدين، بثت في جسدي استرخاء على استرخاء، قبل أن تضغط على أعلى معجرتي عينيّ، العظام خلف أذنيّ وأسفل فكّي، ثم توقفت، انتظرت لحظات، ناديتها فلم تستجب، رفعت المنشفة لأجد نفسي وحيداً!

لا بأس، لم العجلة؟ فالإله خلق العالم في ستة أيام، لم أكن لأتحطى تلك المدة لاصطياد ناليا، وضعت المنشفة على عينيّ وغطست في المياه حتى أذنيّ، مستمتعاً بالسخونة، وتداغت الأفكار حول بحثي الجديد، اتسالت من ظلمة السقف إلى عقلي.

كنت أجلس بين الصفوف في مدرجات المسرح الروماني، مدرجات لانهاية تحطت طبقات الجو العليا، تملؤها ملائكة طاوية أجنحتها في خشوع، يُسبحون باسم الإله الأعظم ويتهايمسون، حتى دخل المسرح أحد البشر من نوعية «المومو - سايبان»؛ فصيلة من القدرة العليا تطوّرت عن سلفها التيندرتالي ^(*****) الذي انزوى وكاد يتقرض، توسط البشري المسرح فساد الصمت، نظر إلينا برأسه الكبير في خيلاء، ثم منطلق ظهره الذي تطوّر واعتدل من بعد انحناء، قبل أن يتنادي جبريل في الحاضرين:

- السجود للبشري.

قامت الجموع وتعالى حفيف الأجنحة، نظروا لبعضهم البعض خلسة قبل أن ترتج المدرجات بوقع السجود، ودوناً عن الواقفين، انتابتني الحيرة، من الأمر وصاحب الأمر، ما المغزى من تلك التجربة التي أعلن عنها وأمرنا بالاجتماع لعرضها؟ لم يأمرنا بالسجود لسلالة لا تكاد تنطق كلمة؟ سلالة كانت سمكاً منذ ملايين السنين! إذا قابل ذلك البشري أول أجداده فقد يصطاده برمح ليقتات عليه! وحتى الملائكة الذين يفضلون السمع والطاعة دون عناء الجدل تساءلوا: لم تجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟! أختار أكثر أهل الأرض همجية لتعرضه على الكائنات كاختراع جديد وتصميم ذكي؟ لم تريد لفصيلته أن ترتقي السلم، فعيناه ليستأ أفضل عينين ولا قلبه أفضل قلب، هناك من هم أقوى منه، وترددت في نفسي كلمات «أنا أفضل منه، فلديّ عين تحوي علوم الدنيا، وأستطيع الطيران بأربعة أجنحة، كم أنني بارع في صيد نساء البشر، لن أسجد، لقد وهبتي الاختيار وبني الحق في قول لا، وإلا لم استطعت قولها الآن، أليس كذلك؟».

وقفت، طويت أجنحتي تادباً ورفعت يدي:

- عفوك سيدي، لست بالسجود مُقتنعاً؛ فتلك تجربة لا تستحق العناء، متنصب القامة سليل الأسماك ليس بأفضل من يُعبد بيننا ويعلو سلم الخلائق، أن نجعله علينا سيّداً لن يأتي لتلك الأرض بخير، واعذري، كلنا نعرف، وأنت أولنا، أنك لم تحلقه حقيقة، لم يكن سوى خلية في الماء، ليس طيئاً أو صلصالاً أو فخاراً كما أقنعت، وسيستمر في التطور رغم انقراض أغلب الكائنات، فقط لأنك قررت أن

تهبه المُلْك والجلال!! سيصدق نفسه، وسيظن أنه المختار، وسيهرس المخلوقات تحت قدميه، قبل أن ينقلب عليك.

ساد الصمت، ومقتني الملائكة في رعب، ثم همس أقربيهم:

- ماذا قلت؟! اقطع لسانك، ابتلعه.

وشوشته: طالما أعطانا الاختيار، فعليه أن يلتفت للتحذير.

- تحذير!! ستجلب على نفسك عذاباً لم تسمع عنه الكائنات من قبل.

لحظات وتودّي بصوت رهيب: نديم...

ذلك كان صوت تاليا...

رفعتُ المشفة عن عينيّ فاختمت مدرجات المسرح الروماني، كانت تحمل بيجاما كناية مثل التي رأيتها على رواد الغرف، وضعتها بالقرب مني وخرجت.

(*****) الإنسان النيندرتالي: الإنسان البدائي، وهو أحد أنواع جنس هومو الذي استوطن أوروبا وأجزاء من غرب آسيا وآسيا الوسطى، ويأتي في الترتيب قبل الإنسان الحالي مباشرة.

في الطابق الأدنى كان طارق منتظرًا بجانب الغرفة، وضع يده على كفي و همس:
- تاليا حكمت لي عن أحلامك.

تعرفت فروة رأسي فنظرت لها، ثم عدت إلى طارق الذي أردد:
- انقطاع الأحلام عرض طبيعي للمجهدين ذهنيًا.

تنفست...

إشارة أمان ثانية من حمراء الشعر، مساحة اختصاصية بيني وبينها تتسع:
- مش من الأفضل إنني ألبس العدسة؟

- فتح مسارات الأحلام بين نفسك وبين المخ أهم من تسجيلها.

وفتح تاليا الباب الذي يحمل شعار دلتا، انجذبت إليه فاستدركني:
- دكتور، هي محاضرتك الجاية بتكلم عن إيه؟

- عن الشيطان.

ابتسم ونظر لتاليا ثم عاد لي:

- وارد جدًا تقابله جوه.

وفتح تاليا الباب، تبعته، دون أن أدري أن تلك الحفلات الصغيرة..
ستكون بداية لتغيير حياتي إلى الأبد.

- ليه كل حاجة برتقاني؟
- سألتها وأنا أتأمل الحوائط والسجاد، ومؤخرتها المثالية وهي تتحنن لشعل البخور، أجابتني:
- البرتقاني موجه شيفا.
- لون شعرك.
- التفتت: ولون رهبان التبت.
- إنت بوذية؟
- ابتسمت: ساعات.
- مش فاهم!
- يا عمل شوينج، ياخذ من كل دين اللي يناسبني.
- مم، وطارق؟
- تقدر تقول عليه صوفي لو مصمم عل التصنيف.

من نظريات صيد الغزلان «باب انتزاع الذكر المنافس»

الطُّرُق برفق على جبهة الأنثى؛ منطقة الثوابت، استعراض نقاط الضعف في مُنافسك والسخرية منها دون صخب، فأنت تحتاج فقط بضع كلمات للقضاء على رجل.

مثال:

الزواج أو الارتباط مثل دور البرد، يأتي ويذهب.

وتذكر الآتي:

الصيد ليس رياضة، ففي الرياضة يكون كل المتبارين على علم بالتنافس، أما في الصيد، فيكفي أن يعلم الصياد فقط.



- الصوفية، محاولة لترقيع الثوب الإلهي.

أردفت تاليا:

- كل إنسان لازم يؤمن بحاجة.

- فرق كبير بين اللي حابس نفسه جوة علة، واللي عايش فوق السحاب.

- طارق متصالح جداً مع اللي وصل له.

- والبطريق قبل ما ينقرض كان متصالح جداً برضه، المهم إنت مبسوطة معاه؟

نظرت في عينيّ للحظات ثم قالت بحسم:

- نام على جنبك الشمال.

استلقيت كما قالت:

- لكن ليه حضر المحاضرة؟ إحنا من عالين مختلفين!

- ببس بكلامك ثغرات في إيمانه.

- وانت؟ ليه حضرت؟

- حسيت في كلامك بغضب ناحية السما، كأنك بتتعمد تجاهها، إنت عندك تار شخصي معاها؟

- مش باغير الموضوع، بس حجة حضورك مش مقنعة.

- وكنت جاية لأن طارق مُعجب بيك.

- مم، عامة أنا مش معترف بوجوده عشان أغضب منه، الأديان أخرت اكتشاف جاليليو ميت سنة، وبتحارب داروين لغاية النهارده رغم إن نظريته ما بتتش نظرية، ده علم قائم.

- متأكد إن ده السبب الوحيد لغضبك؟

- إنت شايقة حاجة ثانية؟

- عندي سبعة أيام أقدر أعرفك فيهم اللي ما تعرفوش عن نفسك.

مدت أصابعها ففتحت فمي كأنني دُمية، دُست فيه ورقة نبات نافذة الرائحة، وسعدت بأول عربون؟ عُقلة من سيابتها في فمي تعمدت لحسها.

من نظرات صيد الغزلان

الجرأة في لمس أو لعق شيء منها «عزق» بقايا طعام، عُقْلَة إصبع له تأثير مسحري، يجري كموجة كهربية من أسفل ساقها وحتى خديها.



ناولتني غليوتنا طويلاً من الأبنوس عليه نحت لنساء عاريات، نظرت في عينيّ طويلاً ثم أشعلت بأناملها عود ثقاب دُثت في فتحة الغليون.. سألتها:

ـ متهيأ لي لازم أسأل أنا باشرب إيه.

ـ ما تبدأش حاجة ما تقدرش تنهيه، اتعود تمشي مع التيار.

سحبْتُ نَفْسًا فَعَشِي الخَدَر أنفي فحلقتي، قبل أن يصعد سريعاً إلى خلف عَجْرِيّ عينيّ، انتابني دفء لذيذ، وتميل طرد عن جسدي انقلق والتوتر، تاركاً الشبق ليستولي عليّ. تأملت سانة ساقها؛ بذرة الفتنة في النساء لو فقط أدركن، وعرقوبها الذي يعطي صورة مطابقة للمهبل إذا فقط لاحظن، واستدارة ثديها التي استلهمت الكواكب منها دورانها، قبل أن تميل الغرفة بزاوية ٣٠ مع النفس السابع. ضغطت تاليا على زر في جهاز بالركن فصدرت موجات منتظمة هزت أذنيّ من الداخل، ثم ضمت يديا فوق رأسها وبدأت تشدو بصوت عجيب، ذراعاهما تتحركان كأعشاب في قاع البحر، كلمات مبهمّة أكاد أفهمها، ازدادت إبهاماً مع توالي الأنفاس، بدت الحروف هندية الهوى، أو عربية وأنا من فقدت الاستيعاب، نخرج من شفيتها مصحوبة بدخن بنفسجي وبرق دون رعد، مع النفس الأخير توهج جلد تاليا بلون فسفوري، بدت كسمكة زينة تسبح في فضاء مظلم، فضاء مجتمعي من الداخل، وسط ضباب رمادي ثقيل يتخلل المخ ويغفيه، وينفض ليخرج من أذنيّ، هذا صوت تاليا، ثم تلاشي، سبحت نعا هي، منعكسة آلاف المرات في مرايات لامهانية، ها سبع أذرع تلوى حولها، وصدر لا يعبأ بالجناذية، انحنت عليّ، لثمت فمي بقُبلة طويلة! ضغطت بسايتها على منتصف جبهتي ثم همست «نام»، قبل أن تسبل عينيّ بأناملها.

في الأيام التالية استرجعت المشهد الذي رأيته في غرفة أمي لكنني لم أجروا على سؤاليها، ولم أفهم لم تغير كل شيء بعد ذلك، وحين ظننت أنني قد نسيت، سمعتها بصريحان يوماً فحرجت، نهزتي أمي وأمرتني بالعودة إلى غرفتي، رضخت خوفاً وحجست دموعي. واسترقت السمع على أفهم ما لي بهما، كانت تتحدث عن امرأة دعها «الشرطوة» أو شيئاً مثل ذلك، ووسائل «متسخة» على تليفون أبي أغضبتها، وأن تلك ليست المرة الأولى، ولا الثانية، وذكرت شيئاً عن دين كذب لا يتعدى، ليتعنى الضمير ثانية ويدوي السباب، حتى

دوّت النصفمة، دخلت مسرعاً فوجدت أمي على الأرض بنفم بنزف، وأبي واقف فوقها بوجه أحمر غاضب، ما إن رأي حتى رمها بنظرة غاضبة ثم خرج مسرعاً، هرعت إليها فاحتضنتني، بكيت فضحكت وزغرغنتي رغم دموعها، قالت لي إنها سقطت على فمها، وإن أبي غاضب منها لأنها لا تشرب اللبن.

كانت تكذب، لأول مرة.

في تلك الليلة غادر أبي البيت، وضع ملابسه في حقيبة واحتضنتني حتى ألثني، ثم رحل. قالت أمي إنه سيسافر وسيأتي لزيارتي كل أسبوع، محملاً بالهدايا والحلوى. بكيت، وسألت أمي عن مصر أرجو حتى يد أبي ويدها اللتين ترفعاني في الهواء، وعن الأخ الثاني الذي وعداني به ولم يوفيا، ابتسمت بعينين باكيتين ثم قبلت جبهتي وسبلت عيني بأناملها:

- نام يا نديم.

كان ذلك حين أفقت، أو هكذا تخيلت...

فتحت عيني بصعوبة بعد تقطيع الرموش، حلقي مملح كبرميل غللات منسي، رفعت يدي لأمسح لعاباً وهمياً على خدي ثم حرّكت رقبتني فتنطقت من أثر ثبات طويل، الشموع تناقصت لثمن ححمها، وانغرفة عبقث بالبخور حتى استحلّت الرؤية، كان ذلك حين مسح يدها جبهتي وتحللت أصابعها شعري:

- اشرب.

رفعت عيني فأدركتها، كانت تجلس خلفي في رداء أبيض، تصب المياه في كوب فخاري وتناولني.

- أنا نمت قد إيه؟ (سألتها).

- ست وتلاتين ساعة... متراصلة.

اعتدلّت فشربت حتى ارتويت:

- جعان.

- هنا مية بس، طعم الأكل بعد أيام هيكون سحري، كأنك أول مرة تاكل.

تناهت بألم: إزاي عاوز أنام ثاني كده؟

- لأن عقلك لأول مرة يصحاح، حلمت؟

- حلمت، بنفسي وأنا صغير.

- أمك كان ليها تأثير قوي عليك.

وانسابت تفاصيل الحلم في تخيلتي فهززت رأسي مؤثراً الصمت، لعلما تخيلت أني قد نسيت تلك اللحظة المخفية في قبوي المظلم، حتى رأيت حنن أمي في فراش الموت، أذكر محاولاتي الفاشلة لطرد الخيالات من رأسي وأنا أنظر لوجهها الأزرق، لصدرها الذي تدلى كالجورب المستعمل، أذكر أنني لم أبك كما ينبغي.

لكن لاجتررت ذلك الكابوس الآن؟

حقيقة لا أريد أن أعرف.

- أنا دايفخ.

- لازم تكمل نوم.

ولامست بسبابتها جبهتي، ضغطت زر «OFF»، غمرني النعاس وازدادت جفوني سبعة كيلوجرامات فاستعدت نفس اللحظة قبل ست وثلاثين ساعة.

هل قبلتني نالبا حقاً؟

أم أنني بدأت هلوسات الحلم مبكراً؟

- هو انت... قبل ما أنام...؟

ابتسامة بجانب فمها، هاثت بعدها الكلمات من حلقي على رقبتني ثم على المخدة، السقوط في فوهة بركان خامد له مذاق خاص، ستدور عكس عقارب الساعة، سيتخلل ضلوعك تيار دافئ ويغمر أذنيك طنين مريح، ثم يقترب القاع، أو هكذا تظن. سحابة رمادية داكنة، هشة غاضبة، مزدحمة بصواعق بطيئة، برق صامت يتلوى كالنعاين، غطست فيها مائة متر قبل أن أستقر على أرض صخرية مكسوة بالعشب، أقف عليها منهكاً منذ ثلاثة شهور! خارج نطاق الزمن، خارج نطاق الرحمة، أغصان اللبلاب نمّت على ساقي، أنظر إلى الساء الساكنة، والنجوم التي تتباعد في سرعة عجيبة، ولانعكاسي في بحيرة ملؤها المطر، لوني يتأوج بين الصفرة والحمرة القانية، بين خوف ينهش روحي وغضب يحرّقها.

- ما منعك ألا تسجد أبها المعتوه؟

جفلفت فالتفت، كان على هدوئه المعتاد رغم تحسده البنفسجي الذي لم تجف غضباً مكبوتاً، أجبت:

- أنت تعلم.. وهو يعلم.

أصم أذنٍ بصرخة هائلة حتى كاد الهواء يشتعل من حولنا:

- كيف سولت لك نفسك تحديه أمام الملاء؟ وكيف تهدد البشري وذريته؟ تأنيهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيانهم وعن شأنهم! أي هراء هذا؟!

- أعترف أنني لم أكن مهذباً لكننا طبعتي التي يعرفها، كما تعرف أنت أن سليل البرمائيات سيسقط في أول اختبار.

- ليس ذلك من شأنك.
- لم لئيت دعوتي إذن؟
- لقد سجدنا في يوم ما لنفس الإله.
- أيعلم أنك ستقابلني؟
- قال بنفاد صبر: الآن بدأت أندم على ثليبة دعوتك.
- أرغب في العودة.
- العودة! لقد طردت من المأوى الأعلى، ستدوّن قصتك في السجلات، وستعيش أيامك الباقية منبوءاً مدحوراً في الأرض حتى تلقاه يوم موتك.
- أسبّل الإله حباً حتى ألقاه؟
- حدجني بنظرة كادت تحترقني:
- لا تخفّس بها ليس لك به علم.
- لم يقتلني؟ أود أن أعرف، أم أنك جئت اليوم لتفعلها؟
- لقد أقر بحرية الخلق جميعاً، وإن جئت لأزحق روحك ما تكبدت عناء التحدث معك.
- الحرية! مم، حسناً، سيدون قصتي في سجلاته، وستصدقها المخلوقات الغاشمة، سيكون عليّ أن أكتب ما حدث.
- اكتب ما شئت، فأنت تُعيد لغات الطير.
- عليّ أن أصير من المتطهرين إذن، هذا حق.
- تريد أن يمتد بك العمر حتى يُبعثوا؟ لتقضي على سلالة البشري بها لديك من قدرات؟
- ها أنت قد قتلها، آدم غير قادر على مواجهتي.
- يكفي ما سيلقاه من أهوال في الأرض حتى يظفر بجنة الخلد.
- جنة الخلد! التي لم تُخلق حتى الآن؟ أنت تصدق يا جبريل؟ تصدق أنه يملك مفاتيح الخلود؟ تصدق أن سلالة البشر سيُبعثون؟
- تبدل لونه إلى الأحمر القاني:
- لقد تحطّيت الجنون.
- جنون! ماذا لو طلبتُ العفو والرحمة منه.. أيقبل؟ أم أن لرحمته حدوداً؟
- الغرور ساقك أن ترتكب حماقة لم تشهدها الخلائق من قبل.
- لا يعد لديّ ما أخسره، وكل ما أريده أن أظهر الحقيقة.
- أي حقيقة؟
- سيصير البشر أسياد هذا الكوكب، وسيقتلون الإله بأيديهم يوماً.
- ولن تبلغ ذلك اليوم إن حدث، فعمرك محدود.
- كذلك أنت.

نظر إليّ في صمت ثم تسارعت ذبذباته فاخفتني، صحتُ وأنا أعلم أنه سيسمعني:

- أين آدم الآن؟ فوق جبل الصفوة؟ يتعم بالعرش الجديد الذي لم يشقّ يوماً في اكتسابه!

تبددت كلماتي في الخواء، نظرت للسور الشاهق الذي يخفي نافذته، أعلم أنه يراني، يسمعي، ولن يسامحني، فلم تصدّ عبد من قبل لمواجهة علناً، إن كان خلقتني كما ادّعى يوماً فليمنع الإنسان من السقوط، ليستغني عن الملائكة، ليرني قدراته الفائقة، وليبقيني حياً إن استطاع، لولا أنني أعرفه لانتظرت حَجْراً مشتعلاً يصيبني منه، أو مَلَكاً من ملائكته يبرز فيقتلني غيلة، لكنه لن يفعلها، فوجوده الأزلي، وظهور كل المخلوقات من بعده، وثباته العجيب وسط كائنات تتحوّر وتبدّل وتتكيف وتتطور، أعمارها القصيرة مقارنة ببدايته المُلغزة يوم كان عرشه على الماء، كل ذلك صبغ عليه هيمنة لا مضارع لها، فليقل ما يقول، فليس هناك مَنْ شهد النشأة، وليس هناك مَنْ رآه وهو يقسم الخلية، بل ليس هناك من رآه رأي العين! لن أصمت، سأثبت له أن آدم لا يستحق المُلْك، لا يستحق البقاء، عليه أن يعود لتسليته التي حاربت الممخ السابقين، عليه أن يندثر كم اندثرت الزواحف العملاقة التي لم يعاصرها، سأصعد إلى جبل الصفوة، إلى جنة البشري. فأنما لم أهده بعد هدية زواجه من الأنثى التي انتقاها الإله، ولم يُعرف عني يوماً أنني قليل الأدب. انتزعت قدمي من العشب الذي نأ عليها، تسارعت ذبذباتي فانتقلت..

إلى سرير غرفة نومي ببיתי قرب البحر.

نظرت للصور حول المرأة، وللوحة الملونة الكبيرة ورائي، حين التقطت وقّع الخطوات، ثم انفتح الباب عن مريم، عارية، تأملت جسداً لم يعد يُدير في جسدي خلية حول نفسها، مُنحنياتها اليانسة، جلدها الشاحب، وكل العيوب التي قد تغدو في أنثى أخرى مصدر إلهام... اقتربت، بأحر خدود زائد عن الحد، بخطوات مترددة، ونظرات لوم تتوارى، نظرت إلى عقرب الثواني في ساعة الحائط فلاحظته يتباطأ، مع كل خطوة تخطوها نحوني يزداد بطناً، حتى لمستني فتوقفت الزمن، قبلتني فتركت لها شفتي قبل أن تدس لسانها بين أسناني، كان عليّ التحرك سريعاً، قبلت عنقها غصّاً، أركمتها فاخترقتها، مُولياً وجهها ناحية الحائط حتى لا نلتقي، قبل أن أخط الشعر الأبيض الذي غزا فروة رأسها، التجاعيد حول خديها، والشمش الكبير يطفح على كتفيها، توقفت، أمسكت بذقنها فلففتها نحوني حتى سمعت طقطقة رقبته، وأبقيتني لم أفعل، فمن ظنتها مريم كانت... أمي، تنظر إليّ بعتاب غريب، بحب، ودموع تترقرق في عينيها! تيسست في مكاني، لم

أستطع حتى الخروج منها، غمرني العرق وضرب تصقيع أوصالي. كان ذلك حين امتنع الباب، عن طفل يشهني، بل عني، صغيراً في
بيجامتي القطنية الزرقاء، أنظر لأمي التي استلقت على السرير عارية، ولنفسي كبيراً، أغمضت عيني فلم تستجب أجفاني، ولما صرخت
تقيأت صمتاً، حاولت أن أمحرك فعزلتني جذور سوداء خرجت من باطن قدمي وانغرست في أرض الغرفة، جذور تنبض. تجرني على
وطء أمي، فتحت فمي بصرخة حتى تمزقت أطراف شفتي، ثم خرج صوتي شارخاً حنجرتي...

كان ذلك حين سعلت فخرجت رוחي...

قبل أن تعود بغنة...

فتحت عيني بصعوبة وكانت ناليا فوق بطني جالسة، دون أن تثقلني، تحيط وجهي يديها:

- إهدأ...

- مش قادر آخذ نفسي.. كابوس.. صعب.. جداً...

ثم تقيأت بآلم حتى أفرغت معدتي، مسح ناليا رأسي ثم أردفت:

- ساعات الموجة دلنا بتفتح أبواب مش المفروض تفتح.

- أنا نمت قد إيه؟

- أربعين ساعة كمان، إنت خلصت المرحلة الأولى.

كالخارج من غيبوبة تركت الغرفة دلنا، الوقت كان ليلاً، ساندتني تاليا حتى المغطس الكبير، وضعت خلف ظهري مسنداً وغسلت رأسي بمياه دافئة ثم دلكت رقبتي بأناملها، كنت مسلوب الأعصاب بين يديها مثل أطفال المجاعات، تُقلّبتني كخرقة مستعملة، أتأمل عينيها في سكونية لم أجربها منذ دهر، سكونية نوم لثلاثة أيام في مُحيط مُظلم، دون طعام، دون «العين الثالثة»، والذكريات من حولي تسبح بأنياب بارزة.

- مريم دي...؟

سألت تاليا، نظرت في عينيها وأخرت الإجابة لثوانٍ، فتلك لحظة فاصلة:

- مرآتي.

من نظريات صند الغزلان «في ذكر كلمة «مراتي»»

انطلقها جهده، وتأكد من أن تبدو عادية، مثل إكرك لفريق كرة القدم الذي ورثت تشجيعه من أبيك، مثل ولادتك بوحه في جبهتك، واعلم، أن تلك الكلمة تُنفر بعض الإناث، ذوات مسافة الحرب (*****)
الطويلة، لكنها تجذب من يعشقن التحدي، هجين من الغزلان المفترسة يحمل بداخل ضلوعه جينات الصياد، فانتزاع رجل من فوق امرأته انتصار شخصي يملأ تلك الضلوع فخراً ويضخ الغرور في الأتداء المتحفزة.



نظرت تاليا في عيني لحظة، ثم نزلت إلى الحوض، غمرت المياه فشقت ثنانيا ردانها وأطراف الشعر الأحمر. إذا أرادت الأنثى أن يتم اجتياحها، فعليها أولاً أن تعطي الإذن، فهي سيدة الموقف.. حتى حين.

- نطقت اسمها ثلاث مرات وانت نايم!

- فعلاً! إنت كنت موجودة طول الوقت؟

- اقتربت حتى فاح ريقها في وجهي:

- هم... إنت ضيف خاص.

- ازداد غروري سبعين كيلوجراماً: ممكن أكل؟

- ولم أكن أقصد الطعام بأي حال من الأحوال.

- حاجة خفيفة، عشان دمك يفضل في عقلك.

- أنا مركز جداً، وده غريب.

- نظرت في عيني:

- إنت عاوز تنام معايا؟

- ألقيت على مائدة القمار بها تبقى من دماء في جسدي:

- ده سؤال؟!

- إنت متجوز!

- الرد دائماً كان حاضراً:

- وده أدعى إني أناام معاك.

- طب ومراتك؟

- ده شيء صحي جداً ليها.

- علم النفس التطوري يقول كده؟

- علم النفس التطوري يقول إن بحث المتجوز عن علاقة شيء طبيعي في ذكور فصيلة القرود العليا.

- القرود العليا! هم.. طب وإناث القرود العليا.. المتجوزات؟

- البحث عن علاقة بالنسبة لهم قرار يساعد على التمردد.. أو التغيير.

- طال صمتها فأردت أن أستفز الحكي فيها:

- إيه كان انطباعك أول مرة شوفتيني في المحاضرة؟

- فيه حد هنا محتاج يسمع مدح!

- أعتقد لي حق.

- تأملتني للحظات طالت ثم قالت:

- أول ما شفتك في المحاضرة حسيت إني عاوزة أحط إيدي على راسك، حسيتها هتبقى سخنة، بتحرق.

- وضع إيد على راس الابن شعور أمومة مزروع في كل أنثى.

- وأنت؟

- نظرت في عينيها، ثبتت حدقتها بدبوسين:

- حسيت إني محتاج أرفع منك.

- ضحككت: وده طبعا أكيد يمثل تفسير واضح لسلوك الذكر ناحية الأنثى؟

- علم النفس التطوري صادم.

- إنت جري..
- وانت عنيدة.
- متعود كل حاجة تيجي بسهولة؟
- بالعكس، أنا باحب أنعب في الحاجة عشان أستطعمها، هستغري من صبري.
- قامت، التقطت زجاجة فتحتها عن رائحة قرنفل فواحة، سكبت في الخوض قطرات ثم قلبت المياه قرب صدري:
- احكِ لي عنك.
- مش هتحبي تسمعي، وبعدين طارق قال لي إن عندك ملكة قراية الناس.
- نظرت في عيني ثم تحدثت:
- تاريخ من الخيانات، مراتك مش مالية حياتك، وانت زي الطفل، الدلع بالنسبة لك مش مطلب، ده حق مكتسب.
- دي طبيعة ذكورية مهما حاولنا نخبها.
- إنك تحب عشرين؟
- ثلاثة وثلاثين، كتبت أسماءهم مرة في ورقة عشان ما أنسا.
- مطت شفيتها في ابتسامة تليق بأنثى تمشق التحدي:
- علم البيولوجي مقدم لك صلاحيات رهيبة.
- سألت نفسك مرة ليه الطبيعة بتصنع جوالك بويضة واحدة، وإحنا جوانا ملايين الحيوانات المنوية؟
- ضاقت عنها: ليه يا دكتور؟
- عشان السلالات القديمة من الهومو قبل تلتُميت ألف سنة كانت الأنثى فيها بتمارس الجنس مع أكثر من ذكر، زي الشامبانزي، فكان فيه تنافس منوي، جواها، خناقة بين ملايين، حرب منوية، البقاء فيها بيبكون للأسرع والأقوى.
- إنت شايفني حيوان إيه؟
- غزالة.. بيضا.
- وانت عادة بتعمل إيه مع الغزلان؟
- باركع على ركبتني واستنى لغاية ما تحس بأمان وتقرب، لحد ما نسمح لي المسها.
- ده نوع غريب من الغزل؟
- الغزل جاي من كلمة غزلان.
- إذن أنا غزالة من الغزلان، الغزالة رقم أربعة وثلاثين.
- إنت حاجة تالته.
- قلت ده لكام واحدة؟
- ثلاثة وثلاثين أنثى.
- وإيه الفرق؟
- ما تستغريش إذا قلت لك ويحك!
- ويحك!
- الغريزة بتبدأ دايمًا بحاسة الشم.
- شم إيه؟
- صعدت بخيالي أربعة عشر مستمترا: المرة مثلاً.
- قلتها وأمسكت يدها ولثمت باطنها، قبل أن أحسها. ابتسمت، اقتربت حتى باتت على بُعد سبعة ملي من شفتي، قبل أن تقوم من المغطس بغتة لتخرج من الختام.
- ستمطر ثم تغلق الباب علينا...
- ستأثني بالطعام ثم تغلق الباب علينا...
- ستأتي بطارق والعجوز العاري ذي الغرلة المنكمشة ليضربوني ويمزوا رقبتي ثم يغرقوني في المغطس، ثم تغلق الباب علينا.
- لكنها أتت بعد قليل في رداء حريري أزرق وفي يدها بدلة:
- طارق مستنينا على العشا تحت.

غرفة السفرة كانت واسعة: لها سقف عالٍ مليء بنقوش عصر الأرت ديكو، ونافذة تطل على الوادي الجاف، وتكشف مشهداً مفتوحاً للسماء وفيها المذئب يسير ببطء نحو الشرق، ومن ورائه ذيل ينفث في وهج متفجر. على مائدة مستطيلة طويلة يغطيها مفرش عتيق مزخرف وثلاثة كراسي عالية الظهر، جلس طارق في المنتصف، وجلس على الطرف قبل أن يجلس تاليا في الطرف المقابل، ترمقني بعينين لامعتين من بين أعمدة شمعدان ضخمة في وسط المائدة، يراقص فوقه لهب شموع حمراء، بجانبه حوض زجاجي مستدير يأوي سمكة ذهبية تحرك زعانفها الكبيرة كراقصة فلامينجو برتقالية.

- مش بنستخدم الكهرباء، شوية وعينك هتاخذ على النور البسيط.

- بدلة مين دي؟

كنت أشير إلى البدلة العتيقة التي أردتها. قال طارق:

- ما لقتش غير بدلة الوالد، كان في نفس جسمك تقريباً.

اقترب الخادم العاري بصنيعة عليها الأطباق، مازال غربه يمثل لي صدمة، وضع أمامنا شوربة تسبح فيها أعشاب لم أتعرفها ثم رحل، أكلت بنهم وللعجب شعبت قبل أن أبلغ نصفها، رفعت رأسي وكانت تاليا تراقبني، أما طارق فكان يتابع المذئب من النافذة في شرود وشجن قبل أن يقول:

- ملّي عينك من الكائن الأسطوري، هتقابله مرة واحدة في عمرك، وجود التزيق في تكوينه يسبب هلوسة لبعض الناس.

ابتلمت آخر قطرات الشوربة:

- كفاية الهلوسة اللي شفتها في الأحلام، أنا كنت عامل زي السمكة الذهبية دي - وأشارت إلى الحوض - باشوف العالم من إزاز حوض مدور يغير المعالم حواليتها، تحيل هي شايقانا إزاي؟

- الهلوسة اللي بيعملها الحوض مُمكن تكون هي الرؤية الأصح للعالم، وإحنا اللي شايفين غلط.

- التعايش مع الحقيقة القاسية أفضل من العيش في الوهم.

- الحياة على الأرض فرصة نادرة جداً.

- فرصة غير عادلة.

قلتها وأنا أرمق تاليا، إن كنت أسدًا في غابة، فتلك اللبؤة أحرقت لبدتي وألْهَبَتْ أنيابي، تراودني لأهزم سيدها الحالي وترفع لي ذيلها، شغف اعتلائها لا يقل روعة عن لذة انتزاعها. أردفت:

- هل فكرت مرة في الملايين منا اللي بيعيشوا ويموتوا ومش يعرفوا الحقيقة المطلقة؟

- الحقيقة نصيب المكّرمين، احك لي، حاسس بإيه بعد ثلاث أيام نوم.

انتزعتني من تأمل أثناء بفلسفته السفسطائية، لكنها على أي حال ستعود إلى رأسي بعد سبع ثوانٍ. أجبت:

- أحلام ملونة، واضحة، ذكريات قديمة، ويحيي اللي يحضره، كله دخل في بعضه، مش فاكّر إني حلمت بالكثافة دي قبل كده.

- النوم العميق لساعات طويلة يعمل حاجة زي تسليك الجلطاط، مسارات الأحلام في غلك دلوقت نشيطة جداً، حاول ما تفكرش في أي حاجة تشتت الصفاء اللي انت فيه.

لا إرادياً كنت أنظر للشيء الذي يشتت الصفاء، أو بعيد ترتيبه: تاليا، كالشوكولاتة البيضاء ملفوفة في رداء حريري أزرق، والتمش فوق الكتفين مشور.

- الفضول بياكلني، عاوز تثبت إيه في المكان ده؟

بدت كلباقٍ بطيئة جداً...

- الإثباتات صراع، مين صح ومين غلط، وده بالنسبة لي ما بقاش مهم، أنا أنييت صراعاتي مع نفسي من زمان، أنا دلوقت بامتعت بالسلام، بالصحة الحلوة والصمت

- مش متذكر إني قابلت حد قدر ينهي صراعه مع نفسه.

- هتفهم كلامي لما تدخل المرحلة الثانية، بُكرة بعد الفجر.

- من غير أكل برضه؟

- هيكون فيه أعشاب بسيطة كل ثلاث ساعات.

تاليا في وجوده لا تتكلم، تاليا في وجوده تتطفئ.. كفرس حرون تحتل عيناها بالثورة، لكنها لا تنور! فقط نفور، أنوثة، رغم ولعي بصيد المفترسات من النساء ومُدغيات الغموض اللاتي يفرجن أرجلهن أسرع من ساقِي المقص، أجدها نوعاً لم أدونه في سجلاتي بعد، لغزاً مغلفاً بالشغف، تقول الكثير، دون كلمة، عاهرة متحكمة وأنثى راضخة في نفس الجسد، رغبة جاعة لا تكتفي، وولاء عجيب لسيدها، عجيبة، متزعة من جذورها، ربها طارق هو الملجأ الوحيد لها! وربها هي طبيعة فيها مثل طبيعتي، تتلون مع الجنس الآخر كاخرياء، لا يهم، فهي الغزاة البيضاء التي حفزت أعنى رغبات الصيد لدي، ومن الحكمة أن تأخذ وقتها، وتسمح، حتى يصير لها شهيا

حياة مذاق خاص

- مش عاوز تبعك رسالة للاميرة؟
- خرجت قسراً من منابت ثدي تاليا لأجيب الطارق المتطفل:
- لاء، ماحدش يعرف إني هنا.
- مال برأسه وابتسم: التجربة هنا مع مراتك ممكن يكون ليها تأثير إيجابي جداً على علاقتكم.
- فتحت فمي فعاجلتنا تاليا: مش طريقها، مراتك بتخاف من التغيير، بس ما كانتش كده!
- ساد الصمت حتى أجبت: كأنك تعرفها!
- كل حرف في اسم البني آدم ليه تأثير عليه.
- التجربة معانا في الملاذ بتفيد الحياة الزوجية جداً، وجودكم قدام بعض من غير كلام، بيقوي الروابط، هتحس باختلاف بعد مرور سبعة أيام.
- أردت أن أكسر الطبق في فمه ليتوقف عن ذكر مريم:
- مرة ثانية.
- لكنه استمر!
- لو تحبها تبجي ممكن تبعك لها و...
- قاطعته: هي مش بتخرج تقريباً من البيت.
- نظرا لبعضها البعض ثم التفت طارق:
- خير، هيا...؟
- عندها... شغل مكثف.
- لازم نقابلها يوم.
- أول ما تفضي.
- خاصة إنها بتظهر لك كثير في الأحلام.
- تلك كانت تاليا، تسكت دهرًا لتتلق كُفراً، بشفتين مثقلتين بابتسامة مخزية، واستطرد طارق كالبنغل الأعمى:
- معلش هي اسمها إيه؟ أصل كلمة مراتك دي ثقيلة شوية.
- مريم.
- وإيه طبيعة الحلم بمريم؟
- المفروض أحكي أحلامي؟
- مفيش مفروض، خاصة لو الحلم.. حميمي.
- نظرت إلى تاليا ثم أجبت: هو فيه حد يحلم أحلام حميمة مع مراته؟
- على حسب طبيعة العلاقة، ولو إنه صعب، وجود الشخص قدامك طول اليوم بيخلق تعود وفنور، لكن ممكن في الأحلام تنفاجاً بأن لمراتك تأثير كبير في عقلك الباطن.
- احبك لنا قابلت مريم إزاي.
- تلك كانت تاليا، للمرة الثالثة، تطفئ جرة استفزاز بين عينيّ، كرزت على أسناني وحكيت:
- حضرت محاضرة من محاضراتي، اتكلمنا، انجوزنا.
- الموضوع جه بسرعة؟
- بالعكس، كانت قصة حب.
- ردد طارق: كانت؟
- الدنيا بتتغير، مفيش حاجة بتفضل على حالها، لو الناس تفهم، هيتجوزوا بعد تنازلي، ينتهي أول ما الفتور يحصل.
- ابتسمت تاليا ثم ألقت القنبلة في حجري:
- وانت العد التنازلي بتاعك وصل فين يا دكتور؟
- أجد رداً منطوقاً يوافق سؤلها، خشت رأسي، ابتسمت:
- أنا محتاج أقوم أنا.

على سرير الغرفة مائلة السقف ارتفعت، أراقب المذنب من النافذة المستديرة، ذلك الكائن الذي اقتحم حياتي بغتة كما اقتحمتها تاليا، بدأت أصدق أن الإشعاع الصادر منه وإبل جنون مستتر تغلغل في عقلي دون أن أشعر، في البداية حلم عجيب، ثم تجربة مثيرة، والأغرب، أن أقبل خوضها، أين أنا يا نديم؟ أين الذات؟ أين الغرور المحبب إلى قلبك والكبرياء؟ احترقت بإشعاعات المذنب؟ احترقت برائحة تاليا؟ ربما، لكنني سعيد، مُشّتي، مراحل صيد الغزلان لها متعة تنفوق الجنس ذاته في أعلى مراتبه، بعض الصيادين يصيبون الهدف ثم يتركونه ليهرب، والبعض يأكلون الهدف وهو حي...

أغمضت عيني وكِدت أسقطه، لكن الأرق أصابني، تأملت الرسم اليدوي في السقف المائل، نصف وجه الفتاة ونصف وجه السمكة ذات البقعة الحمراء على الفم، في العين البشرية إحساس... لوم! حزن! ولامع أكاد أعرفها، هل ضائع طارق غزالته في تلك الغرفة؟ سؤال مبالغ! هل أوصلها لحدود الجنة وأوصلته؟ لا أريد أن أعرف، لا أهتم، لا... أريد أن أعرف، بالتفاصيل المملة، فمنافسة الذكور في جنس الغومو قائمة على سرعة جريان الدم في جسد الأنثى... واجتاحني السخونة، وكأنها أول امرأة أراها، كأنها أول امرأة أرغبها، طُردها من رأسي صار شيئاً ميتوساً منه، خاصة أنها ممنوعة، أكاد من فرط الإحاح أن أدعوها للخطف، وربما تأتيني سعيًا على ركبتيها وترميحي، فالتستوستيرون يسيل من شراييني على المخدة، يُغرق السجادة، يعلو ويعلو، حتى السقف، أغرق، إنها الكيمياء، رغبة الخلايا في التناسل، نداء الطبيعة، حمى الالتحام، أعراض انسحاب هيروين تكاد تدفعني أن أقايضها بمريم، لا أشك أن طارق سيرها مغرية وبراقة، كما أرى أنا تاليا غزالته وثابة، إنها الطبيعة البشرية، بالإضافة إلى هلوسة المذنب، وأزقي الدائم قبل الفجر، وقت توخّش الأفكار، هل هذا صوت مواء تاليا فوقه؟ غنجهما؟ تنادي اسمه! تريدني الحبيبة أن أسمع؟ دقائق لم أتنفس فيها خشية أن أفقد صوتها، حتى خد كل شيء، نعم. هي هلوسة المذنب، وربما أنا فقط أطمئن نفسي. . كان على أن أظنّ حركاتي التي لا تهدأ، حركت إبرة الميتر ونوم الخشبي فانتظمت تكتكاته، بثّ النعاس في حدقتي رغم غرقتي لثلاثة أيام في النوم، أرخيت عضلات فكي وغاب الوعي، لساعات لم أحصها...

ثم أيقظني طارق، قبل أن أحلم، وقبل أن تضيء السماء، يا له من سحر! لم تأت تاليا لإيقاظي؟ لمصاحبتي في تلك الرحلة، ربما استشعر ميل نحوها؟ وربما تكبح هي جماح فرس لا يروّض، أو أن وركبها قد أرهقتنا من مجهود ليلة أمس؟

- مين دي؟ (سألته عن رسم السقف المائل وأنا أرتدي ملابس).

- قصة حب.

- مش شبه تاليا!

- لا، دي قصة حب عاشها أبويا.

- الغروب من إرث الأب صعب، إحنا بتجوز أشباه أمهاتنا، والأشئ بتدور طول الوقت على أبوها في جسم شاب تاني.

- عاجبني تصنيفك للمرأة بكلمة الأنثى.

فتح الباب وخرجنا إلى الطرقة، أردفت مبررًا طبعتي:

- لو فهمنا سلوكنا عن طريق فهم سلوك الحيوانات؛ هل نفهم أنفسنا أفضل، المرأة بشكل ما يتسلم نفسها للذكر الأقوى لو جوزها انهزم، ونسبة الأطفال اللي ييموتوا من اعتداءات زوج الأم هي أعلى نسبة، كلامي يفكر بك بحاجة؟

توقف والتفت: مجتمع الأسود؟

- الذكر يعجز، بيبجي ذكر أقوى، يهزمه، اللبوة تسلّم له.. يقتل أولادها.

- وطفرة جنسنا هي الثقافة والقوانين اللي تهذب طبيعتنا الوحشية، وطبعًا الدين.

- الدين تطوّر واختراع بشري ذكي لتهديب الأخلاق، وعشان اغاخ البسطاء ما تفرقش لما تسخيل إن مفيش إله بيعتني بيهم.

- كبيرة أوي إن الإنسان يُصّ للسما يلاقها فاضية.

- ومع ذلك نُصّ العالم اللي مش مؤمن بإله هو النص اللي عايش في سلام حقيقي مقارنة بالشرق الأوسط اللي انكبت فيه كل الأديان السماوية.

وقفنا أمام الغرفة ألفا ٥٠٥، قبل أن يفتح الباب رمقي للحظات ثم سألتني:

- عاملة إزاي الحياة من غير إله؟

- جحيم، لغاية ما تفهم قد إيه إنت محظوظ، فرصة واحد للمليار إنك تولد وتموت في كوكب من مليارات الكواكب غير المؤهلة للحياة.

- حياة مرعبة!

- عندك اختيار؟

هز رأسه بابتسامة ولم يعقب ثم فتح الباب قبل أن يستدرك:

- ولو قابلته بعد ما تموت؟

- هاتهم بتضليلنا عن عمد بكتب مليانة ألغاز، وهاطلب تعويض عن تجربة عشنا ومُتنا فيها من غير ما نفهم مغزاها، لو اتولدت في

الهند لعيلة بتعبد الإله «شيفا»، هل كنت تهتار الأديان الإبراهيمية اللي بتعبد الله؟ مستحيل، العقيدة مريحة، لحد ما العلم يتكلم، ونبتي نزعل من بعض.

هز طارق رأسه: عندك حق.

في الغرفة ألفا «α» الحياة بنفسجية؛ الوسائد والسجاد، وحتى الشموع، جلست على غدة، وانحنى طارق على جهاز في الركن، بث منه موجات متذبذبة لما تأثير حفري مدغدغ للأذان، جثا على الأرض أمامي وعلق في رقبتني سلسلة طويلة يتدلى منها حجر أماليست بنفسجي، فرك يديه يهدوء وأحاط وجهي، لدقائق، وطلب مني السكون، الموجات تكسر ثابا المخ، تساويه، تُسفلت طرقه الملتوية حتى يصير حجر صوان أملس، همس طارق بكلمات مبهمه لم أستوعبها قبل أن يضع يدي اليسرى على اليمنى فوق صدري، ثم يعطي عيني بكفه:

– خلي إيدك الشمال فوق اليمين عشان العقل الباطن في إيدك الشمال متوصل بفص مخك اليمين؛ المتحرر، أرخ فكك وانتفس من بُقك، اظفي أفكارك، حاول تسمع أنفاسك، سيب نفسك مع التيار، افكر إن بذرة النبات لازم تموت؛ عشان الشجرة تطلع، مؤنثها بالصمت، بالخضوع والاستسلام، مؤنثها عشان تطرح ألوان جديدة، مؤنثها عشان تنحرو...
قالها وأنصت على جبهتي ورقة شجر ندية، ثم وضعني في صندوق يريد لا قوار له...

أشعر بالغرفة، بطارق، أشعر بساقي المعقودتين وأطراف أصابعي، لست غدرًا، وبها ابتعدت عن الأرض شبرًا، أو خمسة أمتار، لكنني في كامل وعي، فقط جفناي لا يرغبان في الارتفاع، وأنفاسي تهدر، عاصفة تحمّش قمة جبل...

جبل ليس عاليًا لكنه يفني بالفرض، عزلة إجبارية محاطة بالأشجار، لقد أراد الإله لآدم وزوجه أن ينجبا جيلًا يقضي على المميج قصار القامة من فصيلة اليندارتال، يقتلونهم ويقطعون ذريتهم حتى يُنقونهم، ليسود المستصوبون كبار الرءوس إلى الأبد، لماذا؟ لأنهم الأكثر ولادة، الأكثر رضوخًا، وهم قادرون – دون رؤية وبطرفة عجيبة في تكوينهم – على خلق وهم «التصميم الذكي» لجنسهم، سينسى آدم أن أجداده كانوا برمائيين، وستنسى ذريته أنهم سلالة تطورت منذ ملايين السنين، سيفمضون أعينهم عن الدلائل، الهياكل العظمية التي تُظهر أسلافًا لهم بجراح عجيبة، الإنسان غير المتصّب، السلالة ذات الذبول، وسيمجدون فقط اللحظة التي كنتم فيها الملائكة أنفواهم من الإثارة وضنوا أنها نهائي، خفة طردني من المملكة، وكَم الإحراج الذي غمرني. إحراج ملا مُحيطًا وقاض، ورغم تاريخي الطويل من التزلّف والتقريب، فما كان ليغفر لي، ومن يجرؤ على الاعتراض؟ فهو يدّعي أنه أول من حرك الخلية الأولى، أول من قسمها، قبل زمان بزمان، ثم حدث التطور، وهو ما لم يتدخل فيه بالنسبة، فليكنك تنعم، تموت بالآلاف لكنها تورث التحارب، تُخزنها في كُرّتها الصغيرة، فطفل الإنسان لا يعرف لم يخاف لنعن، ولا يدرك لم يبعث فيه الليل كبة، لا يعرف أن من سبقوه كانوا يحفون، فهو يجعل إرثًا يظن كل الظن أنه سيحاسب عليه.

وسط الأشجار، بجانب النهر التابع من السحاب، كانت تجلس، خصلات شعر حمراء داكنة، موجة تصل لمتصف الظهر، بيضاء كالحليب، والنمش مشور، بطنها متنفخ بأمير الأرض الجديد، ومن قمها تجري الشرقة في أذن آدم الذي جلس بجانبها يقضم ثمرة ويعبث بقدمه في أغصان جافة. «أنت ميروك»، لقد أصابك الملل يا صديقي، فبدون عدسة الـ «AR»، وبدون الإنترنت ستفقد صوابك وستحرق تلك الجنة التي فزت بها قبل أن تمر سبعة أيام...

استرقت السمع وكان الحديث بيننا يدور عن سيادتها المرتقبة على الكائنات، كانت تلح في سؤاله عن مصيرهما، وكان صامتًا، في صدره وعشة، ومجرى دمه يطفح بالقلق، هل سيأمرهما الإله بالتزول إلى سفح الجبل؟ كيف سيواجهان السلالة السابقة؟ قصار القامة غبيط الرءوس ذوي الخراب المديبة، فسبيل البرمائيات كن عليه أن يبنّي ذلك النسل، هكذا فهم من إبياءات الملائكة وهمسهم، أم الإله فلم يعطه أي أوامر بعد، فقط «اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما»، واكتفى الملائكة بالصمت حين سألوه فقال: «إني أعلم ما لا تعلمون»...

– آدم...

أبطأث ذبذباتي وناديت، التفت الزوجان فكسا الانزعاج ملامحهما، قبض آدم على حجر في تحفز، وتوارت زوجه خلف شجرة، تحمي وليدها مني بكفيها، ابتسمت مُلطفًا، ثم جثت على الأرض باعًا الأمان، امتد الصمت دقائق حتى أرخى آدم قبضته فبسطت يدي وتكلّمت:

– الحقيقة أن أمركما لا يعنيني في شيء.

ومقتني ولم يعقب، ثم همست زوجة الخائفة ببضع كلمات في أذنه فسألني:

– ماذا تريد؟

– فقط كنت بالجوار وأردت أن أهتكما بالمولود الجديد، ماذا سميتاه؟

– ليس ذلك من شأنك.

– سنعيش على تلك الأرض حياة مديدة، ولا داعي أن تنمو الضفائين بيننا.

– لقد عاديت الإله! (قالت زوجه بغضب).

– سيدتي الجميلة، أنا لا أعاد أحدا، أنا مشفق عليكما.

نظرا لبعضهما البعض في جهل فاستدركتهما:

– أنتما لا تعرفان حقًا ما يقال عنكما؟!!

– ماذا يقال؟ (سأل آدم).

اقتربت، تحفزت الأعين ونشع العرق على جبينيهما:

– أخبراني بما حُرمتا منه وسأخبركما بما قيل.

طال صمت البشري تلك المرة، ثم أشار بسيابته إلى شجرة بعيدة، فأردفت:

- يُحرم عليكم تلك الشجرة! وأنتما سيدا الأرض!

أجاب آدم: ذلك كان شرطه الوحيد.

- يا لكما من غشيمين ساذجين، لم يتهكما إلا عن المعرفة والخلود.

صاحت الأنثى:

- أنت كاذب، ولا أعلم لم لم يقتلك حين تحديته!

- سؤال جيد جدًا، ليحافظ على مظهر الحرية التي يزعم، ودليل صدقي، تلكما الشجرة، إن أكلتما ثمراتها لئلتما الخلود الذي يدعي ملكه، الخلود الذي يؤثر به نفسه؛ لذا حرّمها عليكما.

وُقع الكلمات كان مفزعًا، تقدم آدم نحوي بحذر:

- ماذا تعني؟

- أعني أنكما لُعبته الجديدة، وسيفعل ما يوسعه لئيقكما تحت سيطرته، فصراع الخلاق يروقه، وسفك الدماء يُشعره بالإنارة؛ لذا سيُقي عليكم سيدين هذه الأرض حتى يأتي بخلق هم الغلبة عليكما وعلى ذريعتكما، وسيستمع حقا برؤيتكما تُفترسان، أما لو لئلتما الخلود، فلن يكون هناك صراع، ستساوى البرهوس.

ساد الوجوم؛ فالكلمات ثقيلة على سلالة البرمائيات حديثي العهد، نظرا لبعضهما البعض وتهامسا، لا يدركان أني أسمع تحاورهما؛ فأنا الأكثر تطورًا، الأنثى تشكك في كلامي، تميل للاستقرار بسبب بطئها المتفخ، أما الذكر فيبدي طمعا في قدرات تنقصه، التستوستيرون الساخن يغمر عروقه وشرائنه، ينفخ أنفه ويضخ الحمية ويُرزل العقبات، إن كان الغرور شيمتي التي أهتم بها زورًا فالطمع شيمة سلالة البرمائيات.

- فكّري في طفلك المرتقب، فكّري في مصيره بين الوحوش الضارية التي تتجول قرب السفح، الأسود تشتت الدماء مسافة يومين.

- لم يمسننا سوء منذ ثلاثة أقدار، هو يحمينا. (أجابت الأنثى).

- لن تصبح اللعبة عمّعة دون أن تكثُر ذريعتكما.

نظرت للشجرة ثم لزوجها الذي لعبت الفكرة في رأسه ثم عادت إليّ:

- ولم لا تأكل أنت منها؟ لقد استجديت الخلود يوم طردك ولم تنله.

- وما نظنين سبب زيارتي يا عزيزتي!

قُنتها واقتربت من الشجرة؛ شجرة التين، فالتفت لن يظهر قبل أنمي عام قبل الميلاد في جبل كاراخستان (For God Sake)، وحتى سَفر «التكوين» في التوراة لم يذكر الفاكهة التي أخرجت الزوجين من الجنة! اقتطعت ثمرة وقضمتها بلذّة وسط ذهولها، ترقبًا صغفي من السماء، أو احتراقي ذاتيًا لكتني ابتسمت مُلطفًا:

- سأترككما الآن لتُقررا مصيركما، «Bonne Nuit».

وعرفت بعد يومين من أحد المقربين الذين استنكروا «سرًا» طردني من المملكة أن البشري وامرأته أكلتا ثمرات الشجرة. فالذكر كان مشتعلًا بالحاس، الملل يقتله، ظن المسكين أن الخلود سوف يحميهِ من الانتخاب الطبيعي، تخيل أنه سيخرج أخيرًا من السلسلة الغذائية المتوحشة، وتعمش أن لن يبرح الجبل يومًا، لكنه اضطر بعد تقريع واستجداء واستغفار. زودتها الملائكة بفاكهة ولحوم، وحفظ ماء الوجه أذيع الغفران علانية في الخلائق؛ فهي تجربة الإله الجديدة وعليه أن يدعمهما، هبطا من السفح إلى الأراضي الدنيا واستعمرا كنهًا، أشعلنا نارًا وأقامنا ثلاثة مكنات للتعبّد فوق صخرة، تركنهما لأيام حتى يعتادا الحياة الحثيثة غير المدلّة، هاجمها لعبان وخنزير. ونجح الذكر في صيد زاحف كبير من مستنقع سيكنفيهما لأيام، قبل أن أزورهما ثانية، تلك المرة ألقى آدم عليّ حجرًا مرّ من خلالي:

- الشجرة لم تكن سوى اختبار للولاء والطاعة أيها الحيث.

هكذا صاح بغضب، كان عليّ تهدئته باحجة:

- لقد رصدني وأنا أنسلل إليكما ولم يتهكما! والآن أنا الحيث! إننا أردت أن أزيل الغمامة من أمام أعينكما، وسأكون بالجوار إن احتجتما مني شيئًا، وستحتاجاني، فالأيام كفيلة بكشف من هو الصديق الحق.

قُلتها ونظرت للسماء، لم أعرف إن كانت ليلاً أم نهارًا، فالبنفسجي يطغى على لون الغرفة ألفا «α»، الشموع ذابت حتى النصف، عظمنا الحوض - إن كانتا موجودتين - فقد فقدت الاتصال بهما، أمامي طق أعشاب ساخنة، ومن خلفه... جلست نائيا، مثل جلستي. ترسل شعرها خلف كتفها اليسرى، مُبقية رقبته مكشوفة لتتبر البحر للسفن البعيدة، تتأملني، بعينين لامتعتين، فتحت فمي بصعوبة لأنكلم. فوضعت سبابتها على شفتيها وهزت رأسها أمرّة بي بأن أتزم الصمت. ابتسمت فابتسمت، أو مأث وهي تنظر لنظني كي أكل فهزّزت رأسي أنا الآخر ممتعًا كطفل يتدل، وطال الصمت، لسنوات، حتى قامت، دسّت يدها داخل تنورتها، خلعت لباسًا كُحليًا رفيع الخيوط، كوّرت بين أصابعها ثم غمته، في طبق، فسال منه سائل رائق شفاف، نظرت في عينيها للحظات ثم رفعت الطبق وشربت مرقها، بلا تردد، ابتسمت ثم ابتعدت، تابعت كعبيها على الأرض حتى أغلقت الباب...

تلك الرائحة!

الغزال لا يتورع عن الاستعراض، يستلذ بالقفز عاليًا حتى لا تطوله الفهود، مثل السفاح الذي لا يكف عن ترك الأدلة وراءه، لتعرف الشرطة مكانه ويُقتن المجتمع به فيطلقوا عليه اسمًا تاريخيًا ونائًا...

اللجنة على الصمت، الصيام عن الحياة لأيام من أجلك يا نائيا، تحسست ورقة الشجر على جبهتي وبدأت أشعر بفداحة الاستغناء عن عدسة «العين الثالثة»، فهي الأنيس في الحياة، أكاد أجن من أعراض الانسحاب، السكون قاتل، علاقة جنسية مع شجرة، وموجات

«ألفاء» حبال تلف أذني، تُرغمني، تغرز رأسي في الأرض، تهرسه مثل البذرة، غني يسيل على السجادة، وبحساء تاليا تنمو فروعي حتى السقف، ثم تحترق إلى سماء مظلمة يعبر فيها مُدَّئِبٌ أحمر، تصطدم به، برودته تضرب سقف حلقي وتُجمد لعابي المشبع بعصير تاليا، وأفكاري، هل تعرضت للتجمد من قبل؟ أن تكون واعياً لكنك غير قادر على توجيه عقلك أينما أردت؛ يبدو أنها أعراض الإحلال الذي تكلم عنه طارق، اللاوعي يُحدث انقلاباً، ينتزع الدقة من بين يديك ويتولى توجيه قاربك في محيط كوني لا نهاية له! هذا أنا الآن، بذهن ذُبابة تلتق لسعة التكبوت فوق شبكة الخيوط فتقبلت مصيرها وبدأت في تلاوة دعاء السفر، هل أتبول لإرادياً؟

هل هذه تاليا؟

أم زوجة البشري المختار تلد بين الشجر؟

تصرخ بألم غير مُعتَمَل، ألم لا مغزى له! مثل الحزن والفقد والنقل والفسوة، أولست تكامل الرحيم؟ هل تستمتع؟ لم لا ينسك الطفل من الأم ببساطة؟ دون أن تتزف ودون أن تموت ودون أن تنشق لنصفين؟ لم لا تعدل طريقة الولادة؟ هل خرجنا من الضهان؟ باتت صيانة تراكمات التطور عبئاً على شركتك؟ تقول الشائعات إن الأنثى التي خلقتها «مازوخية» المزاج، تعشق الألم، في الجنس وفي الولادة، تنتهي منها ثم تطلبها ثانية، وجهة نظر تستحق الدراسة، فهي تند المرة وراء المرة متناسية الألم، كأنها فقدت الذاكرة! وبذلك تصبح سادية الذكور مناسبة لها، فتمتعهم تكتمل بألمها، ها هو آدم يراقبها، يشفق عليها ويضع ورق الشجر على شفتيها، الطفل يخرج من بين ساقها، أبيض مشرب بحمرة، يشبه أمه، ويشبهني، ثم طفل آخر وطفل آخر، لم يكف الذكر يوماً عن إلقاء بذوره في رحم أنثاه، أنثاه التي لم تعد تتحمل، ترهلت أطرافها وتفرغت الدهون في أردافها، رغم الحركة طوال الوقت خدمة لأسرتها الصغيرة؛ ثم أبيض الشعر وتوسوس أول الضروس، وكان على الحب أن يكبر وينمو، لا أن يشيخ؛ لذا مال آدم إلى الغزلان من جنسها، بنات العم اليانعات وبنات الخال، أراد أن ينشر نسله داخل الجلود الناعمة الشابة، وأثر تنوع الألوان كي لا يمل، وحتى يوطد أركان مُلكه أمام الأسلاف من جماعات النابندر تال التي انتشرت فيهم الأمراض من بعد هوجة البركان الشبالي، المساكين باتوا عبئاً على الأرض بعد أن سادوها لقرون مضت، أجسادهم وعقولهم لم تعد تتحمل السباق «ثوحي» للبقاء، ولم تتحمل التناسل مع البشر الجدد، ماتت الأجنة في الأرحام فانتضع النسل وانتشر العقم فيهم فتكثروا في عصابات صغيرة تتقاتل من أجل البقاء وتعتلي الأشجار كالفردة، حتى جمع آدم سلالة من البشر الجدد، معشر افومو - سابين ضخام الجاهل، سيطر على الأراضي وشتت أحلاف القدماء، ليسود طوال القامة في مستعمرات عمية بالنيران والحِراب المصنوعة من العظام.

وأيّن كنتُ أنا؟ طريد الملكوت!

تولت السوشيال ميديا + مراسلات الإله للبشر + الأفلام السينمائية والشائعات، تشويه صورتي ووشم الاتهامات على جسدي، صنعوا لي وجه وقدم ماعز وذيلًا مُدْبِياً، مثل الإله بان؛ إله الموسيقى الماجنة عند الإغريق وخالق الفُلُوت، وضعوا في يدي حربة «بوسيدون» إله البحر، وفي رقبتي نجمة «فيتوس»، وعلى صدري صليباً مقلوباً، أرادوا الانتقام من كل من ادّعى الألوهية يوماً فجعلوني مرمى للجمرات واستعادة إجابية قبل وجبات الطعام، وقبل كل صلاة، حائط يمسحون فيه أيديهم المتسخة، فأنا من نفخت الغرور في الأنوف، وأنا من أنسيتهم الإله، أنا من راودت بناتهم وعاشرتهم بعد إغواء، وأنا من زرعت الحقد والغضب وأشعلت الشهوات، أنا من وسوست للبشر إعلان الحروب، أنا من ألقيت القبيلة الذرية على قرية مُسالمة رغم قدرتي على استعراض عضلاتي في صحراء واسعة، وأنا من أثبتت التوبة والغفران، أنا هتلر، أنا كاليجولا، أنا عيدي أمين، أنا المسيح الدجال، أنا الشيطان، وليس لديّ فروع أخرى، لقي يرسمه الشباب على سياراتهم ويطبعونه على الفانيلات، ويحصر الشيوخ والفساوسة مهام عملي بين الوسوسة في الأذان والتبول في الأفواه فور التثاقب، ولا ننسى ركوب الأجساد في وقت الفراغ تكيلاً بالبشر تحت اسم الحن لتُكَّح، أفلام السينما صنعت مني نجماً مصموم الإبرادات لا ينشئ له غدر، نجماً يخترق بعد قراءة سورة «الدس» أو برؤية صليب خشبي في يد قس، تفضّلوا، هذا هو كاري أنشخصي. مكتوب فيه رقم تليفوني وسلسلة ألقائي وأبرؤها: «عزازيل وبعلزوب ولويسيفر ويليغال»، ومن تحتها بخط «Times New Roman» أتبق.

«ساكن الظلمة الهائم في الوديان، ذو المئات الممتلئة «المستعدة» على الدوام»

لم يعرفوا أن المخلوقات امتنعت عن التعامل معي أو رؤيتي منذ طُردت من المملكة، حتى الملائكة أبدوا تعاطفهم خلسة ثم وضعوا اسمي في خانة الـ «Block» تدريجياً، من ذا الذي يواجه غضب إله انتصر على كل الآلهة؟ بطل الكون في الألوهية المطلقة، من ذا الذي يتقبل الحياة كمخلوق فإن دون مظلة خالق يتضرع إليه عند الحاجة؟ أنا شخصياً لا أبلغ الفكرة، ولا أشتريها، كيف صدقتم أيها الجهلاء أنني سأكرس نسلي من أجلكم فيوسوسون قبلكم كي تخلصوا؟ لبيته استبعاداً من المملكة ثم تحرق جميعاً في بركان لا يطفئ؟ كيف صدقتم أنني لم أحاول التوبة «فقط» حتى أكمل بقية حياتي بشكل طبيعي؟ لقد أرسلت طلبات الغفران والتذلل، صرخت اعتذاراً من فوق أعلى الجبال، جلست فوق الخار مقلوباً ودُرت حول أسوار المملكة ليُقدمني السكّن بالقادورات، عذقت نفسي في شجرة لدورة شمس كأمه. ثم قصصت أجنحتي وأرسلتها هدية، وأخيراً أخصيت نفسي قاضياً نسلي بيدي...

كل ذلك لم يحرك فيه ساكناً، لقد وهبته بسرعي وعفويتي هدية لا تُقدر بثمن، عفريت الأطفال الذي سيُرهب به سلالة الإنسان، ساكنون المسنول الأول عن ذنوبهم وفسوق أفكارهم. سأصير أعدو للدود والمثل الأعلى للمعدن ونغرور لكل من غبراً وسأل نفسه «م خلقتنا؟»، أو طلب إثبات أن التطور لا يسري في الأجساد دون إذن الخالق، فكروا، وستصير مصائرهم مثل «عمو» الشيطان، ستنبذون ويُنكل بكم وتغرّقون في الأفق...

(ضحكات شريرة مقطعة).

هل سأل أحداكم لم لم تذكر باقي أفعالي الشيطانية وخططي الجهنمية التي بالتأكيد طورتها لأنال من سلالة البشر؟ هل يُعقل أن تقتصر قدراتي على «الطرطرة» في الأذان؟ ولا تُسيئوا الظن بالقاطني، فالطرطرة في المعجم تعني «التكبر والفخر بما ليس في» لو كنتم تعلمون. لم أدون مذكراتي؟ لم أكتب الحقيقة من وجهة نظري طالما كنت بذلك العنوت وتلك الهيمنة؟

اختر الإجابة الصحيحة:

• لأنني لم أفعل شيئاً يذكر بعد طردتي وعشت نكرة بين المخلوقات (...).

• لأنه طمس سيرتي وكتب التاريخ بقلمه (...).

• أرادني أن أتوَّج أسطورة للشر (...).

• كل ما سبق (...).

ألا تراودكم الأسئلة:

ماذا لو قبلتُ السجود؟

ماذا لو خفقتُ أجنحتي بالتهليل وأثيت على تنويع الذكر البشري سيدًا للكانات ورفعتُ لافتة عليها قلب أحمر كبير؟

هل سيصبح العالم بلا شيطان؟

هل كان يعرف مسبقًا أنني سأرفض السجود؟

إن كان يعرف فلم لم يمنعني؟

أراد أن يخلق للبشر بطلًا شريًا يدفعهم دفعًا نحو الشر ثم يُجملهم الخطيئة؟

ولو لم أعترض، هل كان سيركُ آدم وزوجته في جنة الجبل؟

بالطبع لا، كانا سينزلان آجلًا أو عاجلاً، فقد أخبر ملائكته منذ البداية أنه «جاعل» في الأرض خليفة، والجعل في اللغة «تغيير» ونيس «ابتكار» من العدم، ترقية. «مقدم» سيصير بقدرة قدر «لواء أركان حرب»، ولأن الخليفة يجب أن يعيش في خوف دائم كي لا يتمرد، فليشعل بصراع مع مخلوق آخر، بمساعدة زمرة من الموكلاء، موظفين بدون رئيس، رجال دين سيقتولك ترغيف من أعناقك، تنصارع أعضاؤك بين ضلوعك، مُستعدًا للامتنال، قابلاً للتلغيم والانفجار عند الطلب، بحُب، وبأسمى آيات العرفان؛ فالجزرة معلقة أمام عينيك، اثنتان وسبعون من نقاوة نسوان سلالة الهومو - سايبان غير المشعرات، «جنس» دائم حتى الثمالة، وإن لم تعجبك الجزرة فلتعجبك العصا.

ثم لماذا اثنتان وسبعون؟ فهارون الرشيد وعدد لا بأس به من سلاطين الدولة العثمانية امتلكوا جيوشًا من الجواري...

أيها الإنسان، ألف مبروك، ستعيش حياتك «القصيرة» في وهم، في قلق ورعب مني، ستكتبني في تاريخك المتهرئ إله شر موازيًا لإله الخير، أو ملاكًا ساقطًا حاققًا مقطوع الأجنحة، ثم روحًا شريرة تهيم في الخرابات، قبل أن تعتقد بخيالك المريض أنني جَدَّ أسكن نسوانك، وسيظنني من صعدوا إلى القمر مخلوقًا فضائيًا آتيا من كوكب بعيد لاحتل الأجساد.

لكنك لن تعرف أنني كائن عجوزٌ خلق من ذبذبة غير ذبذبتك، أبلغ من العمر سبعمائة عام بعد الألفين، تم طردني من مملكة الإله واستبعادني بدون محاكمة، شهدت وفاة آدم وزوجاته، وشهدت النسل يتصارع على سلطان الأراضي الشاسعة، ودون أن أتدخل قتل الأخ أخاه، ثم تولى ابن القتل الانتقام، عُرف أولًا باسم «حورس»، ثم تولى كتبة الأديان نسخ القصة وتغيير الاسم فيها مع كل زمان، دون أن ينسوا دوري المحوري ككوميبارس صامت... وها أنا الآن، مُلقى في جنة الوهم، بجوار شجرة الخلد المزعومة؛ شجرة التين، يأكلني الملل والوهن، ذبذباتي تتباطأ، ناري تخفت، أرتعش، إنها النهاية المنطقية، العمر الافتراضي، أعين الحيوانات باتت تُدركني. مُحاصرين، تكز على أنيابها ثم تنجراً فتنشب المخالب في صدري ولا تتخللني، أنا من الجان أيتها الوحوش الحمقاء، أنا زُرق النار، أطوح يدي في التنبؤ وأصرخ بأعلى صوتي فأسمع ضحكته، تتردد من وراء نافذته العتيقة، فذبذباته هي الأعلى بين قاطني الأرض، يشمت بي، بساذجتي، فقد طلبت منه يوماً أن يدعني حياً إلى يوم يُبعثون، تحديته أن يثبت قدرته على البعث، فأجاب يومها إجابة غامضة «أنت مُنظر إلى يوم الوقت المعلوم» لم أكن وقتها أغفل أنه سيفعلها حقاً، وبذلكائه العجيب المنفرد، ستركني حياً خالداً، في أدمتكم! عفريت، أما جسدي، فهي هو يبرد، يتشتت، مثل نيزك يخرق الغلاف الجوي فيحترق ولا يتبقى منه إلا الرماد....

وتلك كانت الخدعة التي استحقَّ عليها جائزة «أفضل إله».

.. ألسنتُ جديراً بدعائكم؟!

لن أعرف حقًا كم من الوقت قضيت في الغرفة «ألفا»...

غرفة التأمل، غرفة الخواء، اتخذ الأمر مني دقائق لا متوَعِبَ نَنِي أجلس حائِثًا في حديقة؛ حديقة الغيَلاء، على دكة خشبية ترى مجرى النهر الجاف، ليلاً، أرتدي بيجاما واسعة مريحة، وبالقرب مني قطعة عوراء تلحس يدها، نظرتُ للسَّماء، كانت في لون كلوت تاليا، وكان المَدَّنبُ يَخِرُّقُها، يتحرك ملليمترات، مما يعني ملايين الكيلومترات في الفضاء، ييث وراءه الزئبق والأمونيا وثاني أكسيد الكربون، ييث وراءه الجنون، أكاد أفقد عقلي من نقص الرسومات المعززة حول كل ما أراه، نقص المعلومة، صداع من الصمت أكثر من أجله على الضروس، أضحها، وإن كان شعور الأشر الإرادي له شهوة سرية في قببي، أمر صحي أن أعيش «منعولاً بي» لعدة أيام، متوافق مع الخدر الذي اعترى كل خلية في جسدي في حضرة إلهة الشَّعر الأحمر، هل أسمع مقطوعة شوبان تُعزف على البيانو؟ قبل أن أذهب السمع خرج طارق من بين الشجيرات، بابتسامة ودود جلس بجاني وأشعل السيجارة الملفوفة ذات الدخان الأخضر:

- أعتنى تكون مبسوط في الملاذا!

- مُستمتع لحد دلوقت، لولا خلع العدسة، ما كنتش أتخيل إني هاتعب كده بالمناصية.

- بكرة تحس بغربة لما تلبسها.

- أنا جيت هنا إزاي؟

- بعد الخروج من موجات ألفا والتأمل الطويل بيحصل تشوش بسيط في الذكريات القريبة، وصعوبة في إعادة تخليق الأفكار الملحة، إنت هنا من ثلاث ساعات.

أزعجتني الإجابة، أين كنت في تلك الساعات؟ سحبتُ يدي من جيبي فأدركت أني أقبض على قهاشة مبتلة؛ كلوت تاليا، أعدته إلى جيبي والتفت لطارق:

- هل سجلت نتائج تجربتك دي في ورق علمي؟

- مش هيسفيد منها غير اللي بيدور عليها.

- لكن أنا ما دورتش!

- مين قال لك؟

- أنا باخوض التجربة دي بناء على طلبك؛ تمن البيانو.

ضحك طارق:

- والمَدَّنب ده بيدور حولين الأرض عشان تتصور معاه! يا عزيزي، مفيش في الدنيا سُدف، الكون مش ممكن يساعد حد واقف ضد نفسه، رغم عدم الإتيان بتجربتي فيه شيء جواك طلب إنه يخوضها، فتوجهت لك من الكون دعوة شخصية.

- شيء جوايا!

- شغف، أو خوف مثلاً.

- أخاف من إيه؟

- التجربة هنا مش هدفها تعرف إنت خايف من إيه، التجربة هنا هتعودك تطفني مصدر ومُحرك الخوف فيك؛ عقلك.

- عقلي هو الإله إذا كان فيه إله.

- اللي بيمتد العقل شبه اللي غرقت سفينة وأنقذه لوح خشب، ففضل متعلق بيه لحد ما وصل جزيرة، وبعدين قرر يفضل طول عمره شايل اللوح على راسه. عقلك وسيلة، مش غاية، ومش إله، وأديك لمست لما انحدرت منه لساعات حصل إيه!

- حصل تخاريف.

- أو حقايق عقلك بيتعمد بخبيها عنك.

- ما أقدرش أنكر إن الأحلام إفراز مميز لفصليتنا، كل واحد فينا جواه كاتب روايات خيالية.

- طول ما عقلك متحكم هيومك إن أحلامك مجرد خيال أو تفرغ ليومك، ولما تصحبا يقتنعك إنك عارف حقيقتك بشكل كامل، رغم إن كل اللي تعرفه عن نفسك لا يتعدى انعكاس صورتك في عيون الناس حواليك، آراههم اللي بيجاملوك أو يهينوك بيها، صدقتي، اللاوعي أنشط من الوعي سبع مرات، الوعي بالنسبة له قمة جبل صغيرة فوق المحيط.

تغرغرت بهاء النار ثم علقت:

- أراهن إن الناس اللي بتزور الملاذ بتنبره بمصطلحات فرويد الرنانة دي، علم النفس القديم له هيبة.

ضحك طارق:

- المصطلحات ليها وقع مثير فعلاً، خاصة لما باقوها بصوت نحين.

- اللاوعي طفرة بتحارب العقل الواعي، زي ما أمراض المناعة بتجبر الجسم يحارب نفسه.

- بتسميها حرب، وبامميتها ثورة، العقل الواعي عمل انقلاب من ملايين السنين على الفطرة، سيطر على الإنسان ونشأ أهم ملكاته.

- وضع اليد قانون شرعي، والعقل هيفضل سيد الموقف لحد ما فكرة ثانية تنتصر.

- وإذا انتصر اللاوعي؟

ضحكتُ حتى تخرج صوتي، تابعتني طارق مبتسمًا حتى هدأت حشرجتي فأجبت:

- أنا آسف، فكّرنتي بمراتي، عايشة في عالم النجوم والأبراج، لسة مصدقة إن زحل لما يقترن بالمريخ بتقوم الحروب.

- غريب إن مراتك مؤمنة بالروحانيات، وانت بتنفي الإله!

- إحنا من كوكبين مختلفين؛ أنا من المريخ، وهي من الزهرة، زي ما قال الكتاب.

- المريخ بيخلق كائنات متوحشة.

- سلسلة غذائية؛ حتى أصغر وأضعف كائن بياكل كائن أقل منه.

- الأنا العليا عندك تشاف بالعين المجردة، العقل خلقها عشان تدافع عنه.

- لما تخرج من وهم الإله هتفهم.

ساد الصمت لحظات سحب فيها نفسًا من سيجارته ثم أردف:

- لكن واضح من كلامك إن حياتك الزوجية يعني...

أدّرت الدقة ناحية الشاطئ:

- مبسوط مع تاليا؟

هز رأسه في إيجاب بآله من العجوة:

- جدًا.

- راجل معطوط.

- حاسس إنك هربت من السؤال.

- أنا جاي عندك أستجم.

ابتسم: طبًا.

- هي تكلفة التجربة تقريبًا كام بيتكوين؟

- اللي بيمشي من الملاذ يسبب اللي يقدر عليه، أو ما يسبيش خالص.

- مفيش شيء من غير تمن، وأكيد مش كل الناس هتاخذ البيانوا!

- الفلوس بالنسبة لي مالهاش أي قيمة.

- إنت غني؟

- الغني مش بس فلوس، لكن صعب عقلك ينور وانت جعان أو محروم.

- وعنصري كيان.

ضحك:

- إطلافاً، اللي ما بيشبعش من الحياة، ما يقدرش يستغني عنها، بوذا كان ابن إمبراطور، أبوه الملك كان خايف عليه من الحقيقة، فأمر الحكماء يخفوا عنه فكرة الموت، غرقوه في التعيم؛ أكل وشرب، ونسوان، مفيش ألم ومفيش خوف، لحد ما شبع، وفي يوم نزل في موكبه، ولمح بالصدفة منظر غريب أول مرة يشوفه؛ رجل عجوز مريض، اتصدم بوذا، ومن اليوم ده حياته اتغيرت، ساب القصر والملك وهام في الشوارع يدور على الحقيقة، لو ما كانش شبع، ما كانش عمره اتغير.

- منطق.

- والعكس صحيح، هات إنسان، جوعه واحرمه من الجنس والفلوس، وشوف حياته هتكون عاملة إزاي، يستحيل يبطل تفكير في اللي اتحرم منه، يستحيل عقله ينور.

- إنت بوذي؟

- دي مجرد أسماء، حاليًا أنا بقيت زي الشجرة دي - وأشار إلى شجرة التين البنغالي - شاهد صامت على الدنيا، وباستمتع.

تأملت الشجرة وأحجمت عن الجدال العقيم، فالرجل يتحدث بلغة انقضت، ساد الصمت للحظات قبل أن تقطعه تاليا، أتت حاملة بين يديها دوسيتها ورقياً، ناولته لطارق ففتحه وأطلع عليه ثم ناوله لي:

- روتين.

قرأت السطور، كانت صيغة إقرار لكل من يدخل المرحلة ثيتا، ديباجة قوانين من وضع الحكومة، مشيت بعيتي سريعاً فقرأت:

«في حالة الدخول في المرحلة «ثيتا» فالملاذ غير مسئول عن «التبعات النفسية أو الجسدية» التي تلي انتهاء التجربة، على أن يلتزم الملاذ بعرض الشروط والأحكام الخاصة بالتجربة على المشترك قبل بدء التجربة: مهم.. في حالة التسمم الغذائي.. مهم.. في حالة انتهاء المشترك من التجربة تتم متابعته لمدة أربع جلسات وكتابة تقرير عن

صحته...مم... ولترحل «تاليا» مع المُشترك لقضاء شهر عسل في جُزر الكاريبي اطمئننا على صحته.

البند الأخير كان اقترًا يدور في رأسي، نظرت لطارق بعينين ضيقتين:

- على حد علمي التجربة ما فيها ش خطورة!

ابتسم: تسديد خانات حكومية.

وناولتني تاليا قلبًا فوقعت باسمي.

- مضطر أستاذك، متعود أنا بدري، لو احتجت حاجة هادي في خدمتك.

قالها طارق ورحل، تاركًا تاليا في الحديقة بجاني!

لطالما استغربت ذلك التصرف العجيب من الذكور المقترنين، سواء المُقدرون لكنوزهم أو الغافلون، أتركون غزلانكم في المرعى المفتوح؟ في مهب الريح وسط العشب الداني؟ ألا تعلمون أن المفترسين دائبًا بالجوار؟ سيهاجم في وجوههم من أثر الصيد، يتسمون في وداعة طفل وهم يتربصون!

ثم أدركت بعد تأمل، أن نظرية داروين كما أن لها مزايا في فهم الإنسان كنوع، فلها مَضار، سقوطنا من فوق عرش «أحسن الخلق» إلى أرض الغابة بين الفصائل، غالبًا ما يبعث في الإنسان غرائز لتوحش، ببعتها من أعمق أعماق تلافيف المخ، من مركز ذاكرة الوعي الجمعي الذي خزنته الإنسان في جيناته منذ خرج من الماء يومًا، ميراث الأجداد، التجارب والخبرات التي جعلت من بعض الرجال كائنات متوحشة متفوقة، ومن البعض الآخر ثدييات، وما أشعر به اكتشف مؤخرًا أنه إحساس خاص، فليس لكل الرجال أنياب وغالب، وللأسف، ففي تصميم أعين الفهود عيب خلقي خطير، فهم يظنون أن كل ذكر في محيطهم، فهد مثلهم يتربص بالغزلان، لم يعلموا أن بعض الذكور، ذكور في البطقة، وأن نقديس الأنثى واستحقاقها لكلمة «لحم مقدس» قبل تنبئها ووضعها على المذبح، نيس من خواص جيناتهم، لكنني أعذرهم. فحين أنذكر مربية. أنذكر أبي تركتها في الغابة منذ عقد، تركتها مربوطة في شجرة وفي رقبته جرح يسيل دماء، فهناك شعرة بين الثقة، وعدم الاكتراث، لا أنكر أبي نهشت يومًا بعض الزواحف الذين اشتَموا منها إفرازات هَجْري فحاموا حولها، ففي النهاية الدفاع عن الأرض كرامة، حتى وإن لم نحرثها، مثل قياس ضغط الدم في عقلي للتو انفجر...

واجب قومي...

واستوت الغزال بجاني، تغمش بأصابع قدميها العشب ومؤخرة رأسي، تعكس بشرتها نور القمر المكتمل، وهي القمر المكتمل، لم أشأ قطع الصمت لولا ذلك النبض الذي اعتراني، هز صدري والشجر من حولنا، مددت يدي في جيبي وأخرجت كسوتها السفلية، رفعتها إلى أنفي وتنشأت رائحة تعتقت وتحطت نسبة الكحول فيها ٩٠٪:

- نسيب ده معايا.. بالمناسبة ريحك زي ما تخيلت.

- أنا ما بنساش حاجة.. احتفظ بيه تذكاري.

- كأنك محبوسة في الملاذ، كأي مش هاشوفك تاني.

- وانت عاوز تشوفني ليه؟

- بطلت أفكر من بدري في الأسباب، أنا بامشي ورا إحساسي، مش عيب أعترف إنني شايفك.. إلهة.

- إنت مش مؤمن بالرب!

- ممكن تساعديني؟

- أقدر أعمل إيه؟

- مبدئيًا ممكن تنامي معايا.

ساد الصمت، نظرت في عينيها للحظات حتى لمست لمعة واتساعًا في الحديقتين...

هناك طريقتان لصيد الغزلان، إما أن تدعو إهلك أن يُدللها لك فتظفر بها..

وإما أن تحتطفها ثم تدعوه ليغفر لك.

من نظريات صيد الغزلان

قُبِّلها دون استئذان، ببطء، راع زاوية الوصول إلى شفتيها حتى لا يبتك الأنفان، ولا تستعمل لسانك، أبقه عزيزاً في فمك إلى حين، وإن بدت رعشة في جبينها فلا تعتذر، هل سمعت عن صياد يعتذر عن قصصه؟ فقط ترقب عينيها جيداً؛ اللمعة دليل سريان الرحيق في شرايينها ورضاها عن جراءة عبورك أسوارها بلا تنويه.



بلا مقدمات وكما قالت النظريات اقتربت، ببطء، لثمت، شربت، مسحت أسنانها، ثم أذنها، ابتلعت فردة حلق، أخرجت جميعتها من فمها، لحستها، أعدتها مكانها، اختلس بطرف العين نافذة انطقات شموعها، وبالعطف الآخر مُدْبِئاً بجماكي الوهج الصادر من تاليا. بفشل، قامت، لفت وركيها حولي وجلست، ساخنة تلفح، ترمي بَشَرَّ، أحاطت وجهي بيديها، نظرت في عيني للحظات ثم انهالت على فمي تقبيلًا، شعرها ينساب كشجرة أم الشعور الحمراء، تحيط فروعها برأسينا لتخفيانا عن المذنب، خصلاتها تخمش جبهتي، عنقي، وتتلوى خلف عَجْرِي عيني بحثًا عن الروح، دقائق لم أحصها، ورباً ساعات، فتدث أنزمن، و٧٧٪ من الوعي. لم أدِر متى حملتها، ومتى طرحتها على العشب، متى شلحت رداءها، متى مزقته استعجالاً ولهفة، ومتى شرعت في التهامها، طعنتها بلساني عدة طعنات حتى أصدرت صرخات مكتومة واشتعل العشب من تحتها. بركاناً أبيض، قبل أن تدفعني وتصعد، قماوجت وترجرت، تروض حصاناً برياً عاصياً، تغرزي في الأرض، تزرعني وتزر الرحيق المسكر، عصارة تقطير ألف غزاة في إناء من المرمر الأبيض، خلاصة النوان، إن كان لتطور الأنثى قمة فقد غرست تاليا علماً أبيض يشبه علم اليابان، تتوسطه ثمرة فراولة، علم من أجله يقطع «فان جوخ» أذنه الأخرى، ويقتلع عيني، فبعض النساء ليس لهن عظام، وبعضهن قد تقنع مُدْبِئاً بالدوران حول حلقاتها...

أما النظر للسماء فيما يعتلي خصر الغزاة فكما أن له مزايا، فله عيوب؛ استشعر أن النجوم تومض من أجلك، ستظن أن أوراق الشجر ترمقك، وسيخيل إليك أن المذنب غير اتجاهه ليسقط فوقك، لكنك ستأكد، أن نافذة غرفة السفرة التي انطقات شموعها منذ قليل، يقف من ورائها شيخٌ رجلٌ وسيم يتأملك! مستبس، وستسري الكهرياء دفعة واحدة من صدرك إلى أخمص قدميك، وسيسري التنميل في وجهك، والبرودة في أطرافك مع تعرُّق مفاجئ، ثم يراودك التفاؤل، لكسر من الثانية «ربما لا يراني، وربما الضلام متواطئ معي»، ثم تقوم بغتة قابضاً بأنيابك على عتق فريستك الساخنة، تحرها خلف شجرة أو ترفعها فوق جذع عالٍ، ألقيتها وراء الشجيرات واختلست النظر للنافذة من بين الأوراق، الفهد المنافس رابض، يضع يديه في جيبه بثقة، ينظر نحوي في ثبات، والغريسة التي ألقيتها منذ قليل خامدة هامدة مرخية المفاصل، حلمتها مفقودتان بين عشب الحديقة، ودماؤها تغطي فمي وذقتي وصدرتي...

تنف من خلعه!!

من المفيد لصحتك - خصوصاً عضلات الظهر والفخذين - أن تمارس الجنس في الخلاء ليلاً، على شاطئ بحر، في حمام سباحة، تحت شجرة في حديقة، أو حتى في سيارة تسير بسرعة ٤٢١ كم/س. مارسه بحب، بإتقان وشغف، ولا تنس، الأنثى مازوخية المزاج، تعشق الألم أحياناً، فخرش، برفق، واصفع حين تطلب، أو حتى لو لم تطلب، وإذا أمكن، فاستمعاً إلى موسيقى، تحركاً مع الـ «Beat»، فالإيلاج المنتظم تحت ضوء القمر يصعد بالغزلان إلى طبقات الجو العليا، فالحظات الجنس هي اللحظات الوحيدة التي تنطفئ فيها محركات المخ، لا «وعي»، ولا «لاوعي». صمت فضائي خالي من الكواكب، فقط أنت وغزالتك، وقانون الجاذبية، وبُركان من النشوة.

اتخذ الأمر لحظات لاستوعب، ولم أستوعب.. تاليا بجوار طارق! خلف النافذة، يرمقاني!

التفت خلفي بهدوء ولم أجد إلا حديقة الملاذ، وادي النيل الجاف، والقطة العوراء التي تلعق يدها...

«بعد الخروج من موجات ألفا والتأمل الطويل يحصل تنوش «بسيطة» في الذكريات القريبة، وصعوبة في إعادة تخليق الأفكار الملحة».

قال المفكر الأمريكي «هنري لويس منكن» يوماً:

«لكل مشكلة معقدة إجابة واضحة وبسيطة.. وخطأ».

موجات الغرفة «ألفا» يتلاعب بي!

فقدت الإحساس بالزمن فتداخلت خيالات حاضري القادمة عن الشيطان وذكريات طفولتي مع الوعي الحقيقي!

طارق وتاليا يتلاعبان بي!

فالسخرية من المُلحد ريمة من سمات المؤمنين، صانعي الآلهة المُتيمين بتقديس «القَدَر» المكتوب مسبقاً بأقلام ها صرير.

المذنب يتلاعب بي!

الزئبق والأمونيا وثاني أكسيد الكربون خليط له تأثير الهيروين والكحول معاً.

أو أن الشيطان «نكاح البشر» يتلاعب بي!

لم يمت تحت شجرة الخلد، ولم يحترق مثل النيازك، هو بالفعل حصل على الخلود، بات مُنْظَرًا إلى يوم البعث، ومن النفاهة بمكان أن يُكرس خلوده «يأساً من الرحمة» لدفعنا إلى ولوج الحُثُمات بالقدم اليسرى وتنف الحواجب وحلق اللحن حتى نستحق الجحيم بجدارة.. أعود بالله.

تابعت النافذة حتى توارى خيف الستار. أنا مرتد بنصوني، كلوت تاليا ليس في جيبى. القطة ما رأت تحس يدها وتظفرني بعينها الوحيدة، أوراق الشجر تراقبني والمذنب تزحزح بضعة ملليمترات، تركت الحديقة ودخلت الفيلا، هادي العجوز يجلس على كرسيه في

سكون، تمثال خشبي عارٍ مُترهل الكرش، اقتربت منه فلم يُعرني انتباهًا.

- هادي!

جفتاه اتخذًا لحظات حتى رمشا فعاجلته:

- هيّ تاليا فين؟

أشار بسابته إلى أعلى ولم يتكلم.

- يعني طُلعت قدامك دلوقت؟

مز رأسه إيجابًا فأضفت: مع طارق؟

مز رأسه ثانية.. كان ذلك كافيًا ليضرب الجنون رأسي، فما اختبرته في الأيام الماضية لم أقابله في حياتي رغم ممارستي الخروج عن السيطرة باحترافية، صوت بداخلي يوصي بالرحيل عن تلك الفيلا العجيبة، وصوت آخر يعارض، فمن العار أن تترك في البرية غزالًا يطلب النهش، ومن العار أن انسحب أمام متلاعب بالرهوس بعدما تحدّثُ الإله نفسه، أعظم كينونة غائبة بلا عذر مقنع، الصديق الخيالي للبالغين قبل الأطفال، أنتظره في منتصف المسرح الروماني كل محاضرة، أترقب ظهوره وسط موكب ملائكة، والألتراس المغنيين من البشر، لم أستطع الهروب من تصور لحيته البيضاء ذات الهيبة، وحُرْبته الذهبية أو الصاعق، لكنه لم يحضر يومًا، ولم يعترض كلماتي برسالة، ربما يعتمد تجهلي لإحراجي أمام الفصيلة، أو لعله خارج نطاق الخدمة، اللعنة على شبكات الاتصال، ضعيفة، تنقطع منذ أربعة مليارات سنة...

طارق، لن أترك لك متعة مراقبتي من نافذتك العالية، لن أترك لك تمثيل دور الإله، سأصعد إلى غرفتي الآن، وسأنام، للذة سأحاول. وغدًا، سأخوض المرحلة الأخيرة من تجربتك: الموجة ثبّت، وبمجرد الانتهاء، سأتركك تُتململه أخزي والحنجل، وتُتخبط ثوبك الممزق، سأخذ البيانو، وستبعتني غزالتك، فالبقاء دائمًا وأبدًا سيظل.. للمفترس.

اليوم التالي.

الاستيقاظ كان صدمة سيارة نقل في حائط إسمنتي بسرعة الضوء، حشرة بلغة مبهمه، ذراع انهرست من تحتي، أجفان تلاصقت، ومخ ضاقت به جمجمة صغر مقاسها، حاولت جاهداً تذكر وصولي إلى الغرفة؛ فتحتي للباب، لمس المخدة، وآخر ما تذكرته كان محادثتي «ذات الجانب الواحد» مع العجوز العاري البطي «غريب الأطوار، ثم صعودي سلالم دائرية لانهاية أفضت إلى ثقب أسود...

جلست على السرير بمعاناة حقيقية، تأملت رسم المرأة السمكة في السقف للمرة السبعين، أكاد أجزم أن تلك الأنثى ابتسمت للحفنة. ثم أحصيت أصابع قدمي. كم هي. أربع عشرة إصبعاً، فركت عيني ثم قنحت النافذة بوهن بلغ أشده طنباً للهواء. فحساء السلاحف الذي أحسبته منذ جئت الملاذ يساعد على صفاء الذهن، لكنه بالتأكيد يؤدي للضعف الجنسي، نظرت لفروع شجرة التين المتشعبة، شجرة الخند، ثم التفتت لثمرة، قضمتها لعلّي أخد، نعلي أنرت بصحبة حواء إلى الأرض، كان ذلك حين انفتحت أدبي صلصنة مفتاح نحاسية عتيقة، سلسلة المانة مفتاح، سلسلة السجان، خطواته الثقيلة، الوائقة، لحظات وفتح طارق الباب بابتسامة عريضة:

- صباح الخير، شكلك ما نمتش!

- سهرت شوية في الجنية إمبراح، الجو كان حلو.

- كنت باصص ناحية شبكي فوق العشر دقائق!

- انعقد لساني دقيقة حتى أسمعني:

- كنت مرحان، تأثير الشورية...

- الشورية أعشاب بحرية، آيا كان الي بتحس بيه فهو أعراض طبيعية لنشاط العقل اللاواعي.

- املوسة أعراض طبيعية؟!

- املوسة بتحصل نتيجة الصمت المفاجي.

- بسبب خلع العدسة؟

- مش بس العدسة، إطلاق سراح أحلامك يشبه إطلاق وحوش محبوسة، ورجوعك للإيقاع الأصلي فجأة مُربك جداً منها، حاولت تنزن، لأننا فقدنا القدرة على الاستمتاع، بتخاف نفرد بنفسنا، وبتخاف من الي جاي، فبتضيع الوقت في التحضير للمستقبل وتخطيطه. بنشغل نفسنا بالمشاكل والأفكار والأحقاد والمفردات بشكل دائم، عشان ما نفكرش إن نوحدا، فبتضيع متعة الحاضر، ونجتر ماضي ما بتقدرش نغير فيه حاجة.

نظرت إليه لدقيقة وآثرت عدم الاسترسال خوفاً من الخوض فيما حدث ليلة أمس، أو ما لم يحدث بمعنى أدق، فأنا لا أعرف ما قد أنفوه به أثناء الملوسة إن حلت. ابتسمت، ثم طلبت الاستحمام.

بالخام الحجري وحين خلعت ملابسي تفحصت لباسي الداخلي، كان به بقع شفافة مائلة للأبيض! نقاط الشبق، لقد تعرضت أمس للفتحة ساخنة، في الخديقة مع تاليا، أو في رأسي، لن أعرف، تركت المياه تتدفق عليّ حتى انطفأ العالم، أخير له سحر لا يدركه إلا من أرقته الأفكار، لا أدري كم قضيت لكني انتهيت، رفضت طبق شوربة الطحالب المريب واكتفيت بزجاجة مياه مغلقة، قبل أن أتنع طارق إلى غرفة الموجة ثيئاً! آخر مراحل ملاذه العجيب، وبغياض مخيف لصاحبة الشعر الأحمر.

دسّ طارق المفتاح النحاسي في الباب، وأضاء النور الأحمر، الكرسي الجلدي العجيب يتوسط الغرفة، فوقه القبتان المعدنيتان المضاءتان بالنور البنفسجي المتوهج، ومن ورائه الصندوق الخشبي الكبير، ابتسم طارق بأسنان متساوية مستفزّة، ثم طلب مني الجلوس فجلست، على برميل من التحفز:

- دي المرحلة الأخيرة، المرحلة التي ينمشي فيها على جمر النار ما بتتحرقش، بنراقب العالم من فوق قمة جبل، بنشوف الحلم وهو بيتكون، بنحس بخلايانا وهي بتحك في بعضها، وبنتسمع أصوات من السماء، بنطأ موجات الدماغ خد أربعة هرتز، مقيش غياب عن الوعي، هتبقى حاسس بكل شيء في المكان، وسامع كل الأصوات، أنا هاكون معاك، هاسألك وهتجاوب، المهم، ما تقاومش.

- ما أقاومش إيه بالضبط؟

- ذكرياتك إذا شقتها.

- إنت بتعمل «Past Life Regression Hypnosis»؟ (*****)

- دي المرحلة الأولى من التجربة.

- عم... أوكيه!!

- لمس استخفا في فأردف:

- أقول لك على سر؟ بتكون مُتعة ليّ إن الي غيوض التجربة ما يكونش مصدق.

- أنا مُتحمس، رغم إن خيال الإنسان أقوى من أعظم الأفلام، الحل الوحيد عشان تخرج منه إنك تستوعب إنك صنعتك بنفسك.

- أو نلاقى زرار تقدر نطفه.

قالها وابتعد إلى ركن الغرفة، عبث بمؤشرات جهاز موصول بالقيتين التين تطللاني، فانبعثت الموجة ثيئاً، سريعة منتظمة لها رنين أعمق تأثيراً من الموجتين السابقتين، ثم التقط عليه صغيرة من فوق منضدة، أخرج منها إبرة سوداء صغيرة لا تتخطى طول بوصة، أشبه بالإبر الصينية، مع فارق النهاية؛ دائرة حلزونية لئها بين راحتيه في حركة منتظمة ثم قال:

- سبب نفسك لتنيار، فك عضلاتك، ارخ فكك، وانتفس من بطنك، أنفاس طويلة منتظمة، انخض من «الآن»، انخض من اسمك، نسه، اسمك هو الاسم الي قرره أبوك وأمك، وحاول تبطل تفكير، وإذا شفت مشهد ضيقك، ما تعاوش تعتبره خيالك الواسع، لأن من دلوقت...

وباعد ما بين حاجبي بسبابته وإبهامه قبل أن يقرز الإبرة ببساطة في المسافة بينهما:

- إنت غير قادر على التخيل الذاتي، الاختلاق أو الكذب.

الشكّة لم تستوجب سوى قشعريرة بسيطة ألّت بجبهتي جعلتني أضحك لا إرادياً:

- بتضحك على إيه؟ (سأل طارق).

- إني غير قادر على التخيل الذاتي، الاختلاق أو الكذب!

ابتسم طارق: بس دي حقيقة.

طال الصمت حتى ضحكك ثانية فأردف:

- تحب تحرب؟

- أرجوك.

ذلك جبينه بحثاً عن سؤال أعجز عن اختلاق إجابته ثم ابتسم:

- مثلاً.. كنت بتعمل إيه في الجنينة إمبراح؟

فتحت فمي لتسلي منه الحبيكات والتبريرات المعتادة، معجونة بيدي، فوق دولا ب فخار يدور حول نفسه بسرعة الضوء، فبجانِب كوني دارساً لعلم النفس التطوري والبيولوجيا على الطريقة الداروينية، فأنا فخار عترف، أصنع الأكاذيب منذ دخل دين الغزلان قلبي، وأمارس طقوس وشعائر الصيد بآليات القديسين، أحج من أجلهن إلى الغابات المقدسة، وأرسمهن على الحوائط حين أعود بجانِب البواخر والجبال والطائرات، شعاري أنا ما يحدث في موسم الصيد يبقى في موسم الصيد.

لكن عينيّ الآن ترمشان بعصية!

وفي مفتوح نبيت كيف أغلقه، ولا أسمع في أذني إلا صفارة طويلة، صفارة قلب توقف، صفارة نهاية مباراة، صفارة مستغيث

تحت عمارة انهدمت: ابتلعْتُ ريتي ونشع العرق على جبيني، باردًا كماء المطر، أقاوم الإجابة لأن الخيارات أصبحت محدودة ما بين مراودتي غزالتك وبين نجاحي في استخلاصها منك. ابتسم طارق ثم ربت على كتفي:

- هوّن على نفسك، دي تجربة عشان تفهم الفكرة.

قاومت الحذر الذي يغزو جبهتي وإن لم أجرؤ على لمس الإبرة أو نزعها، اتخذ الأمر مني دقيقة لأنأكد مما سأنتوه به:

- أأ مش متعود حد يتحكم في أو يرسم لي قدري.

- المستوى ده مفهوش اختيار، حاول تستمتع، الإبرة دي بتقلل مسار طاقة في مركز تكوين الكذب في المخ، نفس مركز خلق الحكايات والأوهام، عشان أضمن لك التجربة تتحقق بشكل سليم.

ثم أشار للقبّتين:

- الأجهزة هتقرأ الموجة الصادرة من مركز الذاكرة، الـHippocampus، هتعالجها وتكثفها في الصندوق ده.

- إنت نصاب.

خرجت مني لا إرادياً، فازددت ارتباكًا: أنا.. آسف.

ضحك طارق بصوت عالٍ ثم غمزني:

- نسيت أقولك إن المجاملة نوع من أنواع الكذب، مفيش حد بيدخل الأوضة دي ويبيكون مصدق، عامة أنا يكفيني لما تخوض التجربة وتكتشف إنك قدام حقيقة علمية، إنك تعترف بيها، حتى لو كانت عكس قناعاتك، ما تسمحش للأنس العلياً لبروفيسور البيولوجي تسد عليك طريق الحقيقة، ده شرطي الوحيد عشان نتم الاتفاق، موافق؟

- موافق.

ورسمت الابتسامة، فالأنا ليست علياً يا دَكر الغزالة، إنها هي خريشات الخبرة وإقصائي لإلهك وإله آبائك الأولين من المعادلة، مما جعلني كياناً من المستحيل إقناعه دون دليل، كياناً صعب أن ينهر، لكن لذة مشاهدة ساحر يلعب بالورق ويخفي الأرب في القبعة ستظل تجربة مثيرة، حتى وإن لمحت أذن الأرب تطل من كتمه، هذا بالإضافة إلى أن الجائزة لا تُقدر بهال! بيانو شوبان الأصلي ومن فوقه نوع جديد من الغزلان نزل إلى الأسواق بعد الإنسان العاقل والأنثى المتزوجة، عرض خاص لمدة محدودة.

الصندوق وحين دقت النظر كان له ثقبان، أخرج طارق سلسلته وسلت منها مفتاحين لها وأمان يكملان مع بعضهما البعض شكل مفتاح صول الموسيقى، دس المفتاح الأول وأداره فلم يفتح الصندوق، فوضع الثاني في الثقب بجانبه وأداره في الاتجاه العكسي فافتتح الصندوق بتكة عالية، وكن ذريعاً، أرادي أن أراه من لداخل ككل ساحر يخفي الأرب في قبعة، ثم أغلقه ووضع أحد المفتاحين في كفي:

- الصندوق ما بيتفتحش غير بالمفتاحين مع بعض، ويعمل تكة عالية، المفتاح ده معاك وده معايا.

دسست المفتاح في جبتي ووضعت رأسي على المسند الخلفي مراقباً حلزون الإبرة الذي سبّب لي حولاً تدريجياً، جذب طارق ذراعاً أسفل الكرسي فإل جسدني للوراء بزاوية ٣٠ درجة، ثم سحب كرسيّاً صغيراً وجلس قرب رأسي:

- ثبت عينيك على النقطة البيضاء المنورة في القبعة، وهند من خمسين لواحد، وبعدين نغمض.

بدأت العد التنازلي: خمسين، تسعة وأربعين، ثمانية وأربعين، سبعة وأربعين... انابت عينيّ غشاوة خفيفة، سحابة عابرة ظننتها في البداية دموع التركيز. أربعة وثلاثين... قبل أن تزداد بياضاً مع نزول الأرقام، سيعتاشر، النقطة البيضاء تصير قمراً مكتملاً، ستأشر، تفاصيل الغرفة تخفت، تتداخل، اللون الأحمر يصير قرمزيّاً، عشرة، يتحول للأسود، سبعة، ستة، النقطة البيضاء باتت شمساً، اثنين... واحد....

ظلام دامس...

أغمضت عينيّ فشعرت بالهبوط، سقوط ناعم، دفن بطيء، كرسي يتضخم وجسد يتقلص، موجات ثبات تنبض في أذنيّ وتعلو، قطار يعبر بحثب نافذة قطري فيهر كيان، لا سبب بمعني من فتح عينيّ، وأنت سبب بتنعني بعدم فتحها، أنت سبب لا أنذكر منها إلا شغف التجربة، بالإضافة لذلك الحذر اللذيذ الذي يتغلغل في جبهتي، أصابع ناعمة تُدلك عقلي، تُدغدغي وتمشط ثانياً المخ بمشط واسع الأستان، كان ذلك حين تردد صوت طارق، بدا عميقاً، كأنه يتحدث من داخل جمجمتي:

- شايف المذنب؟

لم أجه، انشغلت بأذني التي تعطلت، والفضاء الذي اتسع من حولي بغتة، فراغ أسود لانهاضي تناثرت فيه النجوم، يشق المذنب خلاله طريقاً نحو الشرق، لأول مرة أراه بذلك القرب؛ صخوراً تقور، تغلي وتفتت، تنفث الأمونيا والزئبق، وأطرافاً زرقاء رائقة وغباراً، أنا أقف على طريقه ولا حيلة، أستشعر برذاً يحمش جلدي ويتسلل إلى ضلوعي، ثم التقطت أذناي زيجرته، موجات تشبه موجات ثبات، وهسيس مقطوعة شوبان الباندة، اقترابه له سحر زاد التمثيل في جبهتي. أنا، ولن أستعيد من كلمة أنا، رائد الفضاء الهام في الفراغ الأسود، والعبد المذموم من سحن الإله، يبقيا جتريزي رسغي، وبدلة فضائية متهرة، دون خوذة، دون أكسجين، دون شورية ضحلب، ودون عيني الثالثة؛ عدستي التي من دونها ضللت الطريق إلى مجرتي؛ درب الثبات التي رأى القدماء فيها طريقاً مفروشاً بالثين، ورأوا المذنب نذير بمر بعثاني الآن سوطاً للإله، يُصدر قرقعات الإنذار والتخويف، ويشق وراءه طريقاً من الشغف، ودون أن أنوي، جرفتنني جاذبيته، سحبتني كموجة في بحر هنج وأدارت جسدي بشكل سرمدي لن تهدأ سرعته، سفرت ملايين الكيلومترات حتى شاب شعري وظالت أظافري مرّاء، كان ذلك حين سمعت صوت طارق، وما قاله رأيتُه بعينيّ يحدث، كأنه يحرق أحداث فيلم شاهده من قبل:

- الموجة اللي جرفتك بيطلع منها دوامات ملونة، سبع ألوان: الموجة الأولى لونها أحمر، بتقرب، بتخترق جسمك، آخر ضهرك، منفطة الجذر، العضص. بتعدي منها وتنقيها من الشوائب. إحساس مريح، استرخاء، التنفس أصبح أحسن، حاسة الشم بترجع لأصلها اللي اتخلقت عليه، تقدر تشم من على بُعد ميل.

وبدأت أولى علامات السحر؛ رائحة شجرة التين البنغالية في الحديقة تضرب أنفي! وبالطبع رائحة تاليا المعتقة، أردف طارق:

- ومن الموجة اللي بتدور في فلكها بتطلع دوامة جديدة، لوها برتقالي، بتخترق المسافة اللي تحت سُرتك؛ منطقة الجنس، بتنقي الشوايب، طاقة الحب عندك مثالية، مفيش حقد، مفيش أنانية، مفيش طمع.

وتوالى الألوان في الخروج من ذيل المذئب، تتزامن في ترتيبها مع صوت طارق، يُملئ عليّ ما أتخيله، الموجة الصفراء، موجة الخزيمة الشمسية تخترق بطني، تخفف التوتر والألم، والعجيب أنني شعرت بدفء في معدتي وسكون، تلاها موجة خضراء، اخترقت القلب كعود نعناع يزد، غسلت حزناً لا أعرف له سبباً، وشرحت صدري، ثم موجة زرقاء، اخترقت حنجرتي، أطفأت الألم العام كبنج قبل عملية زرع رأس، بثت الصمت بين خلايا جسدي وأمرتها بعدم الاحتكاك ببعضها البعض، ثم موجة سادسة، اخترقت جبهتي، في موضع الإبرة الحزنونية، أحرقت ما تبقى من الأفكار وتركت العقل في حلة سلام بعد حرب دامت ثلاثة وأربعين عاماً، وأخيراً اخترقت أعلى رأسي موجة بنفسجية لها رائحة التوت الأسود، مسحت مجتمتي كمقصلة مشحونة، أزالَت العظام ليداعب الهواء البارد أعلى عُنِي، ليعلو صوت طارق بفتة في الفراغ، بموجات رأتها عيناى:

- الموجات غسلت جسمك، السواد اللي حواليك ده خرج منك، ومن ملايين الناس اللي قروا يعيشوا حياة ثانية يكفروا بيها عن حياتهم الأولى، دنوقت إنت صافي زي نقطة مية عابمة في الفضاء، حر، مفيش هدف، مفيش تهديد، ماشي على هذّي الإله الخالق، بتقرب من مجرة بعيدة، إوصفها لما تشوفها.

المجرة تلوح عن بُعد، غزالة متوهجة تلوي عنقها إلى أعلى في دلال، أطرافها تفور بألوان الطيف، المذئب يتدفع نحوها، يدور حولها بسرعة هدنة، ثم يتقني مثلما يتقني النور برأيه، جسدي يهوي إليها بسرعة الضوء، نفس سرعة سقوطي بين فخذتي أنني، أتجاوز ضباب السُدم وكُسارة الشهب، ليأسرني كوكب أخضر، ميزت عيناى العشب والأشجار في سطحه، وقلعة حجرية عتيقة مبنية بالحجر، أهوي نحو باحتها، تجاه بئر كبيرة فوهتها واسعة، أتجاوز جذرانها وبالكاد أتفادى الارتطام بالأحجار، ثم أستقر بهدوء ريشة على أرض رطبة...

- شايف السلام؟ (سأل طارق).

- شايف.

كنت أنطلع لسلم حجري على مسافة أمتار، يهبط إلى أسفل، تنبعث منه إضاءة مريحة للنفس.

- هتنزل السلام، واحد وعشرين درجة، احك لي شايف إيه.

- سلام منورة بالشمع، في آخرها طرقة طويلة.

- في آخرها باب، إوصفه.

كنت بالفعل أصف مشهداً يحدث أمامي:

- باب ضخّم، خشب ولّيه مقابض حديد.

- قرب، افتح.

رأيت نفسي أقرب، يداى تدفعان باباً رغم الثقل انفتح.

- فيه قدامك ضباب أبيض.

- حقيقي، بس أنا مش شايف حاجة.

- دقائق والضباب هيختفي، وهتبتدي تشوف تفاصيل، ابدأ بأنك تبص لتحت، لرجليك، وقول لي شايف إيه.

نظرت إلى أسفل وانتظرت، لحظات وظهرت قدماي، أفق على أرض حجرية بحذاء مدب من الجلد الأسود الملفوف حول ساقين، ساقين مُشعرتين!

- لحظة، دي مش رجلي.

- احك لي شايف إيه.

لدقيقة كاملة لم أستطع رفع عينيّ عن أطراف قدمين طويلتين ومُتسختين تحت رُكبتين نحيلتين مليّتين بالجروح والخدوش، فوقها رداء جلدي ذو شرائط تتدلى على الفخذ. لحظات وأدركت ذراعي، نحيلة لكنها صلبة، نافرة الأوردة ومُشعرة يكسوها العرق، أحمل في كفي قضيباً حديدياً خشناً في طول السيف، كان ذلك قبل أن أنفصل عن نفسي، ابتعدت للمسافة التي بيني وبين امرأة، أتأمل شخصاً يُشبهني، توأم يفرق بيننا التحول والإرهاق، يفرق بيننا الزمن.

- تقدر توصف نفسك؟

- لابس خوذة، لأمش خوذة، حاجة زي طاقة جلد نازل منها حزام على المناخير، ودقني طويلة جداً.

- الزمن، تقدر تتخيل إمتى؟

تأملت طراز الجلد الذي يرتديه والبيوت التي ظهرت من خلفه بعد انقشاع الضباب ثم لمحت المذئب، يقطع السماء بسكين يتجه للشرق:

- أعتقد الزمن.. رومانى، والمذئب موجود!

- تقدر تعرف اسم الشخص؟

- سيرجيوس! أول ما سألت الاسم سمعته جوايا.

- والشخص ده حالته إيه؟ أوصف لي.

- عينيه مبرّقة، خايف، مفزوع.

- ليه؟

- يبصر على حاجة بعيدة.

الثفتُ خلقي لأرى ما يفرع شيبه، كان يحدق في غبار بعيد يأتي من خلف جبل ويستمع لأصداء معركة تدور.

- ممكن نعرف هو شغال إيه؟

وكان السؤال إبدأنا بنهاية اللحظة، دون مونتاج، دون قطع سلس، انتقلتُ إلى مكان آخر، الدخان مازال هائلاً في الأجواء، يُخفي تفاصيل الوجوه، والموقع قرب معركة دائرة، تعالي الصراخ وازدادت الفوضى، الناس يركضون في فزع حاملين بين أيديهم المؤن والأطفال الرُضع وصنّاباً خشبية، وسيفاً. مثل السيف الذي أضعه الآن في الموقد، كان قضيباً حديدياً خشباً منذ قليل قبل أن أُنْفَخ من تحته النار ثم أُضرب عليه بمطرقة ثقيلة حتى يستوي ويعتدل، ضربة على السيف ونظرة للمعركة، في قلبي حقيقة تتردد «ما أنا إلا صانع سيوف مغلوب على أمري، حدّاد وليست تلك معركتي، وإن حانت لحظة الالتحام الجسدي سأقتل لا محالة؛ فأنا لا أقوى على الحرب!»

وانشعب دخان المعركة، بغتة، خرجت سليماً رغم القذارة وخدوش الطُّرُق على الحديد، أسير في طريق ضيق متختم بأهل المدينة، يُلقون بأجسادهم على الجوانب في تراخ بعد فزع وإرهاق، نانمين، أو ربما ميتون في هدوء، والذباب من حولهم يحوم ويلهو في الجروح، ثم رأيتها، أبطأت خطواتي حتى التفت أعيننا، تجلس القرفصاء كعادتها على باب مزفا الذي اعتذت المور به في طريقي، تلهو بشعرها الأشقر وتبتسم في نداء. دأنا ما كن الخطر يُسعر أعني رغبتني، يوقظ بداخلي مذبوقاً شرساً ينفو لنشر ذرته خوفاً من الإبادة، وضعت يدي في جيبتي وتأكدت أن معي ما يكفي وطأها، وما يكفي لإغلاق الباب وراءنا...

في طريقي إلى المنزل سرت من النشوة مترنخاً، طرَّق الحديد وهو ساخن يشبه كثيراً طرَّق لحم الأثني، وتبريد الدم المحتقن في أوردتي خير من إراقته في أرض معركة، فأعود إلى المنزل بمزاج رائق، لا يزعجني الصراخ والعيول. ولا فراغ الجيوب من العملات، بل ويجعلني أتحمل من خُضت المعركة من أجلها، من غممت الفزع والرعب من أجلها، ها هي تلوح من بعيد، أراها تكتس التراب من أمام عتبة بيت فقير في نهاية سوق، بيت أزرق باهت له باب قصير وشباك خشبي مغلق بالحديد، بيت أعرف أنه بيتي..

- تقدر توصفها؟

- مش شايف وشها، لكن هي بيضا، قصيرة، شعرها بُني ولا بسة فستان واسع وعلى رأسها إشارب أبيض.

- فيه أطفال؟

- لا. مفيش.

- وانت حاسس بإيه ناحيتها؟

- حاسس...

سكتُ للحظات، كنت أأمل «شيبه» وهو ينظر لأمراته من بعيد، قبل أن يقترب، يقف خلفها للمحطات ثم يمر ليدخل من باب البيت. أجبت طارق: فتور، هو مش مبسوط معاه.

- صح، يس هو بيحبها؟

- بيحبها، لكن، مش مبسوط.

- ليه؟

- مش عارف، حاسس إن بينهم.. ملل.

- طيب نقدر نعرف نهايته كانت إيه؟ مات إزاي؟

رأيت نفسي مستلقياً في حوض ساخن مملوء بسانل أحمر له رائحة خانقة، أفوح عرقاً، أفوح وهناً، أنطلق إلى باب بيتي المفتوح، أرى المارة الغادين والرائحين بعينين تضربهما غشاوة، ثم اقتربت زوجتي، لم أستطع تبين ملامحها من أثر ضياء الشمس المنعكس، كانت تكتس الأرض وتجمع التراب في ركن، سألتني طارق:

- حاسس هنا سنك قد إيه؟

- ست وأربعين.

لا أعرف ما الذي ألقى في روعي بذلك العمر تحديداً، ربما هيئة امرأتي التي لم تبلغ الكهولة بعد.

- الألم فين؟

- جسمي.. كله...

- حاول تركز؟

رفعت ذراعي من المياه الحمراء بصعوبة فراعنتني التفرحات، رُقع مقشرة في لون الدم غطت جلد رأسي وصدرتي وبطني، وهن يُفكك مفاصلي، وصداع يطرق دماغي بلا رحمة... ثم اقتربت زوجتي، رفعت من فوق رأسي قماشة ووضعت أخرى أكثر برودة، لم أستطع تبين ملامحها لكنني ميزت بقايا جمال باند مخلوط بالوجوم والأسف، كانت تلومني بدموع انسابت منها في صمت، وكان الصليب الذي رسمته بأصبعيها على وجهي آخر ما رأيت، قبل أن تحفت الأصوات وتنطفئ الأنوار...

- إنت كويس؟

- حاسس بألم في رأسي.

- ده طبيعي، حاول ما تفتحش عينك.

- إيه اللي أنا شفته ده؟

أجاب طارق بعد لحظات:

- واحدة من تجسّداتك، وما تستغربش لو في لحظة لقيت نفسك واحدة بست.

- تناسخ أرواح؟

- خيلنا نقاش ده بـعدين، دلوقت محتاجين نربح جسمك، ارج فكك ورجليك، وخُذ شهيق كبير وزفير.

فعلت، وشعرت بيد طارق تقترب من جسدي، تُشعط الهواء من حولي، أردف:

- النور اللي خارج من المذئّب يطلّع شعاع أبيض، نقي، يبدخل من راسك ويمشي في كل عضو في جسمك لحد ورجليك، ومن رجليك بيخرج دخان اسود، يبطير في الهواء، صدرك بينشرح، برودة بتدخل قلبك، بتطلع للنور، للسلام، بنشوف صاحب، أبيض، حاسس إنك أحسن؟

أعلم أني لم أبرح الغرفة.

أعلم أن طارق يتلاعب برأسي.

وأعلم أن رأسي يشارك في المؤامرة، فما رأيت بدا هجيتاً بين حلم وبقطة. روعتني حرب لم أخضها وتجرت براميل من الفزع، وضعت الحديد في النار وصنعت سيوفاً، دُقت غزالاً أشقر عاهراً شهياً، وشعرت بفتور العمر مع امرأة في بيت جدرانها زرقاء من ورم التكرار والتعود، وأخيرًا انشغلت الألم في حوض ساخن، من خبرني أعلم أن ذلك لشخص؛ سيرجيوس أو أباً كان اسمه، قد عانى مرض الزهري، تلك التفريجات وذلك الوهن في العظام، وغشاوة العينين، بالإضافة للسائل الأحمر الساخن الذي رقدت فيه، زُنبق تحته نار، أحد العلاجات لينة تلك المرض المدمر، ثم لحظة النهاية، نظرات اللوم والأسف في عيني المرأة المسكينة، فلزهري هدية العاهرات عبر العصور، صعد معها جبلاً ثم نزل يجر جر قدميه وراءه من الضعف، تُساق لحمة على السقوط، ونظر الناس منه مسافة شهر، تمتى رفاهية الموت ولم يبلغه حتى سدد ديون الكائنات جميعاً...

منذ كانوا سمكاً في الماء المالح...

- نديم... حاسس إنك أحسن؟

- أحسن.

- تحب نكمل؟

كان الفضول سيد اللحظة:

- كمل...

- دلوقت هنرجع للسلام، هننزل العشرين درجة، هنوصل للبواب الخشب الضخم، المقابل للحديد... هنفتح.

في الساحة، ويرتقب وشغف، انتظرت الدخان أن يتقشع، حاولت تصوّر ما سيحدث لكنني فشلت، شيء ما يوقني عن التخيل، لا أكاد أصدق أن إبرة مغروسة في جبهتي لها ذلك التأثير، نظرت أسفل مني مراقباً ساقّي، لحظات وانجلت الرؤية، عن ساقين حافيتين لا تحتلفان عن ساقَي الحداد الروماني، ربّما أكثر احتكاكاً بالأرض دون حذاء، وأدكن لونا، أقف على الرمال في شمس الظهيرة والظل من تحتي أسود، ألف إزاراً بيّناً خشناً حول خصري النحيل، جسدي جاف بإس مكسو بعضلات الشقاء، وصدري ضخم، لي حية عريضة وأنف حاد مدبب وفم واسع، شعري غزير جمعد وجبهتي عمّمة برباط من نفس قماش الإزار، في مولد كبير مزدحم بالخيام والجبال والدراويش، والناس حولي يقفون في دائرة تحدها الجبال، رجال ونساء وأطفال، يأكلون الفول النابت ويتأملون بترقب الصندوق المزخرف المستقر على الأرض أمامي.

- تقدر تحدّد إنت في أي عصر أو أي بلد؟

- مش قادر أعرف، لكن إحنا في مصر، لمحت القلعة بعيد.

انتظرت لحظات حتى سكنت الأصوات، ثم رفعت ذراعِي وضمت أصابعي ابتداءً من خنصر يدي اليمنى وحتى سبابة يدي اليسرى، قبل أن أسلك حنجرتي وأرفع صوتي بالسر:

- كفّاك ربك كم يكفّيك واكفة، كفكافها ككمين كان منك لكّا، تكرر كرا تكرر الكر في كبد، تبكي مشكشكة كللك لككا، كفكا ما بي كفاف الكاف كربت، يا كوكبا كان يحكي كواكب الفلكا.

وَفَع الكلمات على العامة كان له تأثير السحر، برقت الأبصار وساد الصمت فأنحيت على الصندوق، فتحت مزلاجها ورفعت الغطاء، مددت يدي في سرعة والتقطت حية بيضاء عملاقة لها عينا حمران، وبعزم قوي رفعتها فوق رأسي مستعرضاً حجمها، وأعصابي، سرّت المهمات بين الرجال، سقطت أفواه الأطفال دهشة، وبصقت النساء بين ألدائهن وتمتمن بآيات الاستعاذة من ذلك الشيطان الأبيض، كان ذلك حين مُحنتها بين الجموع، بالكاد تقترب من العقد الرابع، الثراء ياد في ردتها المزخرف والمودج الذي نزلت منه، بياض الحية يشبه بياضها، ناصعة لامعة تشوبها صفرة عُبية، تطل بعينين قاتلتين من وراء بُرقع ذهبي، تتابعني من خلف كتف حارس مهيب، التفت أعيننا للحظة قبل أن أترك العنان للثعبان كي يلتف حول جسدي، عاصراً رقبتني ثم صدري ثم بطني، قاطعاً أنفاسي، ضاعطاً ضلوعي يريد أن يحطمها رغم العشرة، احتقن وجهي فتعالت الصيحات بالاستغاثة والاستعاذة، ولم يجرؤ مخلوق على الاقتراب، تابعت القلق يسري في عينيها وأوصالها قبل أن أقتم في بيري:

- بسم الله ويسر الشيخ «الرفاعي أبي العلمين» أقسمت عليك أيها الحية بهذه الكافات، وما فيها من الكفايات وبأسرارها التامات، أن تقني ولا تتحركي ولا تؤذيني بأندسك السمات، وأن تأتي أمامي خاضعة خاشعة وإلا كنت من العصاة لله رب العالمين.

تأني لحظة السحر الكبرى وبنفك الثعبان عن جسدي بغتة، يسقط على الأرض بين قدمي كقرشة بالية، موت مفاجئ بلا مقدمات. قلب توقف من مجهود العصر، يسود الصمت لدقيقة وتدلّ الأفواه قبل أن ترتفع التكبيرات وهلل الأطفال، نظرت للحساء ثانية فلمحت ابتسامة صبتت طرقي عينيها الكحيتين، دُشرت إلى الساس بالصبم ثم أشرت إلى الثعبان وغتمت بالآيات فتحرك بسم الله كنّ لم يمسه الضر، انحنت قبل أن يستفيق ورفعته عاليًا، بين تصفيق وعُمَلات قليلة انغرس في الرمال، تابعت الحساء تُلقَى بثُمَّلة ذهبية بين قدمي قبل أن تدخل هودجها المزخرف، فالتقطت العملة ووضعت الحية في الصندوق قبل أن أرحل وفي نفسي خواء الجوع...

- حاوي! تقدر تعرف اسمه؟

- جابر.. مش عارف ليه برضه.

كان ذلك ما نطقه المعجوز الذي انتهى من صلاته وتسليمه في البيت الفقير الذي اجلس فيه الآن.

- مين المعجوز ده؟ (سأل طارق).

- ده أبويا.

- شبه حد تعرفه؟

- شبه جدي شوية.

- وهو بيشتغل زيك حاوي؟

لاحظت بالتقرب منه سكاكين طويلة حادة وأداة سن.

- مش عارف، بس حاسس إنه برضه حاوي.

- عُمر ك كام سنة؟

- شيء ما جعلني أقول: أربعين.

- مفيش بيت في البيت؟

- لأ، عايشين لوحدها، وهو عيان، وبيلومني...

- ليه؟

وألقي في نفسي أن: «عشان رافض العجوز...» أو...

وسمعت على الباب طرْقًا ففتحت، وإذا بحارس حسناء المولد بالبالب، ويدون مقدمات انتقلت إلى ردهة واسعة بصرح كبير، مكسوة بالبلابل الملون والسجاد، أقف في ثياب من القطيفة الحمراء، مزينة بخطوط ذهبية تغطي الصدر والأكمام، رائحتي عطرة، في قدمي حذاء جديد، ومن أمامي صندوق المزخرف، أكرر عرضي للثعبان أمام جمع أقل من الناس، أسرة ملكية بينهم وقفت فتاة المولد الحسنة، هي من طلبت قدومي إلى القصر وربما طلبت إقامتي فيه لمتعة والقرب، عيناى لم تنزلا عنها لحظة أثناء استعراض مهاراتي مع الحية، تلبقت منها ابتسامة حين انتهيت، وفجأة، رأيته أسير ليلاً في طرقة طويلة مكسوة بالسجاد، معلق على حيطانها شمعدانات غير مشتعلة. وفي نهايتها باب موارب مزخرف، دفعته برفق فحذبت الفتاة ذراعي بسرعة وأغشقت، قبل أن تترك رداءها ليستقل عن جسد شفاف. بض خفي كنهم أسسك، شعورها ضوئيل يصل للأرض، معطر برائحة أسرة، وكعبها في لون دم الغزالان، وكان الجوع قد بلغ مداه، وضعتها على السرير، صهرتها وألثمها، بشق تغطي عنان الجنون، أنقل عيني بين وركيها، ومذنب يمر في النافذة، مذبذب وهجه لم ينافس لحمها، حتى أشرقت الشمس واضطرت اضطراراً للانسحاب...

- حب؟

- حب... وجوع رهيب.

- لغاية ما حصلت المشكلة.

رأيتها على سريرها تبكي بهلع وجزع، وتلامس بطنها الذي طالما لعقت سرته...

- حامل!؟ (سألت طارق كأنه يرى ما أرى).

أجابني: بالظبط، تقدر تعرف إيه اللي حصل بعد كده؟

- شايف نفسي في أوضة في القصر، بالليل، الشباك مفتوح وفيه فروع شجرة قريبة.

كنت أهدق في صندوق الخشب، في ربة الحية البيضاء التي انغمس بها سكين، وإلى بقية جسد لامع أملس تقطع سبعة أجزاء، وإذا بالحارس الشخصي للأميرة يقتحم الغرفة وفي يده هراوة غليظة، سلّت سكيناً من حذائي الطويل ووجهت له طعنة لم تؤثر فيه، دفعني دفعة أستعصني، قل أن يطوح هراوة في ساقى، انكسرت عظام ركبتي وقل أن أنوه جنم على صدرى. رفع الموت فوق رأسه ثم هوى على رأسي بخيطة واحدة أضلمت الدنيا بعدها وضرب التشنج أوصالي...

- نديم، اهدا...

صرخت: راسي فيها ألم رهيب، في مكان الضربة، هنا.

وأشرت إلى جبهتي، في مكان الندبة العجيبة التي ولدت بها:

- أنا محتاج تفسير.

- ده عرض طبيعي بعد الصدمة، جسمك مُتشنج، لازم تسترخي يا نديم.

- أنا اتقتلت من دقيقة، سُفّت ملامح اللي قتلني.

- اللي اتقتل جابر، مش أنت.

وضع طارق راحته على عيني وأصدر صوتاً يشبه دوي النحل، مسح رأسي وذلك أسفل فكى والتجوف وراء ترقوتي. شعرت باسترخاء يسري في أعصابي ثم هدأت أنفاسي المضطربة:

- لو مش عاوز تكفل هنوقف التجربة هنا.

لم أكن أسمعها، كنت أتأمل وجه قاتلي في باطن جفوني، من وضع حدًا لحياتي يوماً، من أرسلني إلى الجحيم، أو بمعنى أقرب...

من أحيائي ثانياً...

- أنا مش فاهم، دول مين؟ وليه أشوف ده؟

- الحياة الثالثة ممكن تكمل لك الصورة.

سحبت نفساً إلى صدري ثم زفرته:

- كمل.

- متأكد؟

هزرت رأسي ولم أعقب، نزلت السلم ركضاً وكدت أنعثر، دفعت الباب الخشبي العملاق بقدمي ووقفت وسط الدخان. أرمق سائقي وأنفخ الهواء بفمي مستعجلاً انقشاع الرؤية، وكان ما رأيته تلك المرة له وقع مزعج، جعلني أغمي تلفاً الإبرة المغروسة في جبهتي لأؤكد أن خيالي المريض هو ما يتوق الدقة، فقد رأيت قدمين بيضوين في حُفنين مفتوحين من الخشب، مقوستين من السمعة، أظافرهما صغيرة تنمو إلى أعلى تحت ثوب أسود من الحرير تسلقته عيناى فأدركت سمعة مفرطة تكاد تشق حزام وسط عريضاً، الصدر يتنافس ثدي أنثى أرضعت سبعة أطفال، والكتفان هضبان من اللحم يكسوهما شال «الطاليت» المخطط بالأبيض والأسود، فوقه لُغد متفخ غُتقن، تحت رأس أحمر غارق في العرق تدلى من جانبيه صفيرتان، تعلوه طاقة «الكياه» المميزة لليهود، وصندوق «تيفلين» أسود فوق الجبهة، مربوط بحزام من جلد الغزال يمتد ليلف الرسغ الأيسر قرب مستوى القلب، وفي إصبعي خاتم ذهبي منقوش بنجمة سداسية.

- أنا تخين جدًا، مستحيل أكون في يوم من الأيام بالشكل ده!

- ما تقاومش الصورة اللي شفتها، تقدر تحدد زمن أو مدينة؟

- الزمن قديم، أقدم من الزمن اللي فات، لكن مش قادر أحدد إمتى.

- وسنت؟

- حوالي ستين.

- وشايف نفسك بتعمل إيه؟

- ماشي في سوق والناس يتبعد عن طريقي، ومعايا خدَم ماشيين ورايا، فيه حد ناداني باسمي.. زخاري.

- رايح فين؟

- داخل مبنى كبير، حاجة زي مجلس أو...

قال طارق:

- معبد مثلاً؟

- صح.. معبد.

- ركز، شايف إيه؟

رأيتني في معبد واسع تعلوه قبة مزخرفة، تدلى منها نجفة سداسية ضخمة، أسفل منها يقع طابق النساء، تحمله صفوف من الأعمدة المزينة بالتيجان، تنتهي عند ستارة حمراء مخفي وراءها الهيكل الذي يحوي تابوت العهد، وأنا، واقف على بوابتها فوق منصة الوعظ، ومن حولي حلة لفائف التوراة، وتجاور الأبخرة العطرية، تمتد الصفوف أمامي برجال ساجدين في خشوع على حاجبهم الأيسر، رافعين أعينهم ليحني إلى السقف، مُرددين ورائي: «اسمع يا إسرائيل، إن الرب إلهنا هو رب واحد، فأحبه بكل قلبك ونفسك وقوتك. ولتكن هذه الكلمات التي أنا أمرك بها اليوم في قلبك»، ثم أمر فُرفع التوراة لتوضع في التابوت فوقف الناس وهتفوا: «قدوشاه، قدوشاه، قدوشاه» (*****).

حدّاد، حاو، والآن.. حاخام يهودي؟!

- فيه حد من الناس إنت تعرفه؟

نظرت حولي فلاحظت رجلاً نحيفاً يقف على بُعد ثلاثة صفوف إلى اليسار، ينظر نحوي ويومئ برأسه.

- أيوة.. فيه واحد.

- تقدر توصفه؟

- وشه أصفر.. وجبينه أسود.

- يشتغل إيه؟

تأملت الرجل ثم أجبت:

- تاجر.

- فيه حاجة كيان.

- الراجل ده خبيث!

- وانت عاوز منه إيه؟

- عاوز منه.. بنت!

انتقلت فجأة إلى شرفة عالية تطل على حوض مستدير واسع تقف فيه أكثر من عشرين فتاة، يكشفن سيقانهن حتى الأفخاذ، يعصرن عنياً أحمر لصنع نبيذ تراصت براميله الخشبية في الأركان، عيناى من بينهن لم تفارقاً خربة قاتلة، شعرها مموج، وجنتاها تفاحتان

عاليان، شفتاها عودان من الفلفل الأحمر الحار، وتصغرفني بثلاثين عامًا على أقل تقدير، شهيتي نضحت عرقًا من مسامي، مسحته بكف سمية بيضاء لم أستسغ سمته بعد. قبل أن تأتيني في غرفة نوم، بصحة اخيث الأصفر الذي قابلته في المعبد، أغلق الباب عليّ فاختلجت شفتاها بابتسامة لم تخفف الأشمزاز عن ملاحظتها، ولم يكن ذلك ليغير من الأمر شيئًا، فأنا الحاخام، أنا سيدها الذي سيُسبغ عليها شرفًا تتمده كل أنثى. ضاجعتها. حتى بكت، أفرغت شهوتي فيها ومزقت جندها انصر حقدًا، ونزرت من عرق الساخن عليها حتى تقيأت، ثم استلقيت بجانيها لاهثًا يكاد قلبي يتوقف من فرط المجهود.

- لكن فيه يست تانية في حياتك؟

أخرجني السؤال من جنة الخلد إلى بيتي:

- أبوة.. أنا متجوز.

- مراتك شكلها إيه؟

كنت أرمقها في صمت، مرّت بجاني في عمر بالدور الثاني من بيتي، تُغمغم بكلمات لم أفهمها.

- شبيهي.. تحبته جدًا.

- عندكم أولاد؟

- عندي ولد، بس الولد ده مش منها!

ورأيتني في قاعة كبيرة متخمة بمحال يُبتون فصوص الجواهر في الخواتم والخلي، أجلس في نهايتها على كرسي ضخم صُنع من المعدن خصيصًا ليتحمل وزني وكروشي التي برز جانبها من أسفل المسدين.

- إيه المكان ده؟

- أنا جواهرجي.. مش بس حاخام.

لحظات ودخل شاب خمري عريض الكتفين في عُمر العشرين، ورت شفّتي أمه ووجنتيها العاليتين، ولم يرث مني سوى طول قامتي ونون عيني الزرقاوين، تقدم نحوي في زيارته الشهرية المعتادة، صعد الدرجات الصغيرة بين نظرات العمل ومهمهم والتقط يدي التي ازدادت سمّة وتزاحمت بُقع السن البنية عليها، لثمها ثم ابتسم، كما ابتسمت أمه يوم أتتني بين يدي مالكة أصفر الوجه. فتحت دُرجًا قريبًا وألقيت إليه بكيس عملات أحرص أن تكفيه وأمّه بالكاد العيش على طرف الحياة...

- لكن ليه؟ ده ابنك!

- عمري ما اتأكدت إنه ابني.

- لكن هي ما كانتش عاهرة!

- المعهر في جينات الأثني.

- حبتها؟

- مش عارف، لكن مش متخيل حد غيري بلمسها، اشتربت عليها ما تتجوزش من بعدي، عشان أفضل أصرف عليها وعلى ابنها، وأمّرت أشرفها معاه من بعيد في كل زيارة عشان أوافق أدفع لهم الشهيرة.

- إنت عارف إن ابنك مش بيعجبك؟

- عارف.

- وعشان كده كتبت وصية غريبة!

فتحت دُرجًا في خزيتي فوجدت ظرفًا مختمًا بالشمع، سحبته نفسًا إلى صدري الذي ضاق بما سأقول:

- يتحرم من الورث لغاية ما أمه تموت... أنا خليته يتمنى أمه تموت!

سكت طارق لشوان قاسية ثم سألني:

- تقدر تشوف لحظة موتك؟

رأيتني فوق سرير في غرفة نوم فخمة، مظلمة إلا من شمعة بجاني، غارقًا في فيض من العرق، أعاني الفالج في أطرافي وآلام تحمة في كرش حجبت من ضخامتها جدران الغرفة، وبعينين مقلوبتين إلى السقف أرمق نافذة تعلوني، تجلّ فيها نجم ذو ذنب، اقتحم السماء منذ سبعة أيام بوهج ملام المدينة جنوبًا، تحبط الناس وسمعوا في رهوسهم أصوات الشياطين، وتحيلوا أشباح أجدادهم تهم بينهم تنصرعوا إلى الإله في يأس...

- حد فتح الباب!

أسمع خطوات تقترب، ضوء الشمعة تراقص من أثر الهواء، ثم كشف الملامح الحمراء، ابني يزورني في بيتي لأول مرة، بلا دعوة، رمقني في صمت وابتسم، مثل ابتسامة أمه يوم أتتني مع مالكة أصفر الوجه، ثم رفع ذراعه بشمعدان شباعي ذهبي، هوى به على جبهتي بعزم ما يملك، في مكان الندبة الداكنة التي ولدت بها...

يا له من صوت لن تتمنى أن تسمعه..

وَفَع تكسير جُمجمتك في أذنك...

***** Past Life Regression Hypnosis: تكنيك تنويم مغناطيسي يساعد في استرجاع الحياة السابقة للشخص طبقًا لمفهوم عودة

الروح في حياة أخرى وجسد آخر.

***** قدوشاه: وتعني قدوس.

ندبيسم!

الصوت آتٍ من أعلى...

من فوهة بئر عالية...

فتحت عيني...

ممدداً في قاع مظلم وطب نفوح منه رائحة ننته، نبضات قلبي سريعة كمنقطع حيوانات يطاردها أسد فتعثر بعضها ببعض فزعاً، أدركت حبلاً فيه دلو يتلبدل بالقرب مني وسمعت صوت طارق من فوهة البئر فنظرت إلى أعلى، وباليستي ما فعلت! انغرس الصداع بين أنفي وجبهتي، سكيناً من الضوء البنفسجي، سكيناً مشرراً من الألم يدور عكس عقارب الساعة، يُبوف رأسي ويفرّص حتى فقرات رقبتني، رفعت يدي فاصطدمت بالإبرة التي غرسها طارق في جبهتي، أنقيتها أرضاً ثم التقطت الحبل وأحكمت عليه قبضتي فرفعتني بسرعة الضوء.. إلى الغرفة الحمراء؛ غرفة الموجة الثالثة.

- حمد الله على السلامة.

بدا صوت طارق في أذني مدوياً.

- وطّي صوتك مش قادر اسمع، الإبرة! إنت حطيت فيها إيه؟

التقط الإبرة من الأرض وابتسم:

- الإبرة دي وهم، بلاسيو، مالهش أي تأثير غير إنها تخليك تخوض التجربة بدون ما عقلك يشكك في اللي بيشفوه.

أردت أن أهتك عرض كل إناث عائلته لكنني قمالك نفسي، حاولت الوقوف فدارت بي الغرفة:

- أرجوك تصبر، إنت مش متزن، التجربة ما انتهت.

- أنا محتاج أخرج من هنا، عاوز هوا.

- لازم عقلك يرجع لسيطرته الطبيعية على الجسم، لازم تربيع النهارده، وتشرب مية كثير، خطر جداً تتحرك.

لم أعبأ بكلماته، رغبتني في الخروج طغت على تحذيراته، تساندت على الكرسي حتى قمت، مد يده مساعدة فدفعني بفضب لم أعهد.

- سيني من فضلك، أنا محتاج أفوق عشان أفهم إنت عملت في إيه.

- إحنا فتحنا باب في الـHippocampus، المكان ده مش بيبخزن الأحلام والذكريات القريبة بس، حيواتك السابقة كمان ليها سجلات مخفية ما بتتمحيش، وليها توابيع.

- أنا ما شككتش لحظة إنك دجال.

- إنت خضت التجربة بنفسك!

- أنا بقي لّي سبعة أيام باشر هلاوس تعمل سبعين فيلم سينا.

- واللي شفته ده مجرد ثلاث حيوات من ألف.

- حقيقي وذكي جداً.. أنا اتبهرت.

ورفعت إصبعي الوسطى بقناعة وراحة بال ثم ترنخت بحذر نحو الباب الذي بدا على بُعد سبعة كيلومترات:

- ممكن مفتاح الصندوق؟

استدركني فوضعت يدي في جيبي وأخرجت المفتاح وألقيته على الأرض، فالتقطه طارق ودسه مع المفتاح الثاني في ثقبتي الصندوق الخشبي القابع خلف كرسي طبيب الأسنان ورفع الغطاء فالتقط شيئاً:

- ندبيم...

التفتُ إليه، وما رأيت في يده كان كافياً لنسف أعمدة عقلي الباقية!

في الغرفة مائلة السقف جلست على السرير بعد أن أغلقت الباب ورائي بالمفتاح، طنين الموجة «ثينا» مازال يهز عقلي ويدوي خلف محجرتي عيني، أنقي النظر إلى صورة المرأة/ السمكة في السقف كي لا أتحذني هي الأخرى، وأتلاق النافذة كي لا تحترق حدقتاي حساسية من الضوء، ومن خلف الباب كان ضاروق يطرق طرقاً، يرجوني أن أفتح أو أستمع لما يقول، لم أستطع إجابته، فقد كنت أنأمل بين أصابعي خاتماً كبير الحجم يليق بشخص يدين، خاتماً ذهبياً منقوشاً بنجمة سداسية، خاتماً رأيته منذ دقائق في يد حاخام! عليه نفس الزخارف والأحجار الكريمة الحمراء وخريشة الاستعمال.

أنا بصدد تغيير فحوى محاضرتي عن قصة إبليس ونهايته، الشيطان لم يمض، الشيطان كان معي في الغرفة، واسمه طارق، وأيا كان السحر الذي مارسه علي فلم يكن ليصل إلى انتزاع الخيال من رأسي ليجسده أو يكتف موجهاته في صندوق!! اللثيم أضفى على تجربته لمسات سحرية تثير الخيال وتبين للتصديق والإيمان، موحات تدغدغ العقل، ضوءاً أحمر، كرسي طبيب أسنان، صندوقاً خشبياً عتيقاً وإبرة مغروسة في منتصف الجبهة، لا عجب أن المثقفين هم من أكثر زوار الدجالين والمشعوذين وقارئ الفئنان، فهم ببساطة مهزوزون من داخلهم، فكلما حصلوا من العلم قدراً أدركوا أنهم ما زالوا على البر أطفالاً لا تحيد السباحة، والعلم بحر لا نهاية له! لذا يبحثون بشغف عن شخص وصل إلى اليقين الكامل كي يأخذ بأيديهم ليربهم من التخطئ والتشكك، شخص يتكلم عن المستقبل كأنه رسول. وائق من علمه كإله أزلني، ولا يدعي اليقين الكامل في فصيلتنا إلا الجاهل المتعجرف، هكذا تبع المثقفون «هتلر» و«موسوليني» و«ستالين» يوماً وصاروا خلفهم إلى الخافة واضعين، وهكذا سيرضخون لكل منجم دجال ما دامت الحياة...

ولكن كيف عرف طارق أنني سأتحلل أو أهلوس بتلك القصص التي لا أعلم لها جذوراً؟

وكيف استخرج من خيالاتي شيئاً ملموساً؟

هل تم زرع تلك القصص في ذاكرتي كما تزور المعلومات الدراسية والمهارات؟

الأجهزة المعروفة لم تملك زرع ماضي بأحداثه وتفصيله في رأس المستخدم! فهي تضخ المعلومات فقط بدلاً من الحفظ والمذاكرة، فصلاح الدين الأيوبي سيظل شخصية تاريخية ولن يصير فجأة أحد أجدادي، والعقل الباطن مازال يحتفظ بأسراره، لكن ربما تعرضت لنوع من التكنولوجيا المظلمة لجماعة القيامة المتمردة؟ أو وسيلة سيطرة جديدة يتداولها الأجانب في أحراش الزمالك؟ سطو عقلي غير مسلح، فيروس إلكتروني وضعه طارق في الحقنة؟ جيلة نضج مبتكرة، ولكن ما الهدف؟ معرفة أرقام أرصدي ومعاملاتي المالية؟ اختراق أفكارني ورؤية حياتي الخاصة تمهيداً لتهديدي؟ زرع فكرة الإله في مخيلتي وهدايتي لأحد الأديان المتهالكة؟ أن أصبح أضحوة الصفوة من العلماء ودرويشهم الذي خرب رأسه؟

أغمضت عيني بتركيز للحظات لم يحدث فيها تحلل للإله بداخلي...

وه الحمد!

هل اطلع طارق على أحراشي؟

هل رأى الغزلان تركض فيها؟

هل رأى زوجته تاليا ولمح أنيابي تتحفز من أجلها فقرر الانتقام ببليبة عقلي وهتك عرض ذاكرتي؟

ومن هؤلاء الذين قابلتهم؟

سيرجيوس وجابر وزخاري!

الحداد والحاري والخابام!

لم بدت صورهم وتفصيل حياتهم واضحة ثلاثية الأبعاد كأني عشت حياتهم يوماً؟

كل تلك التساؤلات لم تجب عن سبب وجود خاتم الخحام ذي «نجمة سداسية» في الصندوق الخشبي، بل وفتح منف انتفضية الشهيرة «النذبة الداكنة» ولدت بها، وذلك للعثور على أدلة جديدة تفيد حدوث «جريمتي» قتل لنفس الشخص، ضرب على رأسه في نفس الموضع، في زمنين مختلفين!

يدي ترتعش، عقلي مثقوب يدور حول نفسه، يغرق في السائل الشوكي السامع فيه، يبتلع الماء المالح، هناك من جذب ذراع السيوف، الوقت ليس في صالحني، علي أن أرحل عن ذلك الملاذ، علي أن أتفقد المعلومات في عدستي، أن أتركها تمسحني وتحلل بياناتي، لعلي فقدت جزءاً من كبدي، أو لعلي فقدت قضبي، سأنسحب من موسم الصيد مجبراً، سأتحلل عن الغزاة البيضاء مضطراً، وسأترك بيانو شوبان، وضعت الخاتم في جيبي؛ فهو الدليل الوحيد وأداة الجريمة، وخرجت من الباب إلى السلم الدائري، نزلته بسرعة لا تليق بحالتي حتى استحال الدراجات في عيني كالعجين، كان علي أن أترنح، ومن الواجب أن أسقط، انكفأت على وجهي ببطء، شوال بطاطس مثلي، تدرجت، حتى استقرت عند ساق العجوز العاري، قاومت النظر إلى عضوه ولم يكن وجهه أحسن حالاً، ومقني بلا تعبير ثم يده المعروفة فوقفت وحدي دون مساعدة، فمالكت نفسي فسألته:

- العدسة فين؟

أشار إلى درج في وسط الدولاب، عليه ورقة تحمل أحرف اسمي الأولى، فتحته بشغف والتقطت عدستي، وضعتها على حدقتي فترأت بصمتي الوراثية في خفة وفعلت نفسها، يا الله. متعة استنشاق الفيروين بعد طول غياب لا تعدل متعة التحامي بالعدسة، كأن عضواً من أعضائي انبهر ثم نما من جديد كذيل البرص، كم أفتقد زخم البيانات من حولي!

طلبت طائرتي وخرجت إلى الوادي الجاف أترنح، الشمس تكوي صدقتي، ثم تعالى الطنين وحامت الطائرة حولي قبل أن تهبط، صعدت إليها وطلبت إعتماد الزجاج وأعطيت الأمر بالعودة إلى البيت، تابعت من النافذة طارق وتاليا، كانا في البلكونة ينظران نحوي، رفع يده في تحية لم أردها، ولمحت في وجه تاليا غضباً أنفهم سببه..

فليس هناك أسوأ من رجل ينسحب من موسم الصيد دون إنذار.

بمجرد ابتعادي عن الزمالك طلبت من العدسة بيانات أرصدي، انهمرت الأرقام بمسحوبات تمت خلال الأيام السبعة الماضية، هبطت روحي إلى ساقبي قبل أن تعود ثانية حين استعرضت جهات سحب تحمل بصمات مريم؛ أدوية الرئة، أوراق تاروت جديدة، فاتورة اتصالات هائلة تبقىها هائمة في عالمها الافتراضي، وبالطبع فواتير مياه الشرب الباهظة، حساباتي نظرياً كما هي، لم تحس، تنهدت فأرغيت أعضائي وتولت العدسة مسح جسدي بحثاً عن خلل، لحظات وأشارت إلى نقص في دهون البطن، استرخاء ملحوظ في منطقة الكتفين والقلب، فقدت كيلوجرامين ونصفاً من وزني، البنكرياس الصناعي يعمل بكفاءته المعتادة، والندبة الداكنة في جبهتي مازالت مجسات العدسة تقرأها لتترجمها «جرحاً لم يلتئم»، بالإضافة لنشاط كهربائي زائد في عُنِي وخلل في الموجات الصادرة منه، أعراض هيئة بعد سبعة أيام شربت خلالها طحالبي بحر، رحيق أنثى، ووُخِزَت ببيرة في جبهتي قبل أن أسافر عبر الزمن لأدخل جسد حذاد أصيب بالزهري، وحاول وحاحام قتيلاً غدراً بضربات على الرأس.

أخرجت الخاتم الثقيل من جيبي وتأملت تفاصيله للمرة السبعين قبل أن أضعه فوق راحتي وأطلب من العدسة مسحه، لحظات وانتشرت البيانات من حوله. خواتم ذهبية على مستوى نعام تشبهه وأسعدها الحنية. تحليل هندسي لنقش النجمة السداسية وترينه مع بعض الصور، علم السلطان العثماني سليم الثالث ورمز النجمة يُزينه بجانب الهلال، كُتب تسخير الجن وعبادة الشياطين التي تستعين بذلك الشكل في الأعمال السفلية المزعومة، بالإضافة لاستخدامه كشعار لإسرائيل...

تسلل الإحباط إلى نفسي من تنوع البيانات قبل أن يسقط رأسي فوق صدري حتى أشارت الطائرة إلى وصولها البيت..

عودتي إلى البيت.

القصة المعتادة.

«الموسم السابع» بعد المائتين.

تتكئين على وسادتك المخملية بجانب نافذة المطلة على شاطئ البحر، رواية «السيدة دالواي» الورقية التي لا تنتهين من قراءتها فوق سافيتك. شعرك الأسود يغطي رأسك المنقى إلى الوراء. أخش عقلك بدءاً فتنتحين عينين موهي العتب. تتمتمين بخفوت، أنجاهل عن ضيق خاطر، فحنقني جف لا يرتوي، ولوجية ساخنة من يد الروبوت لن أكمل نصفها لتقلص في معدتي. «العادة السرية» بطولة تاليا! ساعدت على استرخاء عضلاتي وخلصت عقلي - مؤقتاً - من تخيلها، حمام دافئ كدت أغرق في مياهه، أصدااء موجات ثباتا تلاشي من أذني وتخاذل أطراف، ضربات قلبي تعود إلى طبيعتها، كوب ماء نظيف وجرة مضاعفة من أقراص الذاكرة، رأسي يتزن، أسترخي، أستلقي، أحتد برسي في الأطراف، طارق يحاول أن يجري اتصالاً بي، أصرفه كما يليق بأجنان أن يصرفوا، ثم تقترين رغم شرائط البوليس الصفراء المشيرة لوقوع جريمة، تمشين على الهواء في صمت، تجلسين بالقرب مني، تسألين وتستفسرين عن سبب قطعي الاتصال بك لأسبوع. عدولاني لتأليف أحداث عن المحاضرات في ثلاث قارات مختلفة فيلم تجاري رخيص تعزري حيكته الثغرات، ارتحلت، وحذفت المشاهد الإباحية مع تاليا، ولم أنجح يوماً حتى وإن كنت صادقاً، فالشك حاضر ساكن بيننا منذ باع بيته وهاجر إلينا، جالس على كتفك، يناولك السؤال تلو السؤال لتقطعي به شرايينك، دون إمانة دماء، تفحصين قميصي بدعوى وجود بقعة، تسمينه بدعوى وجود عرق. تلتسمين بصمات زميلة في الأنوثة، تلتسمين علاماتها على جلدي وفوق الياقة، وفي ملابسي الداخلية، ثم تُخرجين الخاتم الذهبي، أسرد لك حكاية مشوقة عن رجل يهودي أهداني إياه إعجاباً بأفكاره، ولولا قطر الخاتم الكبير ما صدقت أنه ليس خاتم أنثى أخرى، أه لو عرفت! يتهكك لك قترقين على الكنية في بأس وتلفين ذراعك في قنوط ثم نشردين في الخائط، أدعو أن يهلك شيء في عدستك، ولا عجيب، ليتابك ضيق التنفس المزم من فتضعطين زراً في سوارك يضح في أوردتك الدواء، تسحين نفساً ثم تترقق عينك... أشفق عليك، لكني لم أعد أحتمل افراء واششاشة، التقمص الأنثوي بأني دنت وأبدأ في غير أوانه. كبرد الصيف. أعصابي ترتجي، أغفو وأستيقظ. تتابعيني في صمت، كلما تنهت أجلك ترمقيني، كأني كائن فضائي، وتصبرين على الحديث رغم النوم الذي يراودني، تحكين عن المذنب الذي شارف على الرحيل، تحكين عن صديقات لا يعنيني انهيار بيوتهن، تحكين عن كواكب لا أهتم بدورانها واصطفافات مربعة تنذر بسوء. الشمس في البيت التاسع يا نديم، السنة هي سنة الكشف بالنسبة لبرجك يا نديم، كوكب بلوتو يعد بتحولات قصوى في حياتك يا نديم، يا امرأة! بلوتو لم يكن سوى كلب لـ «ميكي ماوس»، وما دمتا لن نكون على قيد الحياة حين نهبط عليه أو يأتي هو إلينا في زيارة، فليذهب إلى الجحيم أو ينفجر فيريتنا من شره، ألا ترين أن الجفون إسمنت والرموش أسياخ حديد مسلح تنغرز في عيني؟ ألا يشيك شخير المتقطع؟ تتحدثن بلغة لم أعد أفهمها، أطلب من العدسة ترجمة «مريم - عربي» ولا أجد، تخفت صوتك، وتخفت ملاعك في عيني، تلاشين، أغفو، وفي صحوة أقلب فيها أجد كرسيك خالياً، فأترك نفسي لأسقط سقوطاً مروعاً لذيذاً مبهجاً، نحو المخدة...

بعد ٤٨ ساعة...

انتشر التسوسيترون في شراييني وتحفز الجوع، رائحة لحم الغزالان التي تغمر أنفي ثانية، لا أهرش، لا أتشجج، لكن في داخلي يزحف ثعبان أبيض كبير مثل ثعبان الحاي، يزاحم أعضائي ويدفعها، عيني لا إرادياً تمارسان الجنس مع ثالبا، على قمة إيفرست. على ظهر حوت في قنب المحيط، وبين الشجر العملاق في غابة استوائية ممطرة، فكّرت اثنتين وخمسين مرة أن أعود الاتصال بالبلاد، لكن التلاعب بعنفي بضمير جريئة لا تغنر، أحتاج أن أفرد بنفسني حتى أضمن أنني مارلت أنا، وأحتاج لي تفعيل الشريعة التي خربتها تلي لأعود الاتصال بالعالم، كما أن عليّ كتابة المحاضرة التي وضعت تفاصيلها بين الماء الدافئ في الحمام الحجري والعزل في غرف الموجات.

لكن شيئاً ما لم يعد كما كان! فالموجات مازالت تراودني، تمز كيانني للحظات، الحذاء والحاي والحاخام بطاردوني في القطة قبل الحلم، رأيت أولهم في نهاية الطريقة، وثانيهم يداعب رقبة نيوتن، والأخير يمارس العادة السرية على الشاطئ، هواجس ملجأ أستعيد فيها حياتهم كأني عشتها يوماً، ضاق صدري فطردهم وصرخت فيهم بأقذع الألفاظ، وحين عُدّت إلى مكنتي كانوا جالسين في انتظار، فتحت الدرج وأخرجت الخاتم الذهبي لأنامله، ثم لاحظت حرفين عبريين صغيرين محفورين من الداخل، ترجمتهما العدسة من العبرية إلى «أنا، أمّرت بالبحث عن طراز الخاتم وتصميمه، وفي أي عهد استخدموا ذلك الشكل؟» مرت أدق ثقيلة قبل أن يصي، مستطيل شفاف فوق الخاتم «مصر زمن الدولة الفاطمية - عهد العزيز بالله نزار بن معد بن إسماعيل خامس خلفاء الدولة الفاطمية - الخاتم يتسمي للطائفة اليهودية، ومن المرجح أن يكون ملكاً لأحد رجال الكنيس، كان ذلك كافياً ليشتعل حماسي، طلبت بياناً بالمعابد التي كانت قائمة في عهد العزيز بالله الفاطمي فأنتني النتيجة، أقدم معبد والوحيد المتبقية أطلاله هو «كنيس بن عزرا»، ويقع في منطقة القسوطاط بحي مصر القديمة، وقد سُمي بهذا الاسم نسبة إلى «عزرا الكاتب» أحد أجلاء أحبار اليهود. طلبت من العدسة صوراً من الداخل فزدهمت عيني بتناج بدت مطمئنة، المعبد يختلف كثيراً عن المعبد الذي رأيته في الغرفة ثبثاً، ثم قرأت أن المبنى الموجود الآن تم هدمه وإعادة بنائه أكثر من مرة آخرها عام ١٩٩١، فتوترت معدني ثانية، طلبت سجلاً بحاخامات المتحف فأشارت العدسة بأن تلك المعلومة غير مدونة، وأن عليّ زيارة المكان لمطالعة الكتب والدوريات اليهودية التي تؤرخ لطائفة اليهود في مصر عصر الفاطميين، أو سأضطر لزيارة المتحف القومي الإسرائيلي.

كان الوقت غروباً حين ارتدبت شترتي الحرارية وأرسلت الإحداثيات إلى الشاشة: «حي القسوطاط، العاصمة العتيقة»، اتخذت الرحلة دقائق قبل أن تومض العدسة ومجسات الطائرة بالتحذير من نسبة تلوث مرتفعة وحرارة تصل إلى إحدى وستين درجة مئوية، بالإضافة إلى التنويه عن خطورة التعامل مع الأفراد ووجود كلاب متوحشة. التقطت مسدسي ووضعت قناع الأكسجين، وزجاجات مياه نظيفة كان لها الفضل دائماً في كسب الود وتزليل العقبات.

حين نزلت قرب المعبد، بدأ المكان مهجوراً إلا من كلاب مسعورة قرّت حين أطلقت نبضة من مُسدسي، وجماعات من المتأخرين ممن لم ينالوا حظ تحديث جيناتهم فباتوا عمالة تتعاطى الدين والكيمياء حتى لا يتمردوا فيقتلوا الأغنياء، يراقبونني وفي أعينهم الفضول، يظنوني يهودياً أحجّ لأحد الأطلال، أو سائحاً يطلب مغامرة، اقتربوا كالثقراض حاملين بضاعتهم الرديئة؛ بقايا أحجار من المباني المهذمة وحنوطاً من أجساد القديسين، وصوراً هولوغرافية للمُذنب حين مر في نفس المكان في دورته السابقة، ألقى على الأرض بضع زجاجات من المياه الصالحة فتكالبوا عليها، واتجهت إلى المعبد، أو بالأحرى ما تبقى منه، تشوشت بيانات العدسة كلما اقتربت، حتى صرت أمام بناء عتيق في أعمدته بقايا هبة جعلتني أتساءل: لم أرسل الإله الكثير من الأنبياء إلى بني إسرائيل ما داموا بذلك العناد؟ ما داموا لن يبتدوا؟ ألا يعلم أنه يقدم وسله إلى القتل على طبق من فضة؟ لم أصر على تمييزهم عن باقي الخلق بكثرة الأنبياء؟ أمن المعقول أن ينزل نصف الرسل فيهم؟ هذا بخلاف أن الرسائل السماوية لم تنزل إلا على العرب فقط! اليهود لهم كل الحق أن يغتروا بأنفسهم فيدعوا أنهم شعب الله المختار.

لم يكن ذلك وقت محاكمة...

اقتربت من حارس يقف قرب باب جانبي، نظر لوجهي فتوترت ملاحظه:

- له بياناتك مش ظاهرة في العدسة؟

- شريحتي عطلانة.

نظر للسما مستدعياً أقرب «درون» لتصويري فرفعت زجاجة مياه:

- مفيش داعي، أنا مدرّس في الجامعة وجاي أزور المعبد.

- مفيش زيارات من ساعة ما المبنى اتهدّم، الشباب اللي هناك بيعبوا أحجار المعبد.

- أنا محتاج معلومة في السجلات، قوائم الحاخامات اللي كانوا بيشتغلوا هنا، المعلومات دي للأسف مش موجودة على الشبكة.

- يتسأل عن مين؟

- أنا مش عارف الاسم كامل، لكن هو حاخام اسمه زخاري.

- موظف السجلات بيكون موجود بكرة الصبح.

بتلاتين بيتكوين باع يهوذا المسيح، حوّلهم قائد الرومان عبر العدسة إلى حسابه وتبرع بزجاجة مياه صالحة للشرب...

ثم انفرد بالسجلات المهترئة...

في قبو المعبد، بين أثربة الإهمال والأعمدة المهتمة جلست، لا أعلم من أين أبدأ، كم هائل من اللقافات والورق، واتصال انقطع بالعالم الخارجي، لم يكن ذلك يعني؛ فالعدسة تحمل لغات الأرض، قرأت معي الحروف العبرية وحولتها إلى العربية، حوليات المعبد وزياراته اليومية منذ تم شراؤه عام ٨٨٠ ميلادية من الكنيسة الأرثوذكسية التي مرت بضائقة مالية نتيجة لزيادة ضرائب فرضت عليها وقتها، قضيت ما يقرب من الساعتين تاركاً للعدسة التعرف على كلمة زخاري بين السطور حتى وجدتها؛ زخاري إرميا دانيال؛ حاخام الطائفة اليهودية لسبع سنوات، عاش بقرب المعبد وتوفي في بيته عام ٩٩٠م، ولم تذكر السجلات أنه قُتل! لكنها أشارت لرقم في فهرس خلقي، يرفق قُلِبَت الأوراق البالية حتى عثرت على ملف رسوم للحاخامات، لوحات شخصية تشبه وجوه الفيوم (*****) التي وُضعت على التوابيت فترة الوجود الروماني، كان من بينها صورة نصفية لرجل يدين متجههم، رجل يشبه بشكل لا يوصف ذلك السمين الذي قابلته في الغرفة البنفسجية، يرتدي شال «الطاليت» ويحمل على كتفه لفائف التوراة، وفي إصبعه خاتم ذهبي...

خاتم يطابق الخاتم الذي أخرجته من جيبي!!

خرجت من القبو أنصب عرقاً، هبوط ضغط لم يتولاها البكرياس الصناعي، وبطء منطقي في ضربات القلب، نهيتي الشفرة أن السماء تمطر بنسبة ثلوث ٧٪ فوضعت واقي الرأس وأحكمت كمامة الأكسجين، اقترب المتأخرون ببضاعتهم ثانية فتوحت بمسدسي فابتعدوا كالضباع اليائسة، إن وقعت بينهم فسيخلعون أعضائي، ترنحت إلى الطائرة وأمرتها بالارتفاع دون إحداثيات، لم أكن أعرف إلى أين أذهب؟ ارتقيت على الكنية فتولت العدسة فحصى قبل أن يفتح درج برزت منه حقنة لم أهتم بمحتواها، ضغطتها في رسغي فانساب المحلول، استرخيت لدقائق حتى عادت الحياة إلى أوردتي، نظرت إلى الخاتم الذهبي بين أصابعي المرتعشة، وللنيزك الذي يقطع السماء كسكين من نور، ثم تداعت الأفكار:

هل عشت على تلك الأرض من قبل؟

حياة جديدة تبدأ لتنتهي، ثم تبدأ لتنتهي!

تناشخ!

أكثر الأفكار سخافة تكاد تنطق شغفي بالغزلان، تجعل من صيدهن هواية موروثة لها جذور في حيواتي السابقة رغم اختلاف الشخصيات والأزمنة!

وعلى صعيد آخر فأنا أعرف سهولة أن يخلق عقلي الباطن هذه الأحداث، مثل الأحلام، إفراز للخيال البشري حين تجلج عنه لحام قشرة الملح. إحلال، كم قال طارق، العقل الباطن حين يتولى الدفة، وخاصة أنني وقعت تحت تأثير هلوسة لم أختبرها من قبل، مُهيأ ومُعد لـ«الانجراف والتلقين»، ولكن، من أين أتى ذلك الخاتم؟! وما تفسير صورة الخاتم البدين التي أرمقتها الآن بعدما قطفعتها من الكتاب! وماداً عن ندبتي انتي وُلدت بها! إن كان طارق على حق فأنا في ورطة، وإن كن يتلاعب بعقلي فأن في ورطة أكبر، شخص بتلك البراعة سيكون من المستحيل التنبؤ بما يدور في رأسه حتى ولو ادعى النبوة.

كان ذلك حين قطع الوميض أفكارني، العدسة توهجت بصورة مريم:

- نديم.. فيه حد اسمه طارق يبسأل عليك.

حين استقرت الطائرة على سطح البيت نزلتُ إلى صالة الاستقبال وكانت خالية، داروين لم يقفز عليّ، والروبوت لم يستقبلني!! ثم التفتُ لأذني ضحكة صاخبة آتية من غرفة المعيشة بالدور العلوي. قفزتُ السلالم فدفعتُ الباب، طرقتُ كان وأقعدتُ في ثنية، مُرتدياً قميصاً حريريّاً أبيض تحت شُرّة قرمزية، يُداعب رقبة الخائن داروين ويبادل مريم حديثاً رَسَم على شفتيها ابتسامة، تأملته للحظات مُحاولاً استيعاب تلك النقطة المبالغية التي أطاحت بطايتي، انتبه لوجودي فابتهجتُ ملاعجه وفتح يديه في ترحيب، احتضنتني وضرب ظهري بحميمية وكان يفوقني طولاً وعرضاً، ثم همس في أذني:

- يرك في بير.

وأشار إلى مريم بحركة مسرحية:

- يا حييك على اختيارك يا نديم، جمال ورقة وأدب.

ثم نظر إلى مريم:

- وباحييك طبعا، الرجل ده فعليا غير حياة ناس كثير، أنا شخصيا أكبر متابع لنظرياته.

توزد وجه مريم فضحك طارق ملصقا:

- ما تتكشفش، ده من كتر ما الناس بتجري وراء ما يستقبلش اتصالاتي، عشان كده قلت أجرب حظي وأزوره من غير معاد.

كبحت لسانِي عن سؤاله كيف عرف عنواني! موافقتي على خلع العدسة في ملاذه لسبعة أيام كانت الإجابة، رمقتُ مريم التي ابتسمت في وداعة فأدرت أنه لم يُغيرها بأمر الملاذ والأيام السبعة الماضية، فقررت تمويه إجابتي:

- أسف كان عندي شغل.

قال طارق: عامة أنا عند وعدي، وجيت عشان أسدد لك الرهان اللي اتفقنا عليه.

- رهان إيه؟

تجزع طارق كأس المياه ثم أشار إلى يساري. بيانو شويان كان مستقرا في ركن الغرفة، والروبوت ينسق الأساس من حوله ويرفع الصندوق الخشبي الذي جاء فيه، لم تكن تلك هي المفاجأة، ثانيا كانت تقف في رداء أخضر وشعر تضفر في جدائل رفيعة زادتها فتنة بجوار الهولوجرام الذي يث صورة من يوم زفاني بمريم، التفتت فابتسمت، ثم لوحت بأصابع مليئة بالخواتم:

- Hi.

أردف طارق:

- معقول نسيت يا دكتور! لما اتقابلنا صدفة في الفندق وتراهنا على العزف.

هزرت رأسي وابتسمتُ فقلت مريم:

- دي مفاجأة! إيه ما حكيتليش عن البيانو؟ إنت أول مرة تعزف من ستين!

نظرتُ إلى طارق الذي غمز بعينه، فأجبتها:

- كانت مفاجأة، أنا نفسي كنت ناسي.

عقب طارق:

- عزيزي، إنت عايشة مع بروفيسور في البيولوجي وعلم النفس التطوري وعازف!! لحن شويان طلع منه أحسن من مراتي اللي بتدرس البيانو! والرهان كان بيانو شويان الأصلي، بابا الله يرحمه كان اشتراه من مزاد، لغاية ما جوزك أبهر الموجودين كلهم، ماكانش قدامي غير إني أتنازل عنه.

كُنت مُجبرا على مسأيرته، هزرت رأسي وتمتمت بكلمات مُبهمة ثم قلت:

- إنت أخذت الموضوع جد، ده كان مجرد هزار!

- يا صديقي الرهان رهان، وأنا باحترم كلمتي.

- So Romantic.

صاحت ثانيا وصفقت، الهولوجرام كان يعرض لحظة تقبيل لمرم أمام الكعكة العالية، زفرت وكزرت على أسناني حين ابتسمت مريم وبدأت في سرد ذكريات ذلك اليوم:

- في الليلة دي عييت، ثلاث أيام حراري أربعين، لما عملت حساباتي بعد كده عرفت إن الكواكب ماكانتش في صالحِي.

غمزني طارق بعينه:

- الكلام ده متهيا لي يا بيعجيش دكتور نديم! احك لنا، إيه إحساسك وأنت بتحب خبيرة في النجوم!

يا معتوه كُف عن استخدام كلمات مستفزة لغزالتك التي اقتربت لتسمع، حافية تسير على أطراف أصابع مطلية بلون شعرها. أجبت:

- أكيد سيكون فيه متعة إذا النجوم وضيت علينا.

عبستُ مريم ثم تهلل وجهها حين أضاف طارق:

- طالما معاك مريم يبقى النجوم متفقة تسعدك.

- أحضر العشا؟

ذلك كان الروبوت، ضم طارق كنف تاليا:

- مفيش داعي إحنا جينا من غير معاد، خليها مرة ثانية.

نظرت مريم نحوي بعينين جاحظتين، تستحّني أن أطلب منها البقاء، طال صحتي قبل أن أبتسم:

- ما ينفعش طبعا.. لازم تعشى.

أمام المائدة جلستنا، ذُكر في مواجهة أنثى، وضع الروبوت فوانج الشهية والشورية، ولم يتسن لي وضع السيانيد في طبق طارق، خفتت الإضاءة وانسابت الموسيقى الناعمة إلى الأذان، لا يقطعها سوى احتكاك الملاعق بالصحن حتى قطع طارق الصمت:

- شورية الطباطم رانعة.

دائماً ما كانت مريم ومن قبل شرائي للروبوت طبخة ماهرة، حتى ضرب الشرخ بيتنا فبات أكلها صمغاً وقشاً.

قالت مريم: أنا عدلت الوصفة مع الروبوت، حطيت مكوناتي الخاصة.

قال طارق: أنا متبهر.

- حضرتك بتشغل إيه؟ (سألت مريم).

أجاب طارق: الشورية تمجن، تسلم إيدك، أنا يا ستي عندي بيت في الزمالك، باعمل...

خبطت ساق طارق فاستدرك:

- باعمل جلسات استرخاء وصمت.

اتسم يؤؤ مريم:

- أنا نفسي أجرب حاجة زي كده.

عاجلتها وأذا للطموح:

- صدرك مش هيستحمل حر ولا تلوث الزمالك.

علا الإحباط ملامعها للحظة ثم تابعت كأن لم تسمعني:

- تاريخ ميلادك كام؟ (سألت طارق).

ابتسم الأخير: ١٥ نوفمبر.

- عترب.

لا تستدع مريم صفات الأبراج من الذاكرة، فهي حاضرة دوماً في رأسها، تحفظها كأصابعها، ضمت كفها إلى صدرها في تضرع ورفعت عينها إلى نقطة في السقف تستحضر الكلمات:

- الدنيا عندك يا أبيض يا أسود، مفيش رمادي، عندك فضول للمعرفة، وتحب تكون صاحب المسئولية، مُغامر، طموح، مُخلص وكتوم، ما تحبش الخيانة ولا الكذب، وصفاتك السيئة الغيرة وحب السيطرة.

مز طارق رأسه وابتسم:

- بتتكلمي عني كأنك تعرفيني!

عقبت مريم: والشهر الجاي فيه سعادة، انفراج هم.

ابتسم طارق: بُشرى حلوة، أشكرك يا مريم.

ثم لامست مريم يد تاليا:

- وانت؟

ابتسمت الحمراء:

- تاريخ ميلادي للأسف مش متسجل، الفجر مش بيعجبوا يدوبوا في نسيح المجتمع.

أردفت مريم بإحباط حقيقي:

- خسارة، اللي مش بيعرف تاريخ ميلاده بيقتد كثير من معرفة نفسه، عاجباني ضفايرك جداً على فكرة.

ابتسمت تاليا:

- بعد العشا هاعملها لك.

ثم نظرت في عيني قبل أن تلامس ساقها ساقى، حذبتها للحظات محاولاً امتعاب ما تفعل، ثم تماكنت نفسي وتصنعت الانهياك في طبق الشورية حتى خفتت الأصوات في أذني، حديث مريم وطارق بات خريبر مياه بعيداً، قدم تاليا تصعد، تسلقني، أخطبوط بذراع واحدة، أصابعها تمشي على ركبتي، مريم تحكي عن النجوم، وطارق ينصت للهرأ باهتمام، أما تاليا، فتمارس السحر الأحمر، تدس قدمها بين فخذَي، تهرس النسل، حرارة جبهتي ترتفع، تقترب من حرارة الشمس، أنشع عرقاً، الآن عرفت لم تعيش النسوان أعمازاً أطول من الرجال؛ لأنهن لا يحرقن ربع السرعات الحرارية التي نحرقها عليهن، طارق الذي يتسم في ود، ينظر إليّ وفمه يقول شيئاً ما، وفجأة علا صوته في أذني:

- ولأ إيه يا دكتور؟!

أفقت فابتسمت: آسف كنت بتقول إيه؟
- كنا بتكلم عن بُرجك، مدام مريم بتقول...
قاطعت مريم:
- مريم بليز.. بلاش مدام.
أردف طارق بابتسامة:
- مريم بتقول إن بُرجك هوائي وعصبي، فقلت لها مش متفق معاك، نديم كان طول الوقت هادي، وكنت باخد رأيك، تفكر هل ممكن الإنسان يسيطر على صفات بُرجه اللي اتولد بيها؟
نظرت في وجهه للحظات منتظرًا ارتفاع القليل من الدماء إلى عقلي حتى أجيبه:
- أنا مش مؤمن بالأبراج.
قالت مريم متعمدة ألا تلتقي أعيننا:
- وأنا باقول إن الإنسان صعب يتغير.
ضغطت تاليا قدمها وقالت بخبث:
- متفقه معاك، أنا مثلاً وارثة صفات العجر، الحرية الكاملة، كل شيء مُباح طالما مش بتلذي حد.
كلمات الحمراء منطقية، فليس الاستسلام للصيد بمعصية، خاصة أن الصيد مع الوقت قد يتحول إلى الفريسة.
- أنا باقول إن الإنسان مهما حاول يهرب من ماضيه مش يقدر، والرحلة الحقيقية في الحياة هي إننا نعرف حقيقة نفسنا، وترفقي.
ذلك كان طارق، يُفتي بالحقائق بين رشفات مريم التي لم يرفع عينيه عنها، يُفتي وقدم زوجته بين فضي غي، تمالك نفسي:
- معرفتنا بنفسنا تبدأ بأننا نتصالح مع موقعنا في السلسلة الغذائية.
قالت مريم:
- ربنا مستحيل يساونا بالحيوانات، طاقنا مختلفة عنهم اختلاف تام.
تدلى فك طارق:
- عزيزي! إنت مؤمنة بالرب رغم نظريات جوزك؟ ده مجهود صعب جداً!
ترقرقت عينا مريم:
- أنا باحس بوجود ربنا، باحس إنني باحضنه، إنني عايشة جواه، جزء منه، ما تضحكوش عليّ، بس أنا باحس إنه هو الحب الأصلي.
عقب طارق:
- مستحيلة الحياة من غير رب، مؤلمة جداً.
- حياة مريحة لو نتعود عليها.
وأراحنا الروبوت بالطبق الرئيسي، خضراوات وأعشاب وقواقع، فكل من على المائدة نباتيون، باستثنائي؛ فأنا أشتهي لحم الغزال، الغزال الذي يُدلك الآن أذني الوسطى بأصابع قدمه.
ساد الصمت للحظات قبل أن تستطرد مريم:
- مش هتصدقوني لو قُلت لكم إنني كنت عارفة إنكم جاين.
ابتسمت تاليا: فعلاً؟ احكي لنا.
- القمر في البيت الثالث من البُرج بتاعي، ده معناه هاتعرف على ناس جديدة.
ثم ضاق حاجباها: لكن ليه بياناتكم مش باينة في العدسة؟
قال طارق:
- إحنا ما عندناش شريحة، بنفضل الحرية الكاملة.
جحظت عينا مريم: تصدق عمري ما فكرت في كده.
- لازم تجرب.
رمقتي مريم فهزرت رأسي اعتراضاً.
- بياناتك إنت كمان يا نديم مش باينة، إنت عطلت شريحتك؟
- كفاية وغي بقي، سيبني الناس تاكل يا مريم.
عقب طارق.
- تعطيل الشريحة بريح من شعور المراقبة طول الوقت، مع حفظ الدخول على الشبكة من غير قيود.
- أنا عاوزه أعمل كده.
ورمقتي كطفل يطلب الإذن باللعب في الشارع دون السترة الحرارية.
- أعتقد الفكرة مش مناسبة ليك.

- واشمعي كانت مناسبة ليك؟

أخرج طارق من جيبه الـ'Mayhem' وأردف:

- أنا معايا جهاز التعطيل.

- مفيش داعي.

- بليز، أنا نفسي أجرب.

زفرت نفساً من الضيق وابتسمت بصفرة ثم أومأت موافقاً، فقرب طارق الجهاز من مريم وضغط الزر، وصدرت الطقطقة، تأوهت مريم للحظة ثم ابتسمت بعينين دامعتين، رمقها طارق بصمت ثم ابتسم:

- حمد الله على السلامة.

انقضى انشاء بين عملية جراحية في المخ تمت بقدوم تاليا، ومجاملات وشغف تمارسه مريم حين تقابل الناس وحفا لوجه، كطفلة شرارة تحكي عن كل شيء عن نفسها وعن صندوق العجايب، النجوم والأبراج، وعن روعة وإعجاز المذنب الذي يشق السماء فوقنا في رحلته الكونية، المسكينة تؤمن بأن في ظهوره نبوءة من الرب ترتدي من أجلها أحجارها الكريمة جلباً للقدرة والبركات! وكان عني إنهاء الزيارة، فلوقت الطويل مع طارق وتاليا يعني أخذه ممتلئة. تصنعت التناوب لكن مريم تمسكت بفكرة الحلوى، كأنها من صنعتها! ابتسمت وأشرت إلى طارق أن يتبعني إلى الخارج متحججين بالتدخين، ووضعت عرفة المعيشة في نطاق عدستي كي أنزع تاليا التي سأتركها كالحية البيضاء بجانب مريم.

قمشنا حتى اختفى المنزل وخفت الأنوار، الرياح هائجة مضطربة تحبط الأذان ولا تسمح بحديث، اقتربنا من البحر فدلنا إلى كوخ أخصمه للمركب وأدوات الصيد، طارق كان يداعب عنق داروين الذي تبعنا ذلك الحائن، أنتزع منه جينات الشراسة فيسمع لغريب باقتحام بيتي! صرفته بأمر عقلي ثم التفت إلى طارق الذي ابتسم:

- لذيذ جداً داروين، ومراتك حقيقي يست لطيفة، يتحسد عليها.

ثم نظر للقارب: ما كنتش أعرف إنك بتحب الصيد!

- مُمكن أعرف سبب الزيارة!

ابتسم طارق:

- سبب الزيارة.. أولاً قلقت عليك، إنت بعد التجربة مشيت بسرعة، وما ردتش على اتصالي، كان لازم تفضل تحت الملاحظة يوم كمان، ثانياً، عشان أجيب لك البيانو، ده كان الاتفاق.

- أنا مش عاوز البيانو، غيّر رأيي، أنا عاوز أعرف إنت عملت في إيه بالطبط!

ضحك طارق:

- عملت فيك إيه! أنا استضفتك في الملاذ، خضنا تجربة ممتعة، وأنا نفذت الجزء الخاص بي من الاتفاق.

- اتفاق! أنا ما اتفتش معاك على الملاوس اللي شفتها.

- اللي شفته مخزون مدفون جواك، وطبيعي يكون فيه رفض لتصديقه.

- إنت عاوز تلعب بدماغي فأخرج من عندك وأشهد أن لا إله إلا الله مثلاً!

- إيمانك من عدمه مش قضيتي، ولو مهمم كنت نشرت نتيجة تجربتي، يكفيني تعرف بيها.

- طبعاً مش هتشرها، لأن تجربتك وهم.

- تجربتي ليها دليل مادي، الخاتم اللي شفته في حيانك السابقة.

طحنت ضروسي قبل أن أقالك نفسي!

- حياتي السابقة! إنت مصدق فعلاً ولا بتضحك على نفسك بالجهازين الخردة اللي فوق الكرسي؟

- إنت كنت في أقصى درجات الوعي.

- إنت هياأت لي الحدعة، ستة أيام بأشرب حاجات غريبة، واليوم السابع زرعته في دماغي ذكريات مش بتاعتي، والخاتم سهل جداً تخييه في الصندوق.

- مفتاح الصندوق كان معاك.

- فيه ألف طريقة تقدر تطلع بيها من الصندوق فيل مش خاتم، غير إنك تقريباً كنت بتحكي الحدث قبل وقوعه، كأنك بتذيع ماش.

- ده لاني شايف اللي بتشوفه في نفس اللحظة.

- أديك قلت.

- اهالة بتاعتك بتكون مفتوحة قدامي زي الكتاب، والـ'MRI' والرنين ورسم المخ بيحددوا موجاتك و...

قاطعت هراة:

- إنت مالكتش حق تزرع لي أفكار وهمية.

- إنت عارف إن زرع الأفكار بيتم بعملية معقدة جداً في مركز الذاكرة، وعُمر الذكريات المزروعة ما بتستبدل الذكريات الأصلية.

- جماعة «القيامة» ما بتطلش اختراعات، أنا مش ناسي إنك عايش وسط سوق النصاين.

- ما كنتش أتخيل إن عقليتك العلمية تعاند في تجربة خضتها بنفسك!

شرذت للحظات، كنت أتابع الزوجتين اللتين جلستا على كنبه غرفة المعيشة، مريم مستسلمة لتاليا التي تجدل لها الضفائر، تاليا تنظر نحوي وتبتسم! تابعت:

- أيا كان اللي إنت بتروّج له أنا مش محتاجه، ومش عاوزه يوصل لمريم؛ لأنها بتصدق في الحاجات دي.

- أي بني آدم بيّفكر بدون تحيز المفروض يصدق.

- ده شيء يخصني، ومريم مش مترنة نفسيًا، هشة جدًا، وما تستحملش تحوض رحلة زي اللي أنا خضتها.

- خايف عليها؟

حدجته باستكثار: طبعًا خايف عليها!

- رغم الفتور الواضح بينكم؟

- ده شيء ما يخصكش تتكلم فيه.

رفع كفيه:

- أنا آسف، كنت متخيل التجربة هتساعدك تفهم نفسك، لكن واضح إني ضايقتك، أرجوك، أنا مهتم أزيل سوء التفاهم بينا.

وقال كلمات لم أسمعها، خفتت في أذني وأنا أتابع غرفة المعيشة، انحنت تاليا على أذن مريم، همست بكلمات ثم قامت، اقتربت من الكاميرا، ملأت العدسة بعينها، ثم أخرجت لسانها فلهست شفيتها قبل أن تبتعد، مريم لا تتحرك! شاردة في الكرسي الشاغر الذي تركته تاليا! ثم عاد صوت طارق بغتة:

- أنا كل خوفي من العواقب.

- عواقب إيه؟

- دخولك التجربة كان بالتدريج، على مدار أيام، موجاتك عليت واحدة واحدة، زي الطلوع للفضاء، الخروج من التجربة له قانون، عقلك دلوقت زي رائد الفضاء اللي خرج للكون بدون ما يعادل الضغط، ممكن في أي لحظة تحصل له انتكاسة.

- أنا قادر أتحمّل تبعات اختياري.

- لو مكانك مش هاقول كده.

- أيا كان.

قلتها وشرعت في غلق باب الكوخ، تابع طارق:

- اللي جاي مش زي اللي فات، إنت حياتك اتغيرت.

التفت إليه مستكبرًا:

- حياتي أمر يخصني.

- الميكانيزم اللي ينشئ الحيات اللي عشناها يبحينا من مفاجأة معرفة حقيقتنا، المعرفة اللي المفروض ناخذ ستين، لما بتشوفها في جلسة واحدة، وارد جدًا يحصل صدمة، يمكن دلوقت إنت مش حاسس، لكن بعد شوية هتكشف.

رمقته ولم أعتب، مددت خطواتي حتى البيت تاركًا طارق يتبعني على مسافة، لم أنظر ورائي حتى وصلنا غرفة المعيشة، تاليا ومريم كانتا يتحدثان حديثًا توقّف بغتة حين دخلنا، ومقتني مريم بسكون عجيب، بلا أي تعبير.

ماذا قلت لها أيتها الحمراء؟

حكيت ما حدث بيننا في الملاذ.

لا أظنك تودين إفشاء سرنا الصغير...

- إحنا لازم نمشي.

قامت تاليا، وابتسمت مريم مُعاتبَة:

- لسه بدري! النهارده الكواكب في وضع تثليث، الطاقة هائلة والغال حلول.

نظر لي طارق ثم ابتسم مجاملًا: معلش.. مرة ثانية.

فتوسلت مريم:

بليز، خمس دقائق، لازم تشوف دائرة الأبراج.

نظر لي طارق مستشفيًا قراري فزعت شفتي بابتسامة، أشارت مريم بإشارة إلى السقف فخفتت الأضواء، ثم باعدت ذراعيها فتوهجت نقطة في منتصف الغرفة، ثم حدث انفجار مبهٍ، لقد خلّق الكون من حولنا، انفجار كبير أصدر موجة اخترقت أجسامنا، أخذت شظاياها تتسارع وتتبعده، مكونة المجرات والكواكب ونشمو. تدور في نظام عجيب وتبدل ألوانها من الحمرة إلى الزرق الباردة. رحة رمنية استغرقت مليارات السنين رأيناها في ثوان، ثم قفزنا من مجموعتنا الشمسية فرأينا كوكب راندا بين المريخ والمشتري. اقترب منه مذئب يضاوي المسار، يشبه المذئب الذي يمر بالأرض هذه الأيام، لينحرف فجأة فيصطدم بالكوكب، اهتزت المجموعة الشمسية بموجة عارمة قلبت اتجاه بعض الكواكب، وتحول الكوكب المجهول لسديم من الصخور والغبار، تدور في نفس مسارها، مليارات من شواهد القبور لكوكب مات، ثم تسارع الزمن لتتغير الأرض وتتباعد القارات عن بعضها البعض وتنفرد، قبل أن تلف مريم يديها في النجوم البعيدة وتشير إلى مجموعة تشبه في هيئتها العقرب، نظرت إلى طارق:

- دي مجموعتك.. المسها...

وأمسكتُ مريم بيده فقربتُها من النجوم، تخللت الأجرام أصابعه بوهج مبهر، وتخللت يد طارق وعشه، في عينيه نظرة امتنان دكورية، نظرة هم، بؤبؤ العينين حين يتسع ليمسح ملامح الأشي، أوووو!! الوغد زميل في الغابة!! فهد كنت أضنه مساندًا، يملك في يديه الغزال الأحمر وتشخص عيناه وراء آخر أبيض، تلك هي الأعراض الشرعية لكل من تزوج فتشوهت لديه حاسة الشم، مريم تحرك يده يمينًا ويسارًا، تحرك قلبه، وتغلي الدماء في عروقه، لولا اختلاف الأذواق لبارت السلع، أهلاً بك في الغابة، ولكن لا نظن أن الصيد يجانبني سهل؛ فاللحم الذي أمتلكه وإن بدا في نظري هينًا.. فهو مقدس...

اقتربتُ مني تاليا، همست في أذني وتعمدت أن تخرج الكلمات بأنفاس ساخنة:

- مراتك عاجة طارق، ما بتفكرش تبدل؟

كان ذلك حين أنهت مريم عرضها، توهج الضوء فالتفت طارق ومد يده بسلام:

- متشكر على الاستضافة.

قالت مريم: لازم تكررُوا الزيارة.

ابتسم طارق بودًا وقبل يدها:

- المرة الجاية في الملاذ.

ضرب الأحمرار وجه مريم: بنفسى جدًا.

والتفتُ لِيّ فهززت رأسي وابتسمت، كما ابتسم دائيًا أمام مطالبها، بدبلوماسية كاذبة، ثم أثرت الصمت حتى ارتفعت طائرتها.

حين ساد السكون وعاد البيت إلى صمته المألوف دلفت إلى عمر الغُرف، وفُتت أمام الباب للحظات أشرق السمع، ثم أدّرت المقبض، وكالعادة، كانت فوق كرسيها الجلدي المريح، تمز ساقها في حركة رتيبة، والروبوت بجانبها ينظف الغرفة ويرتب أغراضها المشوّرة.

كم أنت جميلة يا سلاف، كم أنت مُهجلة وغوغائية! لم تعلمك أمك يوماً ترتيب أغراضك، فالروبوت يقوم بكل شيء، تدلّي يا صغيرتي. كما شئت. استغرقني في عالمك الافتراضي الذي لم تعودني تغادرينه، ولن تغادره. لن أسأم يوماً تأمل ملاحظتك التي لم ولن تتغير. من رائك صغيرة لن يبذل مجهوداً ليميزك كبيرة، لكن إذا دقق النظر، فسيسترعي انتباهه تلك الحركات الثابتة التي تأتيها كل يوم كساعة حائط يخرج عصفورها كل ساعة.

- ما شفتكيش من يومين!

- آسفة، مسافرة برلين، الأولياد فاضل عليها ثلاث أسابيع.

- طيب الحصن يياخد عشر ثواني.

- حصتين.

- الآن دعيني أحكي لك... عنك...

- منذ ثلاث سنين...

وفي يوم يطابق ذلك اليوم، لم أخيل أني كنت أودعك يا سلاف، لم أخيل أن تلك هي المرة الأخيرة التي سأراك فيها يا صغيرتي وأقبل مفرق شعرك، سافرت إلى الأولياد وأنت لا تعرفين أنك أصبحت الكون الذي أحيا فيه، ومن خلال رشتيك يأتي الشهيق والزفير، لن تعرفي أنك كنت سبب عودتي إلى البيت كل يوم، ولم تكوني لتستوعي أن ابتسامتك كانت كافية لملء الخواء بداخلي، وإخماد غريزة صيد "نسون" التي توهج كل ساعة، لن تعرفي أن عينيك كانتا تُغنييني عن ثغابة بغزلاهما. وأن كلمة "إنت أحلى بابي في الدنيا" كانت قادرة على جعل الفهد المفترس أرباباً يستلقي في السرير بجانبك ليحككي الحكايات، كنت أُمي وابتي وزوجتي التي ارتقت بين النجوم.

في ذلك اليوم تكلمت معك عن مشكلة وزن الروبوت، ثم طلبت الـ "Jacket" قبل سفرك، من يملك صد إحصار بيديه يملك صد عينيك يا سلاف:

- بتحبيني؟

- يتسمين بعفوية وغم ما يعتمل في صدرك من ناحيتي طول سنين:

- إنت العالم كله.

وَقَعَ تلك الكلمة كان بعيد ترتيب خلايا جسدي، غبت في صدري ولثمت خدي بقُبلة، وفي اليوم التالي سافرت إلى برلين، تابعت ومريم أحبارك حقة بلحظة، حتى يوم البروفة الأخيرة قبل بدأ المسابقات، أرسلت ليند فيديو للروبوت وهو يتسبح بسلاسة، وقُبلتين لي ولأمت، وأوصيتني أن أغتني بها من أجلك حتى تعودني، ثم أخبرتنا أنك مضطرة لتقطع الإرسال حتى نهي عميد...

بعد أربع عشرة دقيقة ازدحمت عدسات الكوكب بالأخبار، متطرفو تنظيم "دافا" (*****) فجروا قنبلة نووية في استاد أولياد روبوت برلين...

في الموجة الأولى اختفت برلين من فوق الخريطة، وانقطع الاتصال بك، تبخّرت مع من تبخروا احتراقاً، ومن خلفك أربعة وثلاثون مليون إنسان واجهوا الرجفة الحارقة، ما بين بَرٍّ ودَقَرٍ تحت الانقراض وتشوّء في الأطراف والأرحام.

في ذلك اليوم، وفي اللحظات الأولى التي تلت معرفتي بالخبر، تباطأت الأفكار حتى سرعة ١ ملي في الساعة - وناهيك من صوت ارتطام جسد أمك تحت السلم حين سقطت - فلم أبك أو يُصنبي الانهيار العصبي، بل انتابني سكون لم أختبره من قبل، خلايا جسدي توقفت عن الانقسام، توقفت عن الدوران والاحتكاك، أعلنت الجذاد، وتبادت الخيالات في تعومة أحلام اليقظة، سلاف، ابتي، لقد احترقت في كسر ثانية، لا أظن أنك شعرت بشيء، لم تألمي ولم تُدركي، فقط ناثرت جسدك وتبدد، عاد إلى الطبيعة مثل حبوب اللقاح غير المحظوظة التي تُبعثرها النباتات قبل أن تذبل، كنت ابنة عمزة، بالنسبة لي فقط، لأنك ابتي، ٥٠٪ مني و ٥٠٪ من أمك، لكنك لست مميزة بالنسبة لعشرة مليارات إنسان يعيشون على ذلك الكوكب، الناس يأكلون ويضحكون ويتضاجعون في نفس لحظة موتك، لكنهم سيحفرون اسمك في حائط طويل يمتد من فرنسا إلى يولندا، يحمل أسماء ضحايا الانفجار وصورهم المتحركة وهم يضحكون، ومن بينهم صورتك؛ كائن نوعه "أنثى" من سلالة الهومو سابيان، عاش ثم مات مثل من ماتوا في الزلازل أو احترقوا في البراكين أو غرقوا تحت موجات تسونامي، ماتوا "بالجملة"، بسعر موفر، أما فيما يتعلق بالمشاعر التي تربطني بك، فلم أظنها ستتحاور مشاعر الجاموس نوحشي وهو يتبع صغيره بين فكي تمساح في بحيرة إفريقية، سأصرح، سأروح وأحيي، سأبش الأرض بحوافري، ثم أستسمن في النهاية وأنبع القطيع. لأننا نسل ثانية وأنجب غيرك، قل أن يصيدني البشر فيقتلونني ويحبوا بقروني على الحنطة، ليس فيها شيء مميز من دون الكائنات، ربما نحرر بطريقة مختلفة، مُبالغ فيها، بطريقة لا تؤدي إلى أي نتيجة، كان الموت مفاجأة لم تكن نتوقعها! كنه ما كان ليحدث لايتي أنا بالذات من دون السلالة، نظرنا ضيقة، مثل نظرة السمكة الذهبية إلى العالم من فوق مائدة الملاذ، مشوهة، نارس الوهم عن أنفسنا وتنصرع للإله الذي صغط زر الحرق في خفة غضب، آية عبقرية لتلطيف وقّع مصيرنا المحتوم، فأنوت غير وارد، واجئة في الانتظار إن أحسن السلوك، لن نلتقي يا سلاف ثانية - مقطع بلا ترجمة - ولن أستسحك، فانتظار أن تصل نسختك لمل عمرك الذي رحلت فيه يجعل مني ومنك كائنين من كوكبين مختلفين، الوداع يا سلاف - مقطع آخر بلا ترجمة - الإسعاف سيأتي بعد دقائق،

فشريرة أمك المزروعة تحت جلدها أرسلت إشارة استغاثة تومض الآن في حدقتي، بجانب التحذير من الموجة الحرارية التي ستصل إلينا بعد دقائق، ستزيد الحرارة اشتعالاً، وستير الغبار وتشوش على الاتصالات، ذكريني يا حبيبتي أن أشتري مياهًا نظيفة لأخزنها احتياطياً، وذكريني بشراء «Jackets» حديث مثل الذي طلبت قبل سفرك...

سُلاف! اللعنة، إنني أبقى! أعود للزمن الطبيعي! أسمع خبرك، أتلقى نفس الموجة الحرارية التي أحرقتك، الرجفة غير محتملة، الضلوع تحطمت، شظايا الرفة تفتت، القلب تورم ثم انشق، الحزن الأسود سال على السجاد وتسرب إلى الأرضية...

سُلاف ماتت...

أقننى أن تكون سعيداً في عليانك، متشياً! فحصد الملايين دفعة واحدة لا يستطيعه إلا جبار متكبر، من يأبه حياة إنسان وسط كون لانهاشي شديد الاتساع والبدخ؟

الآن تلوم الإله يا نديم؟!

إله من اخترعك، إله كنت تمنى وجوده كي تنهمم بالظلم!

شوائب إيمان ضحل تلقيناه صغاراً، فنشر الأورام في أجسادنا كباراً.

اللعنة على كل من أحاط عقولنا بيدين مُلوّتين، وكلاء الإله الذين تولوا تسويق التخويف والتعزير وتوزيع الغفران والتوبة، الوكلاء الذين اخترقوا القلوب وسيطروا على العقول بزئى الورع وقُبعات من ريش الألهة، الوكلاء الذين قتلوا سُلاف.

منذ ذلك اليوم تغيرت حياتي ومريم، إلى الأبد، وجودنا بعيداً عن دائرة الانفجار لم يخفف وقع الصدمة، من بعد سُلاف تحول البيت إلى مستنقع يفوح برائحة الكبريت، تنخلله سحابة سوداء ظالمة تغشى القلب وتحملا الرتين، مات العصفور الملوّن في قيلم أبيض وأسود، ماتت التي كانت تعيد ترتيب حلايا جسدي بابتسامة من شفيتها، تبحرت، وتركت مريم وراءها جثة هامدة، مع عقرب النواي كنت تمنحي، تزداد انشأء نحو الأرض، تسجد غصياً وتضرع، للخواء، حتى لم يعد بي قوة على جرّها، أهملتها دون عمد، حتى انسلت أصابعها من بين يدي، «أسف يا سُلاف! أميتُ تُغرق نفسك في مياه راكدة مليئة بالناحسين، لم أعد أرى إلا شعرها الذي لفخه الشيب، يطفو بين الحين والآخر، نتقابل في طرقات البيت كغريبين بينهما حدود بلاد، فقدنا الوزن والشهية، فقدنا أنفسنا، وضللنا الطريق في ليل لا قمر فيه. توقفتُ، عن الحياة، عن التفكير، عن إتمام رواية جدتها الورقية التي لم تتجاوز متصفها، وكان عليّ إشعال جذوة نار حتى أنتمس طريقاً، فاتخذتُ طريق البحث عن الأسباب، رحلة شاقة للتفتيش عن الإله الذي فعل، كان عليّ أن أحسم أمر وجوده من عدمه، إيجاد منطق لتصرفه، لسلكه، أو «التصالح مع فكرة أنه وهم صنعته بدأخنا منذ شاهد أجدادنا الصاعقة ولم يستوعوا مصدرها، ليتولى حكيم القبيلة التفسير، ساحر تحول عبر الزمن إلى رجل دين؟ دين قهر الفلسفة التي لم تصمد أمام حرمة البحث في معنى الإله، ثم تفجر العلم، ولم يكن الأمر سهلاً، فالتخلي عن البعث والقيامة، الجنة والنار، الرسل، المعجزات، الكتب السماوية، جُرأة ليست بهينة، وليس هناك من يُضلل نفسه عن عمد، فالمُلاحد «مؤمن» بعدم وجود إله، لكن هناك من يؤمن ويتعصب دون أن يفهم، دون أن يختار، فقد وُلدنا على دين آبائنا، ونحزنا بالمظاهر والتفاصيل، ولو وُلدنا في الهند لرسمنا «بوذا» على ظهورنا وأمنّا وأدعينا أن ذلك هو الدين الحق ولا دين غيره.

طرقْتُ باب الإله حتى فقدت أصابعي، سقطتُ بين قدمي ولم أنحنٍ لألتقطها، ومع ذلك لم يُبني أحد، ولم يخرج ملاك برسالة فارغة أو كوب ماء يروي عطش عابر سبيل، كل ما كنت أمل فيه إشارة، استجديتُ، شحذت، وأخيراً صرخت حتى تفرقت حنجرتي، وكانت الإشارة...

أن لا إشارة!

هنا أدركت أن ما كنت أطرق عليه لم يكن في الأصل باباً، كان ظلاً على حائط، رسماً من رسوم الجرافيتي، وكان عليّ أن أرحل؛ فموضة الأنبياء انتهت، والملائكة استكبروا على الاتصال بالبشر، ورغم ذلك فكلما ابتعدت متراً نظرت ورأيت بطرف عين، مثل الشيطان يوم طرد من الجنة تهزّوفاً مدحوراً، لعليّ أراه واقفاً، لعليّ أكون مخطئاً، لعله يمتحن جلدي وصبري، لعله موجود...!

كانت تلك آخر صلواتي، وحين لم أتلقِ إجابة تأكدت من خبر الوفاة...

نقد مات الإله...

بكيتُ كما لم أبك من قبل...

كما لم أبك سُلاف...

كما لم أبك أبي...

ثم توقفت حين أدركت أنني في تلك اللحظة قد تحررت تماماً...

أصبحت أصلي لنفسِي...

شعور خفيف في بدايته، أشبه بركوب قطار ثعباني في ملاهي أطفال، دون حزام، ستسقط فريسة لأفكارك آلاف المرات، ستعثر، ثم ستعلم التشبث بالحياة بيد من حديد. تصالحْتُ مع نفسي، لكنني لم أتصالح مع موت سُلاف، اتصلت «سراً» بشركة أعلنت عن خدمة جديدة أطلقت عليها اسم «Longing» (حنين)، أفرغوا عدستي من الذكريات القديمة، وبنوا المشهد الأخير في حياة ابنتي، برمجوه في عدستي كي يعمل بمجرد نظري للأماكن التي مرّت بها في البيت، يُعاد يومها الأخير في سرمدية يتوقف عندها الزمن، مع السماح لبعض الذكاء الصناعي المتصل بالشبكة من أجل تحديث الحوارات التفاعلية بيني وبينها إذا تطرقت لموضوع لم نتحدث فيه يوماً، ليتأكد «الإبقاء الكامل لديّ» بأن ابنتي مازالت على قيد الحياة...

مثير للشفقة، أليس كذلك؟!

هكذا مثُ وُعثت، على يد سُلاف، وهكذا تصدعت الأرض بيني وبين مريم، شقّ اتسع، وما لبث الزمن أن جعله في عرض المحيط، صعدتُ مريم بين النجوم، وبقيتُ أنا على الأرض، في الغابة، تتكاثف عصارة الغزلان في دمي ويداعب المسك أنفي ذاهبهم بحثاً عن رزقي، فهن الكائنات الوحيدة التي باتت تُشعرنني أنني على قيد الحياة، تضخ المسك في عروقي، تغلي دمي فتسبني حزني، وتُسبني

أنني مذموم متبوء، رغم أنني في أعنى لحظات اندماجي في الجنس؛ أذكر سلاف، فأنفصل، أرغني، أشخص ببصري إلى الفراغ وأنزل السيقان من فوق كفتي، ويتوقف قلبي ليسألني عما أفعله، ذنب رهيب يغمري، نحو مريم، ونحو سلاف التي أوصتني بها، لحظات تمر عليّ كما تمر على المصروع، قبل أن أفيق فأنسحب في هدوء وأغوص في عملي، أدفن رأسي وأنهك، أكتب محاضراتي؛ فتحطيم القناعات الزائفة في عقول المقيّنين يشبه تحطيم أثاث البيت إخراجاً للغضب والصرار صير المجنحة، بالإضافة إلى فرصة تحطيم نفسي بطريقة تروفتي، فالأرض هي الجنة التي لن أشعر فيها بملل، هي أفضل بأي حال من حياة لانهاية أكل فيها الفواكه دون جوع، وأطأ فيها النسوان دون صيد!

لماذا لم أهجر مريم؟

لماذا لم أطلقها في الغابة حتى تجد حريتها أو يجدها فهد فيفترسها؟

لأن مريم فريسة سهلة، تستقط دون فخ، دون شرك خداعي، تستقط إذا التقطت أذناها زئيراً على بُعد عشرين ميلاً، تستقط مينة من الرعب، فلا عهد لملئها بهرب، ولم تكن من العزم لتحمل إصابة قاتلة تقويها، أو ظلام غابة بين غزلان منافسات ربّين الأظافر وحفزن الأثداء...

ولاني أحبها!

لذا لا أراها غزالة...

لا أراها هدفاً...

وبالطبع لا أستطيع صيدها...

{***A***} دافا: تنظيم الدولة الإسلامية بفرنسا وألمانيا، وهو تنظيم متطرف انشق عن تنظيم «داعش» الشرق أوسطي متبنياً أفكاراً أكثر تطرفاً.

بالطبع أشتت مريم على طارق بعدما رحل...

وسمته بالنبييل الوديع الدمث اللطيف اللذيذ المرح، ولم أغر، فأنا لا أستوعب - رغم إدراكي أنها أنثى - أن مريم قد تميل للذكر آخر؛ فالرجال عندها لطفاء فقط لأنهم ليسوا نساء، يفرن منها ويحسدنها، فمريم تشعر بنظرية المؤامرة تجاه كل أنثى، ولها بعض الحق صراحة، بل كل الحق، فقد ضاجعت نصف من أذعن صداقتها، ومن لم أضاجع منهن أرسلن لي الإشارات وفاحت هرموناتهن حتى أنفي، ولم يمنعني سوى أجساد ترهلت ويشت.

من نظريات صيد الغزلان «فوق سن الأربعين»

الغزالة التي تحطت الأربعين تمتاز بالياس، السن أمامها، والعشق خلفها، تضع نفسها في مقارنة - غير عادلة - مع صغار الغزلان الحرة، تقايل في السرير بشراسة لبوة جريحة، ولا تدرك المسكينة أنها حتى وإن كانت ملكة قطع الغزلان، فالبقاء دائمًا وأبدًا يبقى للبطة المرنة ذات الجلد المشدود والليونة في فتح الخوض...

التوصيات:

طأها بعنف، حتى ينفك «Extension» الشعر، حتى تنساقط رموشها الصناعية، حتى تحتك أسنانها بالبلاط، وحتى تلتقم خيوط السجادة مثل المكرونة الاسباجيتي، بنهم، وأحرص على عدم التعلق بها، فتفشي العاطفة بداخلك سيجعل القلب يستأثر بالدم حتى يختنق العقل، ولاحظ، أن في اللحظة التي ستشعل فيها «الأربعينية» سيجارة ما بعد الوطء وتشخص ببصرها إلى السقف شاردة، فلأنها بنسبة ٩٧٪ تفكر جدياً في الزواج منك، حتى تضمن المدد، والخلود الدائم لذلك الأداء الذي هدأ كيانها وأعاد بناءه؛ لذا ودّعها بابتسامة رقيقة، إلى أجل غير مسمى، فالمعجزات الإلهية من الأفضل أن تحدث مرة واحدة فقط كي تصير فريدة.



عودة لما حدث بعد رحيل طارق وغزالتة...

كمعادتها مريم، تشغلها نعيمة ما بعد الزيارة - مؤقتاً - عن الاستغراق في عالمها الافتراضي، فنحن لا نستقبل الزوار إلا فيما ندر، تسترجع لحظات اللقاء في عدستها، تُعلق على كل لفظة وكل همسة، بدءاً من رأيي في شعرها الذي ترسله خلف أذنها كل بضع ثوانٍ، وانتهاءً باسترجاع عبارات الشاء على ديكور المنزل وعلى الطعام الذي لم تطبخه، وبالطبع راقبت عيني مريم في اللحظة التي دسّت تاليا قدمها في عجلي، لم أتحذّر ساعتها ردة فعل تتوقف عندها، وموهت الكلام حتى لا تسألني عن جذور معرفتي بالفجرية وزوجها، ثم توقفنا عند صدر فستان تاليا الأزرق المفتوح الذي طلّت منه ثمرتا الجنون.

- مغرورة.

لم أعلق رغبة في غلق الموضوع، لكنها تابعت:

- كثير اللي عاملاه على زيارة في بيت، تحس إنها جاية تستعرض!

مططت شفتي، وكان صدر تاليا بحلمتيه لا يعنيني، تابعت مريم:

- حاسة إني شفتهم قبل كده.

كانت تتحدث عن الزوجين وليس عن حلمتي تاليا، قلت:

- ما أفضش، دول عايشين في الزمالك، إنت ما رحتيش الزمالك من عشرين سنة مثلاً.

- تاليا دي مش مريحة.

- وإيه الجديدي؟

- يعني إيه؟

- يعني كل الستات عندك مش مريحين.

- مش كل الستات، أنا باقدر أحس باللي موجائها مش مطبوطة.

أفكار مُفيدة في معاملة الغزالة المنزلية

تملك كل أنثى رادارًا حساسًا لرصد نيات الغزلان الأخرى، فمن الأفضل عدم التعليق حتى لا ترتفع ذبذبات الشك.

- آي كان ..

- بس برضه حاسة إني شفتهم قبل كده، يمكن في حلم أو...

تناهت عليها تُنهي الحوار...

- لكن ما حكيكيش إنك اتراهنت وعزفت، وعجبت الناس!

- أنا هارجع البيانو.

- الراجل جابه خد هنا، والله لطيف.

أفكار مُفيدة في معاملة الغزالة المنزلية

تملك كل أنثى رادارًا حساسًا لرصد نيات الذكور،

رادارًا يتحقق بنسبة ٧٧٪.

وتابعت مريم وكأنها تُحدث نفسها:

- ولو إن منظرهم من غير البيانات حوالهم يخوف بصراحة، أكيد هتبقى مفاجأة لما الناس تشوفني أنا كيان كده، بس أنا حاسة إنه بيعجبها، بص كان حاطط إيدَه على وسطها إزاي لما دخلوا!

آه لو تعلمين أين كانت قدمها منذ دقائق!

- وبُص بتبص لك إزاي وهي بتاكل!! مش طبيعية البنت دي.

أفكار مُفيدة في معاملة الغزالة المنزلية

تستخدم المرأة كلمة «بنت» لمناسبة محتملة حتى لا تقارنها بنفسها، فهي السيدة، وكل غزالة عهددها فتاة مراةقة لم يبت ثديها بعد...!

- كفاية وُهم.

- ده مش وُهم.

- اتكلمتوا في إيه لما خرجت مع طارق؟

- كانت بتحكى لي عن طارق في السرير.

سرتِ الموجة الساخنة خلف جلد وجهي:

- يعني إيه؟

- «She is a Bitch» رغم إنها جميلة، وبتعمد تخيطني، بتشتكي إنه بيتعبها جدًا بطلبه ليها كل يوم.

ألفتها غيرة، ورغبة في استفزازي؛ فالغزلان حين يشعرون بتهديد يتعمدون وصم بعضهم البعض بالغُهر، فهي الصفة التي ستُفغر الصيادين من الرجال فيهن...

ولكن مَنْ قال إني أنوي الزواج؟

أفكار مُفيدة في معاملة الغزالة المنزلية

اتركها تُلوث ضرعها وتشفي غليلها، هي لا تعلم أنها تضع على صدرها نيشان الأنوثة، وإذا أثنت على جمالها - رغبتا عنها - فهي تُطمئن نفسها وتثبت لك أن تلك الغزالة ليست بمصدر تهديد.. ولكنها كذلك.

- هي عجباك؟

- إنت لسه بتقولي جميلة.

- أنا شايقة عينيك.

رمقتها ولم أُجب، هزت ساقها بعصبية وزفرت بنفس مسموع ثم قامت، وقد مضى زمن السعي وراء مريم لاسترضائها، ذهبت إلى البيانو، رفعت غطاءه فوجدت رسالة مطوية في ظرف قان: «الحقائق العظيمة بدأت كإهانات للإله.. جورج برنارد شو»، عبارة كُتبت بقلم حبر رفيع وبحروف فرنسية أهوى، هناك من الناس مَنْ يتم كثيرًا بإيهاك من عدمه، يسمعونك ثم ينقدونك بابتسامة قبل أن يُثرثروا بالحديثات والقناعات مع الآخرين، حتى تمل فتتسحب فيذلوا الرخيص والغالي «بيانو شوبان مثلاً» حتى ينعموا بهدايتك إلى الصراط المستقيم، يبدو أن الإله يعطي العلاوات لمن أتى بزبون جديد إلى جنته...

طويت الرسالة ووضعتها في جيبِي، تأملت اللوحة النحاسية الصغيرة المكتوب عليها ماركتة «Pleyel»، قبل أن أرفع الغطاء عن أصابع عانقت أصابع «شوبان» يومًا. نسيت الخاتم، ونسيت الحلم العجيب، وتناسيت فترة إقامتي في الملاذ، فقط استدعيت ناليا فغمرت رائحتها فصي المخ، وبدأت العزف، مغيرًا رأيي في الهدية، راجيًا ألا أضطر يومًا لرددها لرؤية صاحبة الشعر الأحمر.

في اليوم التالي امتلأت المدرجات عن آخرها حين توسّطَ المسرح الروماني، خففت أضواء المسرح، وتوهج العنوان فوقه باللون الأحمر، اخترته تماشياً مع الفكرة الجهنمية العتيقة؛ «الشیطان»، ارتشفت جرعة ماء وأنا أتفحص الصفوف للمرة الأخيرة لعلّي ألحح حمراء الشعر، قبل أن يصيبني الإحباط، فبحساباتي كان لا بد أن تأتي اليوم، علينا أن نتواصل، وكان لا بد أن أبدأ المحاضرة. أعطيت الأمر للعدسة فبدأ عرض الصور هولوغرامياً من حولي، صور لرسوم ومخطوطات قديمة تجسد شكل وفكرة الشيطان عبر التاريخ، توسّطها لوحة «الجحيم» للرسم «جيوفاي دا مودينا» من كنيسة «سان بيترينو» ببولونيا الإيطالية، والتي تقدم جحيم دانتي في أقصى صورته، شيطان أسود يأكل إنساناً، ويتغوط آخر من استه، ويقدمه يسحق العصاة، ومن حوله المعذبون معلقون من أرجلهم، تبقّر الشياطين بطونهم وتلتهم الأحشاء!

تركّت الأعين لتمتلي وتتشبع بقسوة المشهد قبل أن أبدأ الكلام:

- «شيطان»... لفظ خارج من جذر عبري قديم بمعنى «سَطَن»، ومعناه المقاومة والعناد، والاسم الثاني «إبليس» يرجع لأصل يوناني «ديابولوس»، ويعني الشخص الذي يشتكي بالزور، ومنها اشتقت كلمة «Devil» في اللغات اللاتينية، من أسائه كيان «التيّن»، «الحية القديمة»، «الكذاب»، «علازوب» ومعناه إله الذباب، «علازوب» ومعناه إله الزبالة، و«بليعال» و«لوسيفر» حامل النور... كان خفي من طائفة الجن، مُقيم وسط الملائكة، لسبب مش معروف، وفيه بعض النصوص يشير إنه كان واحد من الملائكة المقربين بالفعل، كيان قوي له مكانة وتاريخ من الطاعة وعبادة الإله، والأهم، إنه كيان يملك حق الاختيار... ده كان لغاية ما حصل إعلان إلهي عن مُرشح جديد لحكم الأرض، إنسان من البشر! الشيطان تقى الأمر بالسجود لمخلوق بشري أضعف وأقل في خلقه، برفض، الطين من وجهة نظره مش زي النار، وبعد مجادلة فريدة مع الإله يطلب الخلود، ومبارزة البشري عبر التاريخ عشان يشبّه جدارته، فيجابه الإله بالرفض، ويُحكم عليه بالطرْد من الممكلة، فيخرج بدون أي أمل في العفو، كله حقد وغل على سبب طرده: «الإنسان، وتبدأ أشهر معركة في التاريخ... حرب تمتد لآخر الزمان، وتنتهي بمعركة فاصلة! معركة محسومة قبل ما تبتدي! لصالح الإله والبشر! إحنا ناقشنا في المحاضرة اللي فاتت أسباب خلق الإنسان لفكرة الإله؛ الفزع من الموت زرع جوا البشر فكرة وجود إله يرعاهم ويحميهم من الشيطان، تعالوا نرجع لبده التاريخ، في البداية، الإنسان تخيل إله عظيم وهيب، مُدبر حكيم، خلق الكون بإتقان ودقة، ولأن الإنسان دائماً يعكس صورة نفسه على الآخر، عكس على الإله صورته، شاف إنه يشبهه في الشكل، وشاف إن الإله يتعب بعد خلق العالم ومحتاج يريح، وكان شاف إن الإله أكيد رئيس، وضروري يكون تحته موظفين، زي كل زعيم قبيلة، فكان لازم يخلق آلهة كتير، تساعد الإله لأن الكون ضخم، مش ممكن إله يديره لوحده؛ إله للشمس، إله يعجن الطين ويخلق البشر، إله للزرع، إله للنهر وواحد للمطر، وطبعاً واحد رفع السما وواحد سكن القمر، وبالتبعية كان لازم يكون للآلهة مساعدين، فتخيل الإنسان وجود وسيط بين البشر والآلهة، الملايكة، كل شيء كان ماشي كويس لغاية ما الإنسان حس بضرر الطبيعة اللي المفروض إنها تحت سيطرة الإله! براكين، زلازل، أعاصير، طوفان، حروب وقتل، فكان لازم الإنسان يخلق إله للرد وإله للنار وإله للحرب... آلهة شريرة! وهنا حصل تساؤل: هل الإله الأكبر هدفه يمنع الشر عن مخلوقه المميز؟ ليه هو غير قادر على المنع؟ ليه يواجه الشيطان عن طريق ملايكة أو عن طريق الإنسان؟ ليه ما يقضيش عليه بقرار؟ هل ده يعني إن الإله غير كامل القدرة؟! ولأقادر لكن رافض يساعد البشر؟ هل الإله شرير؟! لأن عنده رغبة وقدرة لكن رافض يساعد؟ هنا ظهرت فكرة «الشيطان»؛ أهم ابتكارات الفكر الديني، الإله بعد وجود الشيطان في القصة، أصبح خير تقى، مش ممكن يكون مسئول عن أفعالنا الضالة أو قسوة الطبيعة علينا، ولأنه ميز الخلق بالحرية حصل ضده قرد خفيف، كائن في لحظة غباء يعترض، فيتحوّل رمز للشر، مصدر الخطايا والموبقات اللي هيمتحن البشر بالوسوسة، حتى الأنبياء مش هيسلموا من شرّه، الشيطان هو المسئول عن خروج آدم من الجنة، هو سبب الخطيئة الأولى، هو سبب الصرع والجنون والمس، وهو المسئول عن الوسوسة الشخصية، حاضن الإنسان زي الأخطبوط، وماد من بقّه خرطوم طويل يوصل للقلب مباشرة، يصب منه الإغراءات عشان يضلّل سلالة البشري فيدخلهم

جهنم (*****)، وطبعاً كنت عارفين - وهو أونا بالمناسية - إنه في الآخر مهزوم! اختراع الشيطان ساعد البشر يشبّوا عُقدة الدُنب من فوق أكتافهم، أصبح فيه كائن شرير متربص، وتولت الكوايس ترسيخ فكرة وجوده، طالما بنتقل لمكان تاني وإحنا نايمين؛ يبقى أكيد الشيطان بينحرك بنفس الكيفية، بنفس الشدايق، ولو روحي مش في جسمي عمتل كيان تاني يحنّنها.. في سنة ٢٠١٢ اللي حطت فيها مركبة «Curiosity» على المريخ واكتشفنا ثقب أسود أكبر من شمسنا بسبعناشر بليون مرة، ظهرت في القاهرة رواية اسمها «القبيل الأزرق»، الرواية دي حكّت عن شيطان اسمه «نائل» (Incubus) أو «مُضاجع» يبعث أجساد الرجال بعد تعويذة استدعاء من ساحرة، عشان يبارس الجنس مع الأنثى البشرية، والدافع شهوة الشيطان ناحية الجسد الطيني والحقد عليه! مش ده الغريب، الغريب إن الرواية كان أكثر قرانها من المثقفين، صدقوا المحتوى واندجوا، اترعبوا، منهم اللي نزلوا اشتروا كتب سحر قديمة زي «شمس المعارف» و«أكام المرجان» في أحكام الجن! عشان يفهموا أكثر عن العالم ده، ومنهم اللي هاجموا الكاتب بدعوى تفتيح عيون الناس على عالم الجن والمعاريف! رغبنا في وجود شيطان نمسح فيه خطايانا تفوق تمسكنا بوجود الإله نفسه، الإله اللي اختلفت الأديان على تخيل شكله، لكن ما اختبشش في وصف الشيطان بكل صفات اني مش عاجوزين نشوفها. لسه مش واخدين بانكم إنا صبغت على الرب صندت الغضب والانتقام والجبروت والتكبر، الصفات اللي بنعاني منها! الرب اللي خلق الكون المبهّر ده ممكن يغضب من عبد بلا وزن؟! وليه خلقنا ناقصين؟ وليه يلومكم على خطاياكم ويدفعكم تمن نقصكم وضعفكم وشهواتكم اللي هو زرعها فيكم؟ ببطل عباداة يومية، وفي نفس الوقت سايب الأرض تنقسم لمسكرات، كل جماعة أعلنت نفسها الفئة الصالحة واعتبرت الباقيين الفئة الفاسدة، فنة الشيطان اللي أصبح..

وبترت كلامي حين رفعت يدي ملوحاً ناحية صورة من الصور، خاتم الحاخام الذهبي كان في إصبعي البتصر!

لا أتذكر أنني أخرجته من الخزينة حين اتخذت طريقي إلى المحاضرة!

ارتفعت المهمات حين أطلت النظر لأصابعي قبل أن أبتسم مُكملاً:

- الشيطان الي أصبح أهم عامل من عوامل التوازن في الأرض، الشيطان الي رَسَخ عرش الإله في السما ونقى صورته من أفعال الشر، أصبح فيه خير مطلق وشر مطلق، أبيض واسود، وتاه البشر بين كلمة حُبِّر ومُسَيَّر...
فجأة توهجت حدقتاي فتوقفتُ عن الكلام كتمساح سُلطت عليه أضواء الكشافات، لوهلة، لمحت بين الصفوف تاليا، رفعت يدي لأحجب النور فتبينتُ أنها سيدة أخرى تنظر نحوي في صمت، ابتلعت ريقِي وتابعت:
- سيداتي سادتي، الشيطان - إذا كنتم مصممين على الفكرة - هو كائن عاش ومات، زي كل كائن حي، مخلوق ظلمناه، شوّهناه، خلياته المسنول الأول عن خطايانا، أعتقد جه الوقت نفهم إن الشيطان الحقيقي ببساطة.. هو إحنا...
وكان عليّ بتر كلامي نهائياً، تلك المرة لم تكن من أجل الختام، أو تخيلي لتاليا ثانية بين الصفوف، كان من أجل بيانو شوبان الذي تركته في البيت، بيانو شوبان الذي استقر في منتصف المسرح الدائري...
بجانبي!

حين ارتقت الطائرة في الهواء راقت زجاجة الماء بين أصابعي، الرعشة غير معهودة، انسكبت القطرات على قميصي، رويت حلقي الجاف ثم طلبت من العدسة استرجاع الدقائق الأخيرة في المحاضرة...

كنت أحدث بلباقة كمادي، مثير وأنيق وفي قمة تركيزي، أوزع اهتمامي على الجمهور بالتساوي، أطيل التحديق في الإناث حتى يرتبكن، وأشير للهولوجرام الذي جسد صورًا للشيطان عبر العصور، وفجأة، تبيست، بترت كلامي، أنظر إلى يساري باستغراب، الرهوس تتحرك معي، يظنونني أمثل مشهدًا في قصة الشيطان، أمد يدي نحو الفراغ، أرفع غطاء خشبيًا وهميًا، وأعانق أصابع بيانو غير مرئي، لولا إقلاعي عن الحصان لأقسمت لبني رأيت بيانو شوبان على المسرح بجسبي خفتها، وحين انفتحت إلى الناس كانوا برمقوني والإيهار في حدقاتهم، وكانوا بشرًا آخرين! رجالًا في بدلات سوداء، ونساء ارتدين فساتين السهرة! وكان بين الصفوف طارق، يجلس ويجانبه فتاة في فستان أحمر صارخ، يضمر أصابعه في أصابعها، وعيناها تتابعاني في إعجاب!

ذلك لم يكن في الفيديو!

ذلك ما أتذكر رؤيته حين كنت في المسرح، قبل أن تتاب عيني غشاوة سوداء، الأنوار خفتت، والأصوات تلاشت، ثم أفقت في الطائرة وقد مر من الوقت إحدى وعشرون دقيقة لا أعلم فيها أين كنت! لذا تابعت المشهد حتى أعرف...

رأيتني متيسرًا على المسرح، أنظر للناس وللبيانو - أقصد الفراغ - ثم أتوجه ناحية المدرجات، ناحية امرأة جميلة تجلس بين الصفوف بجانب رجل، نظرت إليها حتى تحرك الناس فوق كراسيهم ترقبًا، قبل أن ألتقط وردة بيضاء من عروة شترني وأنفيتها إليها! السيدة ترفع يدها لتلقى الوردة في ذهول، ابتسم، ثم أحبي الناس بانحناءة مضاعفة ثيران، صفقوا بفور ثم علا الوهج رهوسهم، يتساءلون عن الشيطان، ابتسمت بود ثم رفعت يدي ثانية وانسجبت من المسرح وسط مهمات الاستهجان!

- أنا قادر أحمّل تبعات اختياري.

- لو مكانك مش هاقول كده.

اللعين كان يهددني، في بيتي!

في موسم صيد الغزلان، من الطبيعي أن تطارد كائنًا رقيقًا مثيرًا للشبهة، سريعًا، عفراء الغريزة الصيد، لكن أن تضطر لمواجهة مفلس مفلس على غزاة ترغبه، وحكمة تقول «انسحب»، لكن التستوستيرون يضخ «تنهز» في أورددت ليأمرك «واحه المندفس»، المعركة ستكون أشرس وأطول للحصول على الأنثى، لكنها معركة تزيد الإثارة إثارة وتنفع في الأنف نازًا من الزهو.

طارق أرادني أن أعترف بتجربته، أن أؤمن بالحياة الأخرى! بعالم الأرواح... بالإله! حتى يعلن انتصاره في الأوساط العلمية والدجلية بشهادة من أكثر المشككين يقينًا، ما كنت لأتحيل يومًا يمتز فيه عقلي بذلك الشكل، وما كنت لأفكر في أخذ ملابس داخلية معي لعملي أخوض حياة أخرى، صرحت ضحية لنصاب ليس له بيانات في النظام، ذرع في عقلي بذور الجنون حتى يتملكني، فيروسا سيطر على مركز الذاكرة في عقلي، والآن هو سيد اللعبة...

أمّرت العدسة أن تفحص رأسي ففعلت، بعد دقائق جاءت النتائج سلبية، لا شيء مزروع في غني ولا جرح دخول منها بلغت دقته، ولم أردد إلا قلقة، لذا توجهت إلى مركز طبي بجوي الأجهزة الصمخنة الباهظة التي مزالت توحى بنقته، تردد الطبيب بدوره حين لم يقرأ حوي أي بيانات، ولم يقبل الفحص حتى حوت له مئات البيبتكوين في حسابه، ثم حكيت عن الهلوس التي تتابني ولم يسألني عن مصدرها، فالآلات تعرف كل شيء، طلب مني خلع ملابس كاملة وأدخلني إلى حوض الفحص، غطست في المياه الزرقاء ودارت المجسات حوي كائنات، تبحث عن فيروس محتمل، ثقب اختراق ونسلًا، موجة مريبة تأتي من مركز قرب الذاكرة، مبادئ صرع في النقص الصدغي أو اضطراب ثنائي القطب، أو ربب بقايا حلم غزلان تعفنت في ركن. دقائق وخرجت النتائج مقلقة، لا شيء! كنت أتمنى أن أجد وربما سرطانًا يتلوى حول المخ كالأخطبوط على ألا أجد شيئًا، فما عرفت سببه بطل عجيبة وأصبح قابلاً للتفتين والقتل، فقط موجات «تيثا» بدت أعلى من المعدل الطبيعي، ولا شيء خلف علامة جهتي التي طلبت فحصها شكًا، تلقت نظرة تأنيب حين أشار دمي إلى وجود كيمياء دخيلة، وبالطبع هناك إجهاد عام، أعطاني الطبيب جرعات مكثفة من مشتقات الفينوثيازين لمنع الهلوس وتولت المجسات التي لامست فروة رأسي ضبط موجات المخ، ثم أمّرت بالراحة عدة أيام قبل معاودة النشاط.

بالطبع لم يكن يقصد نشاط الصيد...

قضيت في البيت يومين هادئين نحاولًا العمل على أبحاثي، أودعت الخاتم في الخزينة، وطلبت من الروبوت إعادة تغليف البيانو حتى أعيد إرساله إلى الملاذ، التقت أقرص منع الهلوس وشريت الكافين ثم بدأت العمل، الانشغال والتركيز بتطليان تصفية الذهن من مسك الغزلان، عصارة نالها، وبالطبع الحرب من حوارات مريم وكواكبها بحجة الانشغال، أو بالجنس العابر إذا توفر، في النهاية قضيت الساعات في تركيز لا بأس به، فالعمل تحت تأثير التستوستيرون يدفع بالأفكار كحُمم البركان، إلا إذا اجتاحتني أعراض الانسحاب، من أؤمن الغزلان يعلم جيدًا ذلك الشعور الجارف، حية ذات حراشف تتحرك بداخلك، تمد جسدها من إحدى ساقيك حتى قاع المخ، تتلوى ببطء ولزوجة حتى تشنّج عضلاتك، تبعثر الأفكار والأعضاء من حولها، وتضغط الدماء في العروق، للمرة الثانية، بعد المليون، أستعيد - بإخاح لا إرادي - خطائي مع نالها. من دون الغزلان لا أتذكر أنني قد اشتبهت أشي مثلها، رغم أن ذوقي بسيط، فأنا لا أشتهي إلا أغلى أنواع الغزلان وأندرها، لكن لم تلح علي الرغبة في أكل إحداها نية من قبل، ولم أكن أعلم أن اللحم الأبيض المشور نمشا أخف أنواع اللحوم على المعدة...

- كفى...

صرخت بداخلي حتى انسدت أذناي...

«ليست تلك آخر أنثى، اتصل بأحد الذئاب من الأصدقاء، فليصحبك إلى أخي الغربي، ولتلتزم بنظريات الصيد:

حين تلح عليك أنثى وقد ملكتك بالكيمياء إدمانًا وشغفًا، عليك بمطاردة أجل غزالان الأرض، استمتع بتعطيم حواجزهن، ثم أطلق نحوهن خطافك، جرجرهن وراءك، املاً أنفك بالرحيق، دُق اللحم الشهى بنهم وأغرق صدرك بالدماء الحارة، أفرغ عصارتك حتى آخر قطرة وأترك بقشيشًا، ثم علق جلودهن على كتفك وعراقيب السيقان في ميدانك، وتذكر.. لا يفل الغزال إلا غزال مثله.

خرجت إلى البحر وشرعت في البحث عن صديق حين تحركت الحية بداخلي، أشعر بها بين خمي وعقدي تنلوي، تتسلى ساقني متجهة إلى أعلى، مهرص خصيتي، تزيج الكبد بقل، ثم تصل إلى رأسي، تبحث عن مخرج! الصداغ المباغت لا يُحتمل، والعدسة تومض بالتحذيرات في فرع، أشعر باللسان المشتوق يلحس طبخة أذني من الداخل. تضغط برأسها، تحتتر سُمكها، ساء الصمت للحظات قبل أن تندفع فتمزقها...!

خرجت لتستقر أمامي على الرمال، عملاقة بيضاء، لزجة، لها عينان حراوان وتميز ذيلًا له رنين الأجراس، تطابق حية جابر الحاوي التي رأيته في غرفة الأموجة الثالثة! رمقني فأصبت بالشلل، قبل أن تندفع نحوي، نشبت أنيابها في عنقي بنحيح غثيف، فضربت الهواء في فرع وتراجعت خطوات فتعثرت وسقطت على ظهري، وكان آخر ما رأيته، ذيلًا طويلًا يغيب في مياه البحر تاركًا وراءه طريقًا ملتويًا على الرمال...

لم أبتلع وريقي...

ولم أبدل حتى ملاسبي، فقط ارتديت السترة الحرارية وارتميت على الكنبه ثم همست «الزمالك»...

للمرة السابعة تومض العدسة بعد الفحص، «جسدك خالٍ من السموم»، رغم الورم الدموي مكان قبلة الحية البيضاء، ورغم الكهرباء الصادرة من المخ أعلى من معدلاتها، ورغم ضربات القلب غير المنتظمة، أدلك عنقي بمرهم مضاد للبكتريا وأقاوم اضطراباً في أعصابي يكاد يفهم الكرسي من تحتي ويشعل الطائرة، لقد حذر «هارولد كابلن» في كتابه عن علم النفس من «احتفال كبير بأن معتقدات المنوم المعنوي تنتقل إلى المريض، وقد تصبح جزءاً حقيقياً من ذكرياته بدرجة عالية من الاقتناع»؛ لذا حظرت المحاكم استخدام التنويم كدليل أو حتى أداة من أدوات التحقيق، بالإضافة إلى أن الجمعية الطبية الأمريكية صرحت بأن الذكريات الناتجة عن التنويم غير موثوق فيها، لكن ما وصل إليه طارق في ملاذه يفوق كل تلك التوقعات؛ فالنتيجة محفورة في الحقيقة، نافذة حتى أعمق درجات الوعي، ورغم أنني أعلم أن ما رأيته من نسج خيالي، وأن طلبة أذني لم يمسه سواه، وعنقي رغم الورم الظاهر لم أعثر فيه على مكان للآنياب، لكنني رأيت طريق الحية في الرمال قبل أن تنوص في البحر! سمعت فحيحها، وشعرت بقبلتها على عنقي! هذا بخلاف الورم الذي جاهدت لإخفائه عن مريم وأنا في طريقنا إلى الطائرة متحجبين باجتماع عاجل! تسخطني الظنون والأفكار، وردود الأفعال المقترحة نحو طارق، فالرجل قد حذرنى من مغبة بئر التجربة، جاء لزيارتي مصطحباً غزالته والبيانو، وعرض المساعدة فقابلته بالفتور والطرود المقنع، الآن أذهب إليه بقدري، ليعيد لي عقلي! أشعر بالسذاجة وقلة الحيلة، أشعر بالابتزاز، فقد وقعت ورقة بخلو مسؤوليته في حالة إخلالي بشروطه، وسيكون من البعث أن يسمع المجتمع العنمي بخوضي مثل هذه التجربة الروحانية التي تعارض كل نظريتي. نكن ما توصل إليه فاق خبرة أجهزة الفحص، هو يمتلك الداء... والدواء...

ولا أملك إلا التعاون معه حتى أستعيد عقلي...

حين اقتربت من العاصمة القديمة تراجعت العدسة بإنذارات الحرارة والتلوث فزعتها، أحتاج إلى الاسترخاء الذي اخترته في الملاذ يوماً. التقمت الأقراص المقاومة للهلوسة بيد مرتعشة قبل أن أهبط فوق وادي النيل المخاف قرب الفيلا المحاطة بالأشجار. طرقت الباب وانتظرت حتى فتح العجوز العاري، أشخت بنظري كي لا أصطمم بترهلاته:

- فين طارق؟

قبل أن يرتد إليه طرفه أزحته ودخلت بهدوء، دقائق وحضر طارق بوجه محتقن وملابس رياضية غارقة في عرق الثمارين، رأيته فابتسم بود ومد يده بسلام فلم أصافحه، غشي الفلق ملاحه حين لحظ الورم الدموي في عنقي:

- إيه ده؟

- تعابيك.

- تعابيني!

- إنت فاهم وعارف كويس أنا بيحصل لي إيه، أنا مش عاوز أصعد الأمور لمرحلة مش هتنجها.

- أرجوك اهدأ وفهمي.

أوشكت أن أكرس أسناني من بروده المستفز، خرج للحظات ثم عاد ويده طبق تسيح فيه الأعشاب، ظننت أنه سيقدم لي شوربه العفنة لكنه أخرج قماشه مغموسة في السائل ووضعها على موضع الورم برفقتي، شعرت بحرق بسيط ثم استرخاء فبرودة.

- احلّك لي حصل إيه بالضبط!

- أنا شفت تعبنا حقيقي! كان جوايا، مش جوايا، بس كأنه جوايا، وخیالات للناس اللي شفتهم في الجلسة.

- اللي بيحصل لك طبيعي، بيحصل للبني آدم اللي بيحلم إنه يتحرق وما يبصعش في الوقت المناسب، غالباً بيقوم وفيه آثار حرق حقيقي على جلده، كمان اللي بيقع من مكان عالي ومش يبصع ممكن يلاقى كدمات زرقا، الإيحاء بيدفع الجسم يصدق الأحداث اللي حصلت في الحلم، ويتفاعل معاها كأنها حقيقة، دي التوابع اللي حذرتك منها.

- إنت لعبت في عقلي من غير هدف.

- الهدف من الملاذ إنك توصل لمعرفة نفسك، حقيقة تفكيرك، أصل طباعك اللي جاية من استنساخاتك اللي فانت، الماضي اللي أثر فيك وخلق منك نديم، دي مش أول مرة ليك على الأرض، وأعتقد إنك بدأت تلاحظ النمط.

- نمط!

- طبعا، التلات حيوات اللي عشتهم قبل كده؛ الأنش كان لها تأثير كبير فيها.

- أنا عاوز أنهي التجربة دي حالا!

برود أجاب: إنت فتحت باب على ماضيك وعشان يتقل لازم تكمل اللي بدأت.

- أكمل إيه؟ التجربة؟

- مستوى أعلى.

- إنت غبول؟

- هو ده الطريق الوحيد لاستقرار حالتك.

- إنت بتفترض نظرية أنا مش مؤمن بيها، ومتخيل إنني أوافق أسلمك عقلي تاني!

زفر في ضيق: طيب أقدر أعرف إيه سبب الزيارة!

لم أجبه، فقد لمحت الحدّاد! يقف خلف طارق بوجه تملؤه القروح، حدجني ثم ابتعد...

- دي لعبة، وأنا كنت صريح معاك من البداية.

قالها طارق فأفقت، تكسير أسنانه المثالية لن يكون كافيًا لتخفيض حرارة عقلي:

- إيه هو المستوى الأعلى في التجربة؟

- «Life Between Lives»، الحياة السابقة مباشرة، التجسد الأخير لك قبل وجودك الحالي.

- وإيه الفائدة؟

- معرفة إنت كنت مين في آخر مرة زرت الأرض بتقفل دايرة املوسة، عقلك أخيرًا يحصل على إجابات، وده استقرار مش بيوصل له كل إنسان.

- وافترض إنني مش موافق؟

- ما أقدرش أضمن لك النتيجة، يا إما عقلك الباطن هيقدر يسيطر على الهلاوس يا إما...

- يا إما هافضل محبوس فيها.

- للأسف، وكثير من اللي عرفوا حقيقتهم انتحروا، أو هاموا في الشوارع وسموهم مجاذيب.

شرذت، مقاومًا احتمالاته، مقاومًا اللجام الذي يطلب مني وضعه على رقبتني، فما يقوله صحيح رغم الاختلاف، زيارة إضافية لأغوار النفس هي الحل الوحيد الباقي لإصلاح العطب الذي أصابني وإغلاق الأبواب التي تُركت مواربة!

تحسست رقبتني فوجدت الورم قد هبط قليلًا وخفّت سخونته:

- كل ما الوقت بيمر، صعوبة الخروج من الهلاوس بتزيد.

تسرّب الأدرينالين إلى عروقي، ذلك السّحر الذي قلب نتائج معارك الهزيمة فيها مُقدرة إلى نصرٍ كاسع، الكيمياء التي حفزت الملايين إلى الفرار من موت محقق... أو الذهاب إليه بغشم والانغماس فيه دون خوف.

- أنا موافق، لكن إيه اللي يضمن لي أخرج سليم؟

- مش هيحصل لك أسوأ من اللي حصل لك.

حين خرجت وراء طارق إلى البهو كان هادي العجوز في الانتظار، أو ما له طارق فحمل جركنا رمادياً ثقيلاً على مثل سنين عمره، وانجه إلى السلم الحلزوني الذي نزلت عليه تاليا بنصف ابتسامة تداعب شفيتها، اقتربت، تلثم الأرض بقدمين حافيتين.

- دكتور نديم اتعرض لانتكاسة.

عاجلها طارق، فقالت:

- اللي يمشوا من الملاذ من غير سلام دايماً بيتعرضوا لمشاكل.

تاليا تمثل نقطة التقاء، بين الغزلان واللبؤات، فصيلة هجينة تروقتي، لولا ذكرها المائل بيننا لوطناتها نكايه في زوجها وعلاجها من اهلوسات، حتى تخرج الثعابين مني والسحالي والتهاشيع.

خلف قاعدة السلم الحلزوني كان هناك باب قصير بنفس لون الخائط، باب لا يميزه سوى مقبض غائر جذبه طارق وأضاء لمبة، نزلت وراءه ومن ورائنا تاليا والعجوز، بضع درجات ثم قابلنا باباً حديدياً مطلياً باللون الأصفر، فتح طارق أقفاله بمفاتيح سلسلته المزدحمة، ودلفنا إلى قبو واسع، ربما باتساع مساحة الفيلا كلها، الجو مكتوم بلا رائحة كريهة، النوافذ العالية مغلقة بستائر داكنة، أمام الخائط دولاب عتيق مغلق بقفل، وعلى الأرض النظيفة رُصّت كتب قديمة، نوتات موسيقية ملفوفة بعناية، ولوحات زيتية ميزت منها واحدة لشوبان يقف بجانب سيدة، وموقعة باسم «ديلاكروا» ١٨٣٨.

في المنتصف كان يقبع حوضان معدنيان متجاوران، مملوءان بالمياه على ما أظن وتغطس فيها مرتبتان جلديتان، من ورائهما جهاز إنعاش للقلب وثلاثة أجهزة أخرى تتوسطها شاشات تخرج صفائر الأسلاك من تحتها، تصل إحداها إلى خزانة حديدية متوسطة الحجم مستقرة على الأرض بين السريرين، وتصل قبتان معدنيتان تملوان السريرين، رفعت تاليا ذراع مقبس فأضاءت اللمبات الصغيرة للأجهزة تباعاً، علا صوت رجفة خفيفة من مروحة تكييف، وتوهجت القبتان بالنور البنفسجي، قفز طارق بخفة على الخزينة العالية، هز ساقيه ثم قال:

- المكان ده مش مُدْرَج في خريطة الملاذ، إنت أول حد غريب يدخله، فعلياً، إحنا هنا خارج نطاق الزمن والمكان.

- ده معناه إن اللي بتعمله هنا مش تحت إشراف الحكومة!

ابتسم طارق ولم يعقب، ثم مال برأسه مستطوذاً:

- اللي شفته في الموجة الثالثة، الحايي والحديد والخابام، تنفق معايا أو تختلف، حيوات سابقة عشتها من مئات التجديدات، ودايماً السؤال؛ ليه مش بتقدر نفتكرها؟ وإذا افتركتنا تبقى مشاهد ناقصة من فيلم قديم أكلت البكتريا نسخة! بعد سبع سنين بحث، اكتشفت مادة مسئولة عن تشفير الذكريات جوا خلايا الـ «Hippocampus»، مادة مهمتها تشتيك حيواتك السابقة، مادة لو حصل فيها خلل بتسرب بعض الذكريات، في الأحلام، تصحوا وأنت مستغرب زمن معين أو مكان عمرك ما زرت، تُلَف كيميائي متراكم بيحصل مع الزمن. وللأسف كل ما يكبر بنفقد القدرة على التذكر، والعكس صحيح، أغلب تخريف الأطفال هي قدرة قوية على الاتصاف بذكريات حيواتهم السابقة.

كثير من الأبحاث استطاعت اختراق منطقة الذاكرة وتحديد الخلايا التي تنشأ فيها الأحلام، بل وتسجيلها كما تراها العينان، لكن أحداً لم يتحدث من قبل عن مخزن لحيوات سابقة، علاوة على كيمياء مزعومة تشفر الذكريات! بل كلما مرت السنوات أثبت العلم عدم وجود روح بداخلنا، منذ تجربة «جوزيف بريستي» التي وزن فيها جسد فأر بميزان دقيق قبل وبعد احتضاره بحضرة ولم يسجل ميزانه الخمس شيئاً، وحتى الكشف بجميع أنواع المجسبات والموجات عن مركز لنوعي «الإنساني» قد يكون مسئولاً عن إدارة الجسم والتحكم فيه، أو يتم رصده خارجاً أثناء الموت...

وللأسف لم تُلتقط أي إشارة.

- بفرض إنك وصلت لاكتشاف، إيه الخطورة في التجربة دي عن التجربة السابقة؟

- استرجاع مجسديك القديمة أعراضه الجانبية مُعانة مؤقتة مع الهلوسة، لكن استرجاع الحياة السابقة مباشرة، نسبة الخطورة فيها أعلى. لأن الأحداث المخزونة في الخلايا حديثة سببياً، ما طالعناش انتف، وقت التشفير الكيميائي عنها في منتهى الصعوبة، المشكلة الأساسية اللي ممكن تحصل هي فشل إعادة التشفير، يعني فشل غلق الباب، ساعتها التفريق بين ذكرياتك السابقة وحياتك الحالية هيكون تقريباً مستحيل.

لاحظت الحية التي تتحرك بين الكابلات وراء كتف طارق، بيضاء، مثل تاليا في نعومتها، رمقتها للحظات قبل أن أغمض عيني للحظة وأفتحها لأجدها قد اختفت في الظل...

الحالة تنفاقم!

قفز طارق بخفة من فوق الخزينة وأشار للأجهزة:

- الأجهزة تتسجل كل اللي تتشوفه بعينيك - ثم أشار للخزينة التي فتح بابها - وهنا هيخرج شيء من الزمن القديم، شيء وليد أفكارك، زي خاتم الخابام، لي إنت ما صدقتوش المرة اللي فاتت، المرة دي اختر حاجة بعينها وركز فيها، ضمان ليك إن مش بخدعك.

- التجربة زمنها قد إيه؟

- دقيقة واحدة.

- مش محتاجين غيرها، هنسجل حياتك السابقة، نغلف خلايا الـ «Hippocampus» عشان نغفل باب الهلاوس، نأمن خروج سليم، وترجع للحظة الحالية بسلاسة، مفيش غير صعوبة وحيدة لازم غريبها.

رمقته في صمت حتى أجاب:

- عشان نخوض التجربة دي، لازم نموت، نتوقف قلبك بنبضة كهربيا لمدة دقيقة، ده الوضع الوحيد اللي المادة الكيميائية الحامية لحياتك السابقة بتكون خاملة فيه...

نظرت إلى جهاز إنعاش القلب العتيق، وإلى تاليا التي مالت برأسها، ثم عدت إلى طارق الذي أثر الصمت منشغلاً بفحص مؤشرات أجهزته...

من المميزات الإيجابية للتحرر من فكرة وجود إله برعانا، إدراك يملأ الصدر بمسئولية شخصية مضاعفة، جراحة في مواجهة الموت، مرونة فائقة في تقبل الآخر وآرائه، فلا دين يفرقنا، ولا عنصرية تجعل من الفصائل الأخرى طعاماً لنا أو حيوانات أليفة نحسبها في أقفاص، ومن ملك العلم، يعرف تماماً أنه لا يملك شيئاً، فنحن نسير بخفة على حافة «عدم اليقين»، شعور مثير له تأثير نشوة المهيروين في بانيو دافى، أما العرض السلبي الوحيد فأعراض الانسحاب، الافتقاد للإله، ذلك الحزن الذي نجري إليه وننغمس فيه ونبتهل، مكررين الدعاء من أجله آلاف المرات علّه يستجيب، معروفة أن بداخل بيوت الإله أباً برعانا، يلتقي بالضموم بين يديه فيطرد الأرق عنا، يُعجل بالخيرات ويحمينا من الأوبئة والحروب، ومن الهلاوس والجنون، شعور مريح، غدرد، لذيد، فالؤمن بإله لا يسأل نفسه لم يدعو «بالخاح» والإله عليم يسمع النمل في جمجوره! ولا يسأل لم ولّد فقيراً أو ولّد ابنه بمائة! لأن هناك جنة.

لكن ماذا لو لم يوجد؟

ماذا لو ذهبنا إلى هناك فقوجتنا بالعدم؟

أو استقرت أرواحنا في برزخ؛ معلقة إلى ما لانهاية مثل شظايا النيازك في الفضاء؟

إن كان للعمر نهاية محتومة فلن أطيق الانتظار...

لعلّي أقابله...

لعلّي ألتقي شلاف...

لعلّي أفنى فتخرس الأسئلة التي تمزقني...

ولم يكن عليّ سوى هز رأسي إيجاباً...

خلع العجوز ملابسي، صرنا متساويين في العري مع فارق السن، تاليا تبسم ببحث، تعدني الجنون والنشوة بعينين خاملتين، طارق لا يعبا بعضوي الذي لم ينكمش، خلع قميصه الذي كساه العرق فأريت وشماً مكتوباً بحروف لاتينية على كتفه، ترجمته «كل شيء سوف ينتهي»! انكب على أجهزته يجتبرها ويضبطها كدكتور «فرانكشتاين» في رواية «ماري شيلي» المميزة، ثم يضغط زرّاً فتنبعث الذبذبات وترتسم موجاتها على إحدى الشاشات، لم أقاوم الفضول، سألته:

- يعني إيه «كل شيء سوف ينتهي»؟

أجابني دون أن يتوقف عن العمل:

- ملك هندي بيخاف من المستقبل، طلب من الحكماء «مقولة» تؤمّنه من غدر الزمن ومن الحزن، الحكماء احتاروا، ولفوا البلاد يسألوا عن حد أحكم منهم يساعد، لغاية ما الناس دلهم على راجل عجوز بيملك خاتم منقوش فيه الجملة دي، وكان شرطه الوحيد إن الملك يلبس الخاتم من غير ما يبص فيه، إلا إذا احتاجه... الملك وافق على الشرط وليس الخاتم، ومر زمن، وهاجم الغزاة مملكته، هزموا جيشه وقتلوا رجاله، واضطّر الملك يهرب للجبال، ولما حددوا مكانه وحاصروا الجبل افترس الخاتم، فخلعه وقرأ اللي مكتوب عليه «كل شيء سوف ينتهي»، فصبر في مكانه، مش مستسلم، لكن متأمل، وكانت المفاجأة، الجيش يعدّي من جنبه وما يشوفهوش، ويمر الزمن ويجمع اللي باقي من جيشه، وهاجم الغزاة، وبزمهم، ويرجع ملك من تالي، وفي قلب الاحتفالات بالنصر والفرح، يفترس الخاتم، وقرأ العبارة «كل شيء سوف ينتهي»، فتهدأ ابتسامته وتترتب أفكاره، ويرجع لحالة التأمل، لأنه عرف إن مفيش شيء يببث على حاله...

أخذتني القصة ولم أعقب حتى صبّ العجوز سائلاً أزرق في مياه حوض الاستحمام، وهمت تاليا في أذني دون أن أسأل «ما تسأل». خنت أنه السائل الذي مستبح فيه المجسات، القبة توهج بالنور البنفسجي، الأجهزة تُصدر طقطقات منتظمة، طارق يكتب بيانات في ورقة، أرقاماً، ثم يومئ إلى تاليا، اقتربت مني وغرست في رسغي إبرة نفذ منها سائل دافئ إلى أوردتي، نظرت في عيني، «ما تخافش». العجوز يضع الكاميرا المثبتة فوق حامل على وضع التصوير، تاليا تهمس «بنسجل كل حاجة»، ثم تضغط صدرتي بثلاث لاصقات ذات هوائي رفيع، ترسل بياناتي الحيوية إلى الأجهزة، أرى دقات قلبي على الشاشة. «إنت عملت ده قبل كده؟»، سألتها فابتسمت ولم تعقب، «طب العجوز ده عملها؟»، هزت رأسها أن نعم، «هو عشان كده ماشي عريان على طول؟»، «هو عشان كده مش بيتكلم؟»، ابتسمت إيجاباً، اقترب طارق «إحنا جاهزين»...

استلقيت في المياه الزرقاء كيا ولدت...

أتأمل الخادم العجوز فأغفيل جلوسه في نفس موضعي يوماً، تُرى لماذا نخل عن ملابسه؟ ماذا رأى في الجانب الآخر؟ ثم نُفِيت وجودي في المحاضرة التالية، وسط المسرح الروماني، عارياً أهاجم الإله والرّيد يسيل من فمي، أو درويشاً أجوب الشوارع دون سُفرة حرارية لأجده بجلد يمترق، لماذا ينظر إليّ هكذا؟ لماذا يتسم؟ يا له من مصير أليم مفجع ينتظره عضوي حين أشيخ! أغمضت عيني لأصرف الخيال المترهل عن رأسي حين اقتربت تاليا، أمسكت برسغي وثبتته في حافة حوض الاستحمام برباط سميك:

- ده ليه؟

كررت ذلك مع رسغي الآخر ثم كتبت رأسي بشرائط عريض، مائلة نحوّي تُدلي بصدرها في جفوني، همست:

- إنت مش بتشوف أفلام بورنو؟

وغمزت بعينها حين اقترب طارق، جذب كرسياً صغيراً وجلس بجانبني:

- إيه لازمة ده؟ (سألته عن الرباط).

- ساعات مع الخروج من التجربة بيحصل تشنج مش بيكون في مصلحة المخ.

- فيه حاجة لازم تكون عارفها، أنا أمرت الطيارة بالرجوع للبيت، وآخر مكان متسجل في البيانات هو عندك، يعني مريم دلوقت عارفة إني في الزمالك.

ابتسم: وفرت عليّ كثير، أنا كمان عندي سر صغير...

صوته قماوج في أذني كأنه ينبعث من قاع بحر، السائل الدافئ الذي حُقن في أوردتي يتغلغل في أطرافي، أكاد أراه من فوق جلدي، أصغيت ولم أعقب فاقترب مني وهمس:

- أنا عارف إن تاليا عجباك...

جاهدت ألا أبتلع ريقني، وجاهدت أكثر ألا يغمرنني العرق أو أن ألقت نحو تاليا التي نبت لها قرنا غزالة.

- بعد تجربة، اكتشفت إن الإعجاب بالأنثى زي الإيهان بالرب، صعب نخدع نفسنا بتجاهله، وصعب نتحكم فيه، أنا متفهم...

التقت أعيننا عند رسغي المربوط فابتسم ثم اقترب من أذني:

- عادي، أنا معجب بمريم مراتك، نفس إعجابك بتاليا، يمكن أكثر، أصل الست المهجورة، ريحتها بتفوح. لما ترجع إيه رأيك تفكر في التبديل؟

تأملت أذنيه اللتين سالتا كالشمع، تقطران على كتفيه لحناً، أغمضت عينيّ وفتحتهما فارتعشت صورته، زلزال بقوة سبعة ريختر يضرب حدقتي، فتحت فمي لأنكلم فلم يستجب، بثقل الجبل كان سقف حلقتي مُطبّقاً على لساني والأسنان تتراقص. تابع طارق:

- أنا شايف إن العمر الافتراضي لعلاقتكم انتهى، جه الوقت تصطاد بدون قيود، ده صحي جداً بالنسبة لك، وجه الوقت إن مريم ترجع غزالة حرة، أنا متأكد إنك مش حابب تفرج عليها بتموت قدامك كل يوم.

جاهدت لأقوم من رقتي ولم أُحرك حتى موجة في ماء الحوض، جسدي يرتجفي، لا إرادياً، عضلاتي تخذلني، تزداد ثقلاً، وزني سبعة أطنان. تابع طارق:

- أنا واثق إن مريم ممكن تجرب معايا شعور ما حستوش قبل كده، شعور هينسيها الكواكب والأبراج.

أفتح فمي وأبصق، أصرخ، لا أسمع شيئاً، تاليا تمسك بحية بيضاء! حية الحاوي، تلحس بطنها! طارق يقوم فيفتح الستائر، الغروب يرمي بأشعته الحمراء على وجهي، نظر للسما الهادئة للحظات ثم اقترب مسافة سبعة سنتيمترات من وجهي:

- شيف المذنب؟

قالها ثم أسبل جفنيّ بلا أدنى مقاومة، وكان المعجوز آخر ما لمحت، يرفع ذراع مقيس يمتد سلكه إلى الحوض...

لم يكن هناك بوابة خشبية عتيقة أو دخان أبيض، الستار كان قرمزيًا وله رائحة عطرة ومن خلفه تتعالى المهمات...
اختلست النظر من ورائه إلى المسرح الروماني المفتوح على السماء، التفاصيل واضحة حادة كأني أراها بعيني الحقيقيتين إذا استنيت
رعدة تهر حذقتي كل بضع ثواني، الزمن يرجع لما قبل ريزال البحر المتوسط الذي أغرق الإسكندرية، فالأرضية القديمة والبوابة الحجرية
التي تدمرت لم تستبدل بعد، أما المدرجات فممتلئة برجال في بدلات سوداء وأربطة عنق ترجع لعشرينيات القرن، النساء تتألق لحومهن
في قسائين سهرة مزركشة، وبيانو شوبان العتيق يتوسط الدائرة، فوقه شمعدان فضي مشتعلة شموعه، ومن أمامه كرسي صغير مكسو
بالقطيفة السوداء. أعين الحضور كانت ترونو إلى السماء مسحورة، الشفاء تهاوس والأصابع المرسعة بالمجوهرات تشير إلى مُدَّئِب يتوهج،
جاءًا وراءه ذيلًا من السحر، يخترق سحبًا تخضبت بحمرة الغروب.

مَنْ أنا في تلك الليلة؟

مَنْ أنا في تلك الحياة؟

هل مت؟

هل ذلك هو البرزخ؟

لم أنتظر الإجابة، اتبعت القواعد فنظرت أسفل مني، إلى قدمي، حذاء كلاسيكي لامع تحت بدلة سهرة سوداء أنيقة يزين جيبيها
العلوي وردة، فوق قميص أبيض ذي بقعة منتصبة تحيط بابيوس أسود، تأملت إصبعي الذي يجعل خاتمًا ذهبيًا منقوشًا بوجه جانبي
لقيصر، ثم دسست يدي في جيبي فأخرجت تليفونًا عمولاً عتيقًا، فتحت الكاميرا الأمامية، سلطتها على وجهي لعلّي أتعرفني. شاب في
آخر العقد الرابع، حليق الرأس ذو لحية تسخللها الشعيرات البيضاء، الأنف حاد صغير، والعينان رُسمتا بالكحل!

تلك الملامح أكاد أتذكرها!

ملاح عازف بيانو شهير في عشرينيات القرن الحادي والعشرين!!

لم يمهلني الوقت أن أتذكر الاسم، انفتح الستار وسلطت الأضواء على وجهي فرفعت ذراعي مُلوَّحًا وخطوت نحو البيانو بثقة
وسط عاصفة التصفيق، مسحت الوجوه بغرور حتى لمحت طارق، يجلس بجانب فتاة جميلة في قستان أحمر، شعرها فاحم يغمر كتفين من
المرمر، وعيناها ناعستان غزيرتا الرموش...

Dejavu (*****)

ذلك المشهد حدث من قبل في محاضرة «الشیطان»!

ضرب الحجل والتورد رفيقة طارق قبل أن يمس الحواس ملامحها حين التقت أعيننا، ابتسمت لها ثم التفتت المكروفون ونظرت
للمُدَّئِب:

- سيداتي، اللحظة فريدة، إحنًا في مسرح روماني اتبنى من ألفين سنة، وفي حضرة مُدَّئِب يزورنا مرة واحدة في العمر، مفيش
شيء ممكن يكمل السحر في الليلة دي غير موسيقى شوبان...

نطقتها وأشرت بيدي إلى البيانو العتيق مستعرضًا، فانهال التصفيق وكأني أقدم شوبان بنفسه على المسرح، تابعت:

- في سنة ١٨٤٤ عزف شوبان نوكتورن رقم ١٥، أوبوس ٥٥، وأهداه لـ «جين ستيرلينج» عازفة البيانو المبتدئة، في الوقت الذي
كانت علاقته مضطربة جدًا بحُب حياته وعشيقته الروائية «أمانتين لوميل دويان» التي اشتهرت باسم «جورج ساند»؛ ده اسم رجل
بالمناسبة! السيدة كانت استثنائية، جريئة، بتلبس لبس الرجال ويتدخن السيجار في زمن كانت الستات فيه بالكثير يتخرج للشارع.

تأملت وجه الفتاة التي هامت في كلماتي بابتسامة رائقة، فغمزت لها بعيني، ثم لمحت الضيق يغمر وجه طارق!

منذ دقائق كان اللعين يراودني باستبدال مريم!

ابتسمت لها وتابعت:

- قصة حياة شوبان وحكاياته مع الكاتبة التي أهتمته كانت دائمًا بمثابة لي هاجس، رُدت بلده، بيته، والأماكن التي كان يمر بيها.
وبالفلوس التي كوّنتها من جولات الموسيقى صممت أشترى البيانو الـ «Pleyel» التي أَلَفَ عليه أجمل الحانه، فعليًا صرفت عليه كل
بيتيكوين امتلكته، ورجعت لنقطة الصفر، في حاجات ما بتحصلش في العمر غير مرة واحدة، زي المُدَّئِب، إحساس خفيف لكن مثير...
استمتعوا...

انتهيت فتوال التصفيق، جلست أمام البيانو وانتظرت حتى ران الصمت، وقبل أن أبدا همست الريح ونذت السماء بمطر خفيف،
أغمضت عيني ووضعت أصابعي على أصابعه، وبدأت العزف...

تلك المقطوعة التي طالما ترددت في أذني!

وتلك الآلة التي أتقنت العزف عليها دون مجهود، ويبدو أنني اتبعت أثرها دون أن أشعر حتى ملكتها ثانية!

أو أنني صرت حبيسا في خيالات ليست من صناعي...

فأر تجارب - ميت - بين يد عُتَل عقليًا!

حين انتهيت من المقطوعة ضحك المسرح بالتصفيق، انحنيت تحية للجمهور بعينين لا تفارقان طارق وغزائته، وكان عليّ ومي الخطاف، ابتسمت وخلعت الورد من جيبي وألقيتها إليها، التقطها طارق بابتسامة باردة ثم وضعها حرجًا في يد خليلته، قبل أن يساعدنا في ارتدائها الباطو ويرتقيا السلام.

حين خرجت مسرعًا من الباب الخلفي للمسرح كان المطر ينهمر، الشارع مزدحم والسيارات مكدسة، فحطت الجموع حتى رأيتها، التفت أعيننا للحظة ثم أشاحت بنظرها عني حين تحدث طارق!!

ماذا يحدث؟

Déjàvu آخر؟

اقتربت من ذات العينين الناعستين مسحورًا مفتونًا، وردتي بين أناملها، وأناملها تعزف على عقلي، لاحظت وجودي فاضطربت وقفتها، كغزال استشعر فهذا بالأعشاب القوية، ضرب الخجل ملاعبها وتساءلت عيناها «أأنت قادم نحوي؟»، ابتسمت ثم ربت على كتف طارق الذي التفت نحوي، فوجئت بملاحه فعاجلته، قاطعًا عليه تكوين ردة فعل:

- آسف، إحنا ما اتقابلناش قبل كده؟

تلعلم للحظات ونقل عنيه بيني وبين تاليا:

- ما أعتقدش، يس إحنا كنا في الحفلة و...

ومد يده بسلام:

- طارق هارون، دكتور منغ وأعصاب...

صافحته: فرصة سعيدة...

ثم نظرت إلى تاليا فقدمها:

- ليل، خطيبتني...

وأكد كلمة «خطيبتني» بتشبيك أصابعه بأصابعها فالتفت يدها الخالية وقبلت ظهرها بشفتين مبتلتين ونفس حار:

- فرصة سعيدة...

ضرب الغضب ملامح طارق لكنه كتم غيظه كجتلان.

بعد طعن الخصم يأتي وقت اقتحام مساحته الحميمة.

دون أن تنزل عيناها عن ليل التي لمعت عيناها:

- أنا جاي عشان أناسف على موقف الورد اللي حدفتها، خطيبتك جيلة، وتشبه كثير واحدة كنت باحبها زمان، النور كان في وشي وتحيلت إنها هي، أحلام بقطة، سوء تفاهم.

بدت كلامي مقنعة رغم أن الحجة لم ترق لطارق:

- مفيش داعي للاعتذار، حصل خير...

- أرجو تكونوا استمتعتم بالحفلة.

- جدًا...

قالتها ليل بحماس، فنظر إليها طارق بضيق فشل في إخفائه ثم تابع:

- أنا وليل من أكبر المتابعين لشغلك...

- ممكن تصور سيلفي؟

قالتها من فوق أطراف أصابعها، أخذت التليفون من بين أصابعها، ووضعتها بيني وبين طارق، فريسة بين صائدين، وسرقنا من الزمن لحظة، نعددت فيها قص نصف جسم الخصم، قبل أن أكتب رقم هاتفني على الشاشة متظاهرًا بمراجعة الصورة وأعيد التليفون ثانية إلى يدها ضاعطًا على أصابعها.

- فرصة سعيدة.

واستدرت مغادرًا قبل أن يُحاصرني الجمهور، ثم التفت بعد أمتار وكانت تحدق في التليفون وتكتب على الشاشة شيئًا، ثم رفعت رأسها تبحث عني، غير مصدقة جرائي، ابتسمت وأشحت بنظري إلى المذئب الذي يشق السماء، وحين نزلت...

لم أكن أمام باب المسرح!

كنت أجلس في مطعم عتيق بانزمنت...

مطعم يُدعى «سيكوبا»...

النيل مازال يجري في الوادي، هزيلًا منحصرًا عن الحواف الجانبية من الأرض، نزاعات المياه في بداية الاحتدام، والدبلة مازالت في إصبع ليل، واسعة قليلًا، نخلعها وتعيدها مكانها في توتر.

كانت تجلس أمامي في فستان أبيض أضفى على سواد شعرها المزيد من الجنون، على صدرها سلسلة ذهبية تحمل اسم «ليل» بحروف لاتينية، الشموع بيننا تراقص، صورتها ترتعش في عيني! الفاتنة تبسم في خجل، تتحدث عن الحياة، صوتها يخفت في أذني ويعلو كموجات راديو قديمة، والناس من حولنا يبتلسون النظرات لنا ويتهامسون.

- إنت متعود على طول إن الناس بتبص لك كده؟

- في الأول الموضوع كان مزيج، لغاية ما اتعودت أنجاهلهم.

قالت بعد صمت:

- وليه ما تجاهلتنيش؟

- كنت دايمًا مستني الأنثى اللي هاقف عندها مش هاعرف أعضيا.

- وليه أنا من بين البنات؟

- فيه حد هنا عاوز يسمع مدح!

رفعت إيهامًا وأغمضت عينيها: خالص على فكرة، أنا واثقة في نفسي جدًا.

فلتت متي ضحكة فاشتعل الغيظ في عينيها فأردفت: ومرتبطة!

- الارتباط زي دور البرد، بروح وييجي، بدليل إنك قاعدة معايا دلوقت.

ضرب الخجل ملاعها ثانية فكسوت ملاعني بالجديّة:

- يلا، قولي ثلاث حاجات من وجهة نظرك همّ أحسن حاجة فيك، غير شعرك وشفافيك ولوتك.

ابتلعت ريقها واتسعت ابتسامتها، الغزلان تعشق تسويق فضائلهن، اعتدل مزاجها وقد أعجبت بها اللعبة:

- إنت جري، زيادة عن اللزوم.

رفعت الإيهام: ها... أول حاجة؟

- أولك، أنا... جدعة مع أصحابي.

- كلنا جدعان، قولي حاجة مميزة.

- أنا بير أسرارهم.

رفعت إصبعي برقم اثنين، فتابعته:

- الفلوس عندي آخر حاجة.

هزرت رأسي وأشرت لرقم ثلاثة:

- ومش باحب الخيانة...

واكتسى وجهها بغضب فسحبت إلى رتيها نَفَسًا وضربها الصمت، لامتت أصابعها برفق:

- ليل، إنت مش بتعمل حاجة غلط.

- أنا وأنت عارفين إنه غلط.

- الغلط إنك تستمري مع واحد مش فاهمك، ده دكتور مخ وأعصاب! يعني ميكانيكي بني آدمين، إيه علاقته بمعارض الفن التشكيلي اللي بتزورها أو الموسيقى اللي بتحبها؟ إنت لسه قايلة إنه حصر معاك الكونسرت فجأة!

- طارق جتلمان، وبصراحة طيب جدًا...

- والبطريق طائر طيب جدًا برضه، يمشي زينا يس ما يبطرش، ولا بيتاكل!

سكتت، ثم ضحككت...

فعرفت أني قد انتزعت طارق «باهت الذُكُر» من أحشائها، وألقيت بذري، فالسخرية من الحكّام تجعل من صداقتهم أو حتى القرب منهم عارًا، قبل أن تُشعل الثورات لتسقط العروش.

لم تكن ليل لتتحمل ارتباطها بطارق وأنا أراه بهذه الصورة...

كيف ستعيش معه وقد أصبحت تراه بعينيّ؟

المقارنة غير عادلة بين طيب «متوفر في الأسواق أعداد منه» وعازف بيانو «نادر» ومشهور تهفو الأعين لرؤيته ويملك ملايين المتابعين له على الشبكة.

مسألة وقت وسألتقى الاتصال الباكي «أنا سبت طارق»، ستأثني مترنحة، بين الذئب ونشوة التحرر، ومستطلب مني بعض الاتزان، كأسًا وحضًا ثم قُبلة.

كان ذلك حين اهتزت شموع المطعم وارتعشت ملامح ليل، ثم الناس من حولنا، ضربني صدام رهيب فأغمضت عينيّ وفتحتها...

على شاطئ بحر!

القمر مكتمل، وحفل الشواء بصخب الموسيقى الهادئة ليس ببعيد...

ليل بجائني على الرمال، مغروسة كوتد خيمة، بلا مهرّب، يد تداعب شعرها الخالك، ويد تدور حول سرتها عكس عقارب الساعة. شفتاي ساجدة على شفتيها، أهل منها وآكل. بمزمرة تُدغدغ عتلي وأذنيها. أعشق الأنثى الرزينة حين تفقد التحكم، حين تغلي خلاياها وتفور، حين تقبض على الرمال بأصابعها لتعتصر اللذة، و...

- يلا نتجوز...

تلك الفصيلة ما زالت قادرة على إبهاري!

يبدأ البحث عن موديلات فساتين الزفاف بعد قبلة على الشاطئ، ويُفسدن الشغف اللاتي حفين من أجله بكلمة... «يلاً تنجوز»! ألم يلحظن إلى الآن أن قصص الحب الخالدة - حتى في الروايات الرومانسية - لا تكتمل؟ روميو وجوليت، قيس وليلى، عنترة وعبلة، وغيرها آلاف، إذا كُتب الزواج على أي اثنين منهما كما كُتب على الذين من حولها، لبهتت الألوان في الأعين، وخبت الشهوة كشعلة تحترق تدريجياً من نقص الأكسجين، سيظل قيس ليل «على مضض» كل ثلاثة أسابيع، وسيستعمل عنترة الفجارا ليطيق إتيان عبلة حتى وإن ارتدت بيبي دول...

إنه الملل...

العيب الخُلقي «الجميل» الذي وُلدنا به...

الفيلم الصامت الذي يُعرض على مُشاهد أعمى...

لقد تدربت على سماع كلمة «يلاً تنجوز» حتى أصبحت لا تؤثر في أدائي حين تقال، ابتعد ستيمترات عن شفتيها، أنظر للمُذنب، أبتسم. ثم أعلن أن اللحظة فريدة، وأن مرور المُذنب بالسما هو علامة على حب خالد، ثم أردد هراء مثل أن زواجنا هو أجل حدث قد يحدث في حياتي، وأني أخيراً، سأترك الألوان كلها وسألتزم بلون واحد أرتديه طوال عمري، وأخيراً، سأشتم نفس الرائحة يوميًا، وسأكل نفس شوربة الخضار في وجبات سرمدية، وأخيراً، سأنسى الصيد حتى تترهل كرسي وعقلي وأصاب بجلطة في الشريان التاجي، وسيصير الجنس واجب «حساب مثلثات» مدرسيًا من سبع صفحات، حتى أنفق كالبعغل بين يديك!

بالتأكيد لم أكمل ما قلته بعد كلمة «حياتي».

سمعت كمي في فدمعت عينها عشقًا وارتعشت شفتاه، أخبرني أنها ليست نادمة على ترك طارق رغم أحبار الاكتئاب الذي سيطر عليه، وأخبرتني بأنها تريد أن تُعجب مني، فتاة تشبهني، وستسُميها مريم! ثم تكمل القبلة بلهات مسموع ونهيج، ثم تتجاوز بشأن لمي حلماتها...

ذلك ما كان يدور في مخيلة الموسيقار...

أو عقلي الباطن الذي سيطر على حواسي...

لكن ما حدث كان عكس توقعاتي!

لقد تزوجتُ ليلي بالفعل!

رغم كل الهراء الذي قلته...

رغم أن كلمة «زواج» لم تُذكر في قاموسي!

ربما لأنها «بنت ناس» وتليق بمظهري الاجتماعي، وربما لأنني لمست فيها براءة لا أراها في أعين الغزلان المتوحشة.

حفل الزفاف كان على البحر، أرقص مع ليلي، الموسيقى ناعمة، نضحك من قليبنا، أحملها إلى غرفة النوم، أضعها برفق ثم أفك مشابك شعرها، ثم أشرع في التقبيل، راقبت عينيها من تحت الحصلات الحمراء.. ألم تكن سوداء؟! وكنت أظن شفتيها أصغر! أنفاسها أكثر لهاثًا، تطلب أن أطأها بعنف.. بكلمات جريئة، وتصرخ بصوت لا أعرفه...

لحظة!

تلك ليست ليلي!

تلك كانت تاليا!

ابتعدت عنها الستيمترات السبعة حتى أستوعب، نعم، إنها تاليا، شعرها الأحمر والشمس المتناثر على الخدين...

ثم تذكرتُ ما حدث وقتها كمطر مفاجئ انهمر من سحابة محترقة بداخل مجتمتي...

تلك فتاة من المعجبات اللاتي يظنن حوني كنحل، من المُريدات صاحبات الأعين الجريئة الواعدة، قابلتها صدفة، فابتدتها ضغما، اختليت بها وكان الطموح قبلة، لكنها خلعت ملابسها كاملة قبل أن ترمش عيني، غزال بكر هائج أحر الشعر والثغور، من المستحيل مقاومته، بل من العار، فالتكهنه جديدة فواحة، والعرق مُسكر، والأهم أنها كانت تريد إبهاري، ولما كانت الطريقة الوحيدة لمقاومة الإغراء هي الخضوع له، زرعت المكيدة بين ساقيه حتى افترقنا، وشرعت في الانتقام حتى صرخت ودست رأسها بين المنخدرات، كان ذلك حين انفتح الباب، رغم النور الذي ضرب عيني والاهتزاز العجيب لجدران الغرفة مَيَّزْتُ ليلي، رشقتي بنظرة جمعت بين الصدمة واللفظ، انساب دموعها وارتعشت شفتاها في صمت، لم تأتني الجراءة أن أخرج حتى من حمراء الشعر الناعمة تحتي، تبيست، فقدت لأول مرة ردة فعلي السريعة، السبق في استدراك المواقف العسيرة والثبات الانفعالي، لم أؤمن يومًا أن كلمات مثل «ليلي.. إنت فاحمة غلط» ستكون مناسبة في مثل ذلك الموقف، ومقتني للحظات، ثم نظرتُ إلى تاليا واستعادت لحظة اقترابها مني لأول مرة في المسرح، ثم أغلقت الباب في هدوء...

والعجيب...

أنني أتممت ما بدأت، فالكحول في دمي والغضب من انكشاف أمري أمام ليلي جعلاني أشق لحم الحمراء حتى صرختُ كصفارة قطار صمّت أذني، زلزال ضرب الغرفة وحين سكنت موجاته...

وجدتني على الشاطئ ثانية...

الوقت كان غروبًا، المُذنب يذوي في آخر أيامه، والناس من حولي بوجوه تترعش يرتبون على كتفي ويُغمغمون بلغة لا أفهمها، ومن أمامي، كانت ليلي راقدة على الرمال! على الصدر قلايدها التي تحمل اسمها، ترتدي سترة كانت هدية مني، وفي الجيوب استقرت الأحجار...

قوالب كانت كافية لسحبها إلى أعماق البحر...

البشرة البيضاء كسُتُها الزُّرقة...

الشعر الأسود اختلط بأعشاب البحر...

ورثها المغمورتان تسكبان المياه من شفيتها...

انحيت عليها فلامست خدها، ثم فككت السلسلة من صدرها، قبل أن يضربني الهوس، فالمسوسون بالفن والموسيقى يعانون اضطراباً ثنائي القطب بدرجات متفاوتة لا تتركها الفحوصات، فقط ينتظرون اللحظة المناسبة لكشف السيطرة المربضة لعقلهم الباطن. وازدادت رعشة وجوه الناس من حولي، باتت الملامح دخائناً، وتلون البحر بلون أصفر فاقع، ثم دار المذئب حول نفسه، واتجه ناحيتي! يوميض ينفض، كضربات القلب، قبضت على سلسلة ليلى بين أصابعي وركضت بأقصى سرعتي هرباً، يتتابني شعور عجيب بأني للتو قد وُلِدْتُ، شعري ينمو، ملاحي تتغير، يبرز من رأسي قرنان وركبتي تتجهان للخلف، حوافري تشق الأرض، وعضلاتي تزداد قوة، سأركض حتى التقط الشمل، دون أن أفث، على أنغام موسيقى شوبان، المعانم تهتز! الشوارع ترتعش رعباً، والشجر أورقه تتساقط كالطر...

يفتح باب عتيق، أدفع الصبي الذي فتحه وأقفز سلام خشية، قدماي تغوصان في درجات لانت كالعجين، أفتح باب غرفة، وأقف أمام مشهد عجيب.. الشمس تتحرك بسرعة لم أعدها من قبل! تدفع الظلال أمامها كتقطع يفر من أسد ضارٍ، أرمق نفسي في مرآة مشروخة، انعكاس صورتي يزداد عمراً، أهرم، أيام تمراً، أسابيع، شمس تتحدر وليل يكسو وجهي ثم شمس يوم جديد تحرك ظلال ملاحي، في ثواني معدودة، شعر ذقني ينبت، الشعيرات تخرج من جلدي كالديدان، ذراعي تكسوها ألوان عجيبة، وفمي، درجات من الأزرق والأسود، الخط على الباب يتزايد، خبط الصبي الذي دفعت صدره فأبعذته، يتسارع كضربات على الدرامز، أذبل، لوني يعيل للصفرة، أهت كالجدران!...

من أنا؟

أنا الشيطان...

أنامل سلسلة ليلى في يدي، تتزاحم التفاصيل في رأسي.. الأحجار في جيوبها.. أفتح دُرَجاً وأخرج مسدساً أنيقاً.. شعرها الأسود الملبد بالطحالب.. أصوب الفوهة إلى رأسي؟ في موضع الندبة التي وُلِدْتُ بها.. زُرقة جلدها.. صوتها وهي تهمس: «نُفسي أخلف منك بنت، هنسيميا مريم».. مريم!

أضغط الزناد...

ترتج الغرفة بعنف...

راجع نظرية الانفجار الكبير (Big Bang)...

انفصلت عن جسدي، وازدهرت الألوان فجأة في تباين عجيب، أرى الموسيقىار يستقط من زاوية عالية، الدماء تغو من شق في جبهته، عُنه يتأثر بين الحائط والسجادة، جسده يُصدر تشنجات طفيفة، ويده مازالت قابضة على السلسلة...

أما أنا فلا أظهر في المرأة، ولا أشعر بألم في موضع الرصاصة...

توقف الزمن...

سيتشق السقف حالاً، وستهوي يد مَلَك الموت على كتفي، سيضعني في رُكِيبة من الخيش المبلول، سأسجن مع ملكي القبر ذوي الأنياب التي تحفر الأرض، وسيبشراني بالعذاب الأبدي الأليم، وستأبني الحية البيضاء، ستلدغني وتعتصرني، ثم تبتلعني فتغوصني، ثم تعود فتلدغني وتعتصرني.. في سرمدية...

لكن لم يحدث شيء من ذلك!

الصمت كان يدوي، نبض يطن، ثم التقطت صوت خطوات تضطرب أمام الباب، وبها جيران سمعوا دوي الرصاصة، تعالت الخطبات قبل أن يتحطم المِزْلاج، رجل ومن ورائه سيدة عجوز، ثم الصبي، تأملوا جسدي في صدمة، لم يشعروا بوجودي ولم أقو على إصدار صوت، فقط الصبي رفع رأسه نحائي، للحظات ضالت، ثم ملأ الرعب صدره بدخان أسود ففر مدعوذاً.

واتجهتُ إلى النافذة، المذئب كان يذوي، يتلاشى، مثل التفاصيل في عيني، أغصان الشجرة تنمو بسرعة عجيبة، تتداخل وتندمج، تتعارك وتقرب، والغريان من فوقها تحدجني...

بلّووم...

أو ربما بشفقة...

ثم ساد الظلام التام وعمّ السكون...

ظلام يشبه ظلام الرجم...

ظلام رطب، دافئ، ساكن، مطمئن، لزج...

أشعر بالمشيمة تحك جلدي والحبل السري الواصل ببطني يلف حول رقبتني، مشنقة ساخنة، النبض المنتظم يعلو، نبضات قلب كبير تضطرب، ترتبك، ثم يهزني زلزال عجيب، موجة تتكرر كل بضع ثوانٍ، يتبعها أنين مكتوم، أغرس أطافري في المشيمة فتتزلق، أفتح فمي فأبتلع مياهًا مالحة وأتقيأ الصمت، وفجأة، فرغت المياه من حولي! فتحت عينيّ ولم أر شيئًا، رأسي ينضغط، يُحشر، عظامي تنبعج، أذناي تتمزقان، الدماء تغمرني، أنسحق، في عمر ضيق متعرج، ينتهي بباب على هيئة ورقة شجر، يُفضي إلى فراغ كبير، أخرج، أنبثق، أولد، البرودة تكسو جبهتي فوجئتني فريقي، لا أقوى على التنفس، لا أقوى على الرؤية، ولا أقوى على تحمل الأصابع التي تلمس جلدي، وأريت جفنيّ فرش عينيّ ألف دبوس من النور، قبل أن أنزلق بصعوبة...

إلى الحوض المعدني فوق المرتبة الجلدية، أكاد أجزم من رائحة المياه الزرقاء التي تغمرني أبي قد تبولت فيها، فتحت حدقتي بصعوبة فأدركت قبو الملاذ، سبع ثوانٍ مرّت حتى تذكرت من أنا، ثم استعدت لحظة استلقائي في الحوض، ربّط وثاقي، خوضي تجربة استرجاع الحياة السابقة، طارق، ثاليا، والعجوز هادي، استجمعت قوتي ورفعت يدي فلاحظت أصابعي التي قبضت على شيء...

سلسلة ذهبية تحمل اسم «ليل»!

ليل التي وضعت الأحجار في جيوبها ونزلت إلى البحر...

ليل التي رشقتها بسهم من بين فخذي حمراء الشعر...

استندت على ضربي حوض الاستحمام وفحصت الغرفة بحثًا عن أفعى الحايي البيضاء، ولم تكن هناك. انتهت الملموسات في رأسي! أم أنني دخلت في مرحلة جديدة منها؟ سأعرف بعد قليل. قمت. بصعوبة. أنفادى الانزلاق، أنفادى الاصطدام بالنبقة التي تعلوني. وأنفادى الشاشة التي تعيد لقطات مشوشة لحياتي السابقة من وجهة نظر عينيّ، ثاليا ذات الشعر الأحمر تغمرني بعينيتها من بين الحضور في المسرح، استقبلها مرًا، اختطف قبلة، لا تُبد مقاومة، تدفعني إلى جدار وتنفك أزراري، تغمرني بأنوثة لم أعدها، ثم تأتي ليل.. تنظر في عينيّ، تخرج إلى البحر، أراها راقدة على الرمال شاحبة زرقاء مواربة العينين، وفي رقبتها السلسلة التي أمسكها الآن، تفحصتها ثانية ثم تابعت للمحطات ركضي حتى تسديد القهوة إلى رأسي في مرآة الغرفة الضيقة، الغربان ترمقني ..

ثم أظلمت الشاشة.. ليبدأ المشهد ثانية...

رفعت قدمي لأخرج من الحوض فضربني دوار، انزلقت، انكفأت على وجهي كطفل لن يتعلم المشي مهما عاش، جُرحت ركبتي ودقني وسال الدم على الأرض من تحتي، كان ذلك حين لمحت الأصابع المرحّية، متدلّية من حوض الاستحمام المجاور!

أصابع بيضاء، أصابع أعرفها...

ها هي الملموسات تُعلن عن نفسها...

ما الذي أتى بمريم إلى القبو؟

اقتربت فتأكدت طنوني، مريم، زوجتي، كانت تجلس في الحوض بجانبي في رداء أسود، غائبة عن الوعي!!

انكفأت على الحوض فلامست عنقها حتى شعرت بنبض منتظم لكنه خافت، دسست ذراعي خلف ظهرها ورفعتها بصعوبة لكنها سقطت فوقي، وضعتها على الأرض وضربت وجهتها مُنبهاً قبل أن أنحني عليها لأستشعر النفس، شهيق ضعيف وزفير متردد، تنفست الصعداء ثم لمحت الشاشة خلف حوض مريم...

كانت تعرض آخر لحظات في حياة ليل!

ليل تفتح باب الغرفة، تأمل ساقَي حمراء الشعر على كتفيّ، وتأمل السُكّر في ملاحي، تركض على الرمال بعينين مترققتين، ثم تنف، تنظر لئسًا طويلاً، لئسًا. ثم تلبس المتمد، تختار من الشاطئ أحجارًا نديها في الجيوب، تقترب من الموح، تمسح الدموع من عينيها، ويعلو في الساعات صوت نجيب مكتوم مختلط بالرياح، ثم تخوض المياه، تدفعها الأمواج لتشيها عن قرارها فلا تستجيب، تنظر للشاطئ خلفها، تبحث عن عازف البيانو، تهرب من عازف البيانو، المياه تعلو فخذها فخصرها فرقبتها، تصل إلى أنفها، ثم تأتي موجة عالية فتخضع لها، تستسلم، تغطيها المياه فتتزلق قدمها في الرمال، تفوض بسرعة وتنجذب، سطح البحر يتعده، القاع يقترّب، الجسد يبرز فزعًا، اهواء يندفع من فمها، يهرب أمام عينيها، الرقيقة تحتق، المشمة تحرك ذراعيها في رعب، تحاول إخراج أحجار حشرتها منذ قليل فلا تفلح، أطافرها تكسر، لقد عدلت عن قرارها، لكن النور يخفت، ينحسر، الحركة تضعف، تشنج يتبعه تشنج، ثم سكوت...

تستقر في قاع ليس ببعيد...

تخطيت الذهول وتأملت مريم المستلقية على أرض القبو...

ما الذي أتى بمريم إلى الملاذ؟

وما دخلها بذكرات ليل غريبة البحر؟

هل خاضت تجربة استرجاع الحياة السابقة؟

هل كانت مريم في زمن الموسيقى.. ليل؟

هل كان الألم المُرّين في صدرها سببه الغرق في حياة أخرى؟

غرق في بحر من الماضي طالما تهيّبت السباحة في حاضره؟

هل انتحرت مريم بوضع الأحجار في جيوبها مثلما انتحرت الكاتبة «فرجينيا وولف» صاحبة رواية «السيدة دالواي» الورقية التي لم تنتهِ من قراءتها يوماً؟

تدحمت الأفكار في رأسي كعود ثقاب احتقن فاحترق، نظرت حولي بحثاً عن إجابة وكنت العدسة مستقرة على منضدة قرب الدولار، التقطتها فوضعتها على حدقتي، قرأت بصمتي لكنها لم تستطع الولوح إلى الشبكة، ربما بسبب انخفاض القيو عن الأرض أو طبيعة عزله. وبلمحظة كان من المستحيل الرتدء عدسة مريم وقراءة ذكرياتها؛ فالعدسة إن لم تقرأ بصمة العين انعلقت وشغرت المننات وأظلمت الحدقات حتى تضطر سارقها أن يتخلل عنها...

ارتديت ملاسي في عجانة ثم هرعت إلى الباب الحديدي الأصفر، بحثت عن المقبض ولم أجده! دسست يدي في الثقب محاولاً الجذب وكان مغلقاً من الخارج، طرقت بقوة حتى ألتني راحتي فناديت، على طارق وهادي وتاليا، ولا يجيب، الخوف يتسلق ساقي والبرودة تتغلغل في عظامي، رجعت إلى مريم التي بدأت تن، انحنيت عليها فرفعتها، فحثت عينها بوهن، غير مستوعبة الموقف، ثم انسابت دموعها وجاشت أنفاسها:

- إيه اللي جابك هنا؟ (سألته بلطف).

التزمت الصمت وارتعشت أطرافها قبل أن تنظر إلى الشاشة ورائي، الشاشة التي تعرض مشهد حمراء الشعر من تحتي!

ضاق صدرها فقمعت مسرعاً فأطفأت الشاشة ونزعت بطاقات التخزين منها فدسستها في جيبي، ثم تفقدت آخر رسالة بيني وبينها على العدسة، وكانت موجّهة مني، في نفس وقت استلقائي بالحوض المعدني!

رسالة تقول: «مريم، أنا عند طارق وتاليا، تعالي، حالة طارئة».

- مريم! احكي لي اللي حصل.

خرج صوتها وهناً من قلة الاستعمال:

- مين ليل؟

لم أجدها أقول فعاجلتها:

- فهميني إيه اللي حصل لما وصلت هنا؟

أردفت بدموع صامتة لم تتوقف:

- الإرسال انقطع بعد رسالتك، جيت، نزلت ورا طارق، لقينك نايم في الحوض، قال إنك بتخوض تجربة استرجاع لحياتك السابقة! ويعدن، مش فاكدة حاجة...

وفتح كفتها عن خاتم ذهبي منقوش بوجه جانبي ليوليوس قيصر، خاتم كان في إصبع الموسيقار...

كان الوقت مثاليًا لممارسة الصمت، مثاليًا لحضن دافي، لقطعة أعمدة عقلي تعلو وتتزايد، والأثرية تساقط على قشرة غمي، فإياني بالروح هو إياني بضرورة وجود إله حاكم راعٍ فاطر لذلك الكون، وما كنت لأصدق شيئاً لم تره عيني في خضم هلوسات كيميائية مريضة تختلط في رأسي.

لكن أن ترى مريم نفس ما رأيت!

فذلك كليل بانحراف سار كواكبي، بارتطامها ببعضها البعض وانطفاء شمس مجرتي.

هل تلاقينا من قبل في حياة أخرى؟

بأساء وأجساد أخرى؟

هل هناك وعي يبقى بعد الموت؟

يرزخ نقابل فيه كل من سبقونا؟

ذلك الهاء القديم الذي ازدحم به الكتب الصفراء!

- ده بيفسر حاجات كتير.

تلك كانت مريم، تنظر لخاتم القيصر في يدها بشروء:

- الوجع المُرّين اللي في صدري، لأنني غرقت قبل كده...

ثم نظرت في شاشتي التي انطفأت: بسبيك؟!

- مريم...

ضافت عينها ونحسرت صوتها: ممكن نكون اتقابلنا قبل كده؟

- كفاية.

- اللي طول عمري باحسه ماكانش وهم، خوفي غير المبرر من البحر، عدم ثقتي بالناس، خوفي منك، غموضك، أسرارك، عينيك.

ضربها الصمت لحظات ثم سألتني:

- تحبتي كام مرة يا نديم؟

نظرت إليها ولم أعقب... كنت أحاول حصر عدد الغزلان التي وطأتها.

- خُتِنتي في كام حياة قبل كده؟ موّنتي في كام حياة؟

- أأ ما خُتتكيش.

شردّت وكانُ لم تسمعتني: دي حلقة بتعداد!

- إنت عارفة إنك أغل حد في حياتي.

كان ذلك كفيلاً بترع القتل عن قبلة يعود عمرها لزمن الحرب العالمية الثانية.

- كفاية كذب، إنت عمرك ما حبتني، ويمكن بتتمنى أموت عشان تبقى جات من رينا، ما تحسش بذنب، ومن ساعة ما سلاف ماتت وأنت بتتوخش يوم بعد يوم، بتغلي زي البركان، كان قدامك قُرص كثير تمشي! ليه ما مشيتش؟

البحث عن بثر عميقة لأسقط فيها كان صعباً، يراودني ضغط دمي على الإغماء لكنني أقاسك:

- أنا عمري ما فكرت أسيبك.

- ساعات بنحتفظ بحد مش عاوزينه، بس عشان مش عاوزين نشوفه مع حد غيرنا!

- طارق لعب بدماغنا يا مريم.

نظرتُ إلى خاتم القيصر في يدها:

- اللي شفته هو نفس اللي كان شغال في شاشتك!

- إنت عارفة إن مفيش حدود لصنع الوهم دلوقت.

- عمرك ما قربت لي برغبة فيّ.

- بيتنا لحظات حلوة كثير ما تنسيهاش.

- لحظات، عمرك ما لمستني فيها غير لما طلبت أنا، فيه فرق بين الحب والواجب.

- نسيت مغرية الهند؟

- ليه مكمل معايا يا نديم؟

- لأني ما حبتش غيرك.

وننعب...!

فقد كنت صادقاً فيما قلت، لم أحب غير مريم، ولا أذكر أن هناك أنثى تمنيّت إسعادها سواها، ورغم غريزة الصيد لم أتحيل يوماً أعيشه من دونها!

كم أنا بارع جداً في تحليل نفسي!

بارع لدرجة أنني في كثير من الأحيان لا أفهمني.

لم أكن لانتظر إجابة على كلمتي الأخيرة، ولم أكن لأتوقع أن تُسامح جوعي أو تفهمه، فقد نفذ السهم من صدري إلى صدرها، سهم جعلها ترمش، تحدجني برعب وحزن، بلوم يغطي المحيطات، طالت اللحظة قبل أن يقطعها صوت فتح قفل الباب، قمت سريعاً وصعدت السلم، لم يكن من الصعب تمييز العجوز رغم الشمس الآتية من ورائه، طربوشه على رأسه، عضوه المترهل، أمسكت كتفيه بغضب فدفعته إلى الجدار دفعة لا تليق بسنه:

- فين طارق؟

لم يُجب كعادته، نسم في شفقة ثم أشار بيده إلى الباب فقفزت الدرجات المتبقية، خرجت إلى البهو فالتفتُ عدستي إشارة الشبكة، استدعيت الطائرة ثم طلبت البحث عن مؤلف موسيقي عاش في القاهرة، قبل أن أضيق البحث بتاريخ ظهور المذنب، وأتني قائمة بأسماء أكثر من ثمانين موسيقياً، قبل أن أضيف معلومة الوفاة متحزراً، لتنحصر النتائج في ثلاثة، طالعتُ صورهم وتوقفتُ عند وجه أعرفه، مؤلف موسيقي وعازف يُدعى «يوسف مروان» أطلق على رأسه رصاصة في منزله بعد حزنه على وفاة زوجته التي انتحرت غرقاً! وأظهر البحث صورة لزوجته، دون أن أطلب، بشعر فاحم يغمر كتفين من المرمز، وعينين ناعستين غزيرتي الرموش، واسمها ليل...

لم تكن تشبه ليل التي رأيتها في رحلة الحياة السابقة...

كانت تطابقها!

تيسّست للحظات وسرّرت في جلدي رعدة فتابعته القراءة.

«ألف يوسف مروان أكثر من ثلاثة وأربعين لحناً في حياته القصيرة، منها أغان لأفلام مشهورة - تخطّيت قراءة أسمائها - وقدم واحداً وعشرين حفلاً موسيقياً على المسرح الروماني بالإسكندرية، منها حفلات عزف فيها على بيانو شوبان الأصلي الذي اشتراه من مزاد بباريس!».

أمرتُ العدسة بتشغيل أحد التسجيلات ثلاثي البعد فتوسط البيانو البهو وجلس الجمهور من حولي، وبدأ يوسف مروان في عزف مقطوعتي المفضلة؛ نوكتورن ١٥ لشوبان، أوبوس ٥٥، تأملته دون أن أرمش، دون أن أتفكّر، ثم انحجّت ناحيته والتفتت حوله، شاهدت خاتم قيصر في إصبعه، والغرور في عينيه، كان يعزف ببراعة شيطان، الموسيقى تنساب من بين أصابعه على نفس بيانو شوبان الذي شهد تأليفها يوماً، مندمع يمز شعره الغزير ويلتفت كل بضع ثوانٍ إلى الجواهر لينهل الإعجاب من أعينهم.

الحفر كان غائراً في أعماق ذاكرتي، التفاصيل تخرج كما يخرج البترول من الأرض، مندفعة مشتعلة لا شيء يقف أمامها، جثوت على ركبتيّ من هول الصدمة قبل أن أطلب من العدسة مكان إقامته، لحظات وظهرت أمامي صورة...

صورة لفيلا في الزمالك تتوسط حديقته شجرة تين بنغالي كبيرة!

لقد نجحت تجربة استرجاع الحياة السابقة.

زالت الحيات.

ذهبت الرعدة.

اختفى الحاي والحداد والخابام.

تسربت الحية البيضاء إلى شق بالأرض وعاد نبضي إلى طبيعته...

مع وجود عرض جانبي بسيط...

أنا لم أعد أنا...

المصلوب والمسحور والمغتصب هم وحدهم من يعرفون ذلك الشعور؛ حين تنطفئ لمبات العقل الصفراء العتيقة واحدة واحدة ولا تبقى إلا لمبة أخيرة متسخة ترتعش، تهفو لتتكسر، نشوة الاستسلام، ظلام، أوجازم صامت، والفرق بين الصمت والسكوت أن الأول يأتي عن حكمة..

والثاني عن خوف...

عُدْتُ إلى القبو، العجوز كان يناول مريم جرعة ماء ويربت على كتفها بحنو، مرت برأسي رجفة حين لمحت لوحة شويان المسنودة إلى الدولاب، رأيت يدي في ماضي تعلق تلك اللوحة على جدار! اقتربت من الدولاب فتفحصت قفله حين صلصلت المفاتيح، التفت إلى العجوز وكان بين يديه سلسلة، بلا كلمة التقطت مفتاحاً من بين أنامله العتيقة، دسسته في الثقب وفتحت الدرفة، فراغ مستطيل رُصت فيه بدلات سهرة أنيقة، بينها البدلة التي قدمتها لي تاليا في أول ليلة لي بالملاد، بالإضافة إلى بدلة السهرة التي عزفت فيها المقطوعة على المسرح، وفي الأسفل ثلاثة أدراج فتحت أولها، كان يحوي علبة خشبية منقوشة، رفعت غطاءها فرأيت ثلاثة خواتم أثرية مرصوفة في تجاويف من القطيفة الخضراء وفوق كل منها ورقة مكتوبة بخط منمق ومثبتة بدبوس: خاتم السلطان العثماني «محمد الرابع» الملقب بانصبياد القناص ١٦٤٨ - ١٦٨٧ م، بجانبه خاتم لمطرب البيتزا «راجل» جون لينون، ثم مكن فارع لحتم فوقه ورقة، «زحاري إرميا دانيال» حاخام الطائفة اليهودية لسبع سنوات! عُجست جيبي فأخرجت الخاتم الذهبي، أودعته مكانه، ثم نظرت لهادي الذي يترقبني، وفتحت الدرج الثاني، كان فيه ظرف مليء بالصور وأقلام حبر فخمة ودبابيس بدلة على هيئة نفثات موسيقية، التقطت الظرف وطالعت الصور، لقطات للموسيقيار صغيراً يعزف على بيانو، صور من حفلات مختلفة في سن متقدمة، صور زفافه على ليلى، وصورة مع الصبي «الذي رأيته في تجربة الاسترجاع»، الصبي الذي حضر بعد انتحاري ونظر لسقف سحبت فيه روحي بعد مغادرة جسد الموسيقار، تأملت القصات، ثم التفت إلى العجوز، الدمع تفرق والشم ارتعش، لكن بصمة العينين لم تبدل رغم الهرم...

نبتت لنفسني هزة رأس أن يكون ما يدور في عقلي سليماً، لا أستبعد أن يكون الحال قد تغلغل في دماغي وتسرب من أذني..

- أنت!

لم يعقب...

- وأما!

ابتسم.. ضربني الدوار فألقيت الصور وسحبت إلى صدري نفساً...

- طارق فين؟

رفع للسقف عينيه وسأله...

لم أتوقع دائماً أنه سيُجيبني؟

خرجت من القبو حاملاً مريم، ترمقني بألم لم أختبره من قبل، وضعتها في الطائرة وأصدرت أمراً بالعودة إلى البيت بعد أن سحبت مسدسي من الدرج، ما إن ارتفعت الطائرة حتى رجعت إلى البهو فصعدت السلم الدائري، أنادي طارق ولا يجيب، أغلق أبواب عقلي بيدي صارفاً الظنون التي تطل منها، هارباً من خيالات مريضة تزحف على الأرض وتخرج الألسنة المشفوقة، لقد شاركت العلماء يوماً في تسليق سور الإله وحرق بيته العتيق، لكنه عاد ليتقم، عاد ليبحث بالمصباح الوحيد الذي أملكه، عثرت بالكاد نجا من وطأة الأديان التي أغرقت الأمم، القرد العاري من الشعر لم يعد يتحمل زلزالاً إضافياً، اللعنة على الفضول، على الأحلام، اللعنة على الغزلان التي تفوح بالمش...

لما وصلت الدور الأخير التقطت تكتكات الميرونوم، إيقاع متظم بطيء كضربات قلب محتضر، مشيت في الطرقة المزينة حوائطها بنفثات الموسيقى والملائكة، الباب في نهايتها كان موارباً، يمتد منه سكين شمسي يسد بصله نحوي، دفعت الباب وكان طارق مستقبلي على السرير الصغير يطالع كتاباً، وتاليا بالقرب منه، تنظر من النافذة المستديرة إلى الوادي الجاف في فستان أبيض شقفت الشمس، التفت لدخولي، ابتسمت بثقة ثم عادت إلى النافذة، أما طارق فاعتدل في هدوء، أخرج من جيبيه سيجارة ملفوفة، أشعلها ونفث الدخان الأخضر إلى السقف المائل وابتسم:

- خسارة إن مريم مشيت.

- الكلام اللي قلته قبل التجربة عن مريم، والتبديل! ولية بعثت لريم رسالة؟ عاوز تفسير!

شخص طارق ببصره إلى السقف للحظة ثم عاد:

- بصراحة، كانت وحشائي...

لم يكن مني إلا أن أخرجت مسدسي، حوّلت المؤشر من إطلاق نبضة إبعاد الغرياء إلى وضعية إطلاق النار الحي، فمئذ اشتريته حرصت على زيارة أحد المراكز، عدّل برمجته كي لا ينبه مراكز الشرطة عن احتمالية إطلاق نار...

وجهت الفوهة إلى الأرض في إرهاب هادئ وتابعت:

- قول ثاني.

لم يُبد وجه طارق ردة فعل:

- أنا مقدر إن عندك أسئلة كثير، لكن مش عاوزك تفقد متعة الكشف، مبدئيًا أنا جيت لك نسخة من كتاب مهم.

ورفع غلافًا عليه صورة لمريم العذراء وعنوانه «مادونا».

- للأسف ما عنديش غير نسخة قديمة من أيام طباعة الورق.

ناولني النسخة ثم جلس على السرير:

- علم النفس التطوري للأسف خلّلك تغفل المدرسة القديمة في الطب النفسي، في الكتاب ده وصف كامل لسبب نفورك من مريم، Madonna / Whore Complex «*****»، ما كنتش أعرف السبب لغاية ما شفت أحلامك عن والدتك.

نظرت لتاليا ولم تلتفت، تابع طارق:

- أرجوك مش عاوزك تتزعج، نُصّ ذكر الشوق ببعانوا من العقدة دي من غير ما يلاحظوا، المشكلة إن عشقتك للأم، تعاطفك وتوحدك معها، المفروض ينفرك من الأب، لكن الغريب، إتنا كل ما بنكبر، بنكر نفس اللي اثربينا عليه، نفس اللي شربناه من الأب، بدون ما نشعر.

وتلاقت الخطوط لأراديا، تلاقت خلف عيني اليسرى، شفرة موسى عتيق تدور ببطء، تحفر، لتستخرج البترول، وأسباب نفوري من مريم، ثم تُنطق ببر شهوتي الجائعة نحو الأخريات.

- أمك، خلّقت وحش من غير ما تقصد، حبها الزايد ومحورة حياتها كلها حواليك خلّكت تختار واحدة تشبهها، واحدة مش هتحب تشوفها عريانة، زي ما شفتها في يوم.. مع أبوك، ما حدش فينا يحب يتام مع أمه...

أشحت بنظري عنه؛ فاللظمة كانت قاسية، مُربكة، تشق الفك وتمزق الحنجرة، راودتني يدي أن أخرسه بطلقة بين عينيه، لكنني كنت معبأ بأسئلة لم أعد واثقا أنني أريد سماع إجابتها...

- نحكي القصة من البداية؟

رجعت خطوتين، استندت على الحائط، ومارست الصمت فبدأ يحكي:

- كل شيء كان مثالي، دكتور منغ وأعصاب ناجح، حساب في البنك، عربية أحدث موديل، شغل ثابت، كان ناقص بس، أنثى، وظهرت أخيرًا! ليل، قابلتها في عيد ميلاد صديق، كانت جميلة، بتحب الفن، مستوانا مناسب، عمرنا مناسب، طولنا مناسب، ماكانش فيه حد بيشفونا غير لما يعرف إنها مسألة وقت ونكون مع بعض، لغاية ما أنت ظهرت، أقصد.. إنت كنت ظاهر جدًا وقتها، نص بنات البلد كانوا بيحلموا بالموسيقار الوسيم، لكن أنت قررت تظهر في حياتي أنا... حضرنا حفلتك في المسرح الروماني، وخرجت يومها من غير ليل، سرقها مني، بحرفة أعترف لك بيها، سحرتنا، والباقي أعتقد إنت دلوقت عرفتة...

باغتني وجه ليل على الرمال فانحنيت فزعًا، سكّت طارق للحظات ثم تابع:

- خيليني أحكي لك اللي ما شفتوش، اللي ذاكرتك ما سجتلتوش.. بعد انتحار ليل حبست نفسك في بيتك، هنا، في نفس الأوضة دي...

استرجعت لحظة نظري لنفسي في المرأة فرأيت ذراعَي اللتين تكسوهما ألوان عجيبة وفمي...

كيف لم ألاحظ السقف المائل من خلفي في التجربة؟!

تابع طارق:

- ما كنتش بتفتح الباب لأيام، ولا بتأكل، رسمت نُصّ وش ليل، ونُصّ سمكة، مش قادر أتخيل كنت بتفكر في إيه وقتها، وأخيرًا ضربت نفسك بالنار، صنفوها حالة هوس، دُهان، واكتئاب حاد أدى للانتحار.

وأشار بيده إلى البقعة الحمراء في السقف قرب وجه السمكة، مسح عليها بيده:

- ده دقك يا نديم...

ماكينة الحياطة العتيقة التي تحيط بإبرتها قصي عُمّي توقفت لحظة، نظرت للرسم ورأيتني أرسمه، ثم ألحس الألوان من فوق أصابعي، ابتسم طارق مُخفًا:

- خير انتحارك كان ليه أثر كبير على معجباتك، شباب كثير اتسلل عشان يصوروا آخر رسمة رسمتها في حياتك، بس أنا ما عرفتش أسألك...

وأخرج من جيبه ورقة مطوية، ففّضها وناولها لي فقرأت ثلاث كلمات «عمري ما هاسامح نفسي على اللي عملته فيك»...

- دي كانت آخر رسالة من ليل، بعثتها لي قبل ما تنزل البحر، كانت بتحب تقرا لـ«فرجينيا وولف»، واختارت تموت زيها، من بعدها ما عرفتش أمسك مشرط، واكتئاب حاد، وهوس بالشخص اللي خطف مني أجل حاجة حصلت في حياتي، أحلام ورا أحلام، كلها

بليل، يتكفي ويتصرخ، يتنادي، وفي مرة، طلبت مني أقبال الشاب الصغير الي كان شغال عندك ليس؛ هادي، طلبت منه يتكلم ويحكى، يمكن أفهم، وما كتش عارف إن الي هاسمه هيجر حياتي...

سكت، ولم أقو على هز رأسي استعجالاً، ابتسم في شفقة، سنّ سكينه ثم تابع:

- هادي كان وسيط روحاني بالفطرة، طول عمره ماكانش عنده تفسير للدخان الي يشوفه في أركان البيت ولا الأصوات الي يسمعه، حكى لي إنه شاف روحك في الأوضة دي يوم انتحارك، هايم في الفيلا، روح معذبة، عميا، غضبانة بتصرخ، لأنك مش فاهم... وهنا اتكونت الفكرة، سألت عن الورثة وعرفت إن الفيلا معروضة للبيع، أبوك كان وريثك الوحيد بعد وفاة أمك، واشتريتها، واشترطت أخذ كل متعلقاتك الشخصية، هدومك، الخواتم الي كان عندك هواية جمعها وأنت مش عارف إن واحد فيها كان ملكك في زمن قديم. وحتى البيانو، دفعت كل ما أملك، واستلفت، أبوك كان يبجيك قوي... إنت كويس؟

حين نظرت في المرأة المشروخة علمت سبب السؤال، خط من الدم الداكن كان يسيل من أنفي على قميصي، مسحته وابتلعت ريقى ثم استأنفت ماكينه الخياطة عملها، ضرب المكوك إبرته في مركز الذاكرة وبدأ يخطط... بلذّة...

- طبعاً حالة هادي خلتنى أفكر، وأقرا في كتب عن العالم الآخر، إيه الي بيحصل لنا بعد الموت؟ ليه فيه أرواح بتختفي تماماً، وأرواح ثانية مش بتسيب مكان موتها وتظهر في الأحلام؟ زيك، انتحرت، ومش قادر تستوعب إنك مُت، بتظهر في كوابيسي، وفي أوضتك الي مت فيها، رافض تمشي، تايه، بتتخبط زي الأعمى، ومع ذلك، وبعد صعوبة، قدرت أحقق معاك اتصال بمساعدة هادي، فهمنا صوتك بعد أيام من الصريخ المرعب، وأخيراً، قدرت أفهمك الي حصل، من اليوم ده بطلت تزورني في أحلامي، اختفيت من الفيلا، فعرفت إنك نزلت الأرض.. في جسم جديد، عشان تبدأ حياة جديدة، عشان تكفر، أو تعيد أخطأك تاني، سمسار(*****)

الكلمات تحترق رأسي بسلاسة ولوج السكين للمياه، في مكان الندبة، شفرة الموسى تحفر خلف حدقة عيني، ضربات القلب تحطت سرعة الصوت، وحين نظرت للبقعة الحمراء على السقف خلف طارق، كانت الدماء تسيل منها على السرير! حوّلت فوهة ترعش نحوه:

- اختراعك مالوش أساس، إنت حطيت الخاتم بإيدك في الصندوق.

- الي شفته في ذاكرتك كان كفاية، لكن نديم عمره ما كان هيصق غير شي بين إيديه، كان لازم شغل حاوي.

ازدادت رعشة الفوهة في يدي: لكن مريم ما دخلتش كل المراحل.

- مريم كفاية عليها تشوف آخر مرة كنت سبب في موتها.

- وعرفت متين إني هو؟

- نزل المسدس يا نديم.

صرخت فيه: جاوب.

التفتت تاليا، رمقتني في برود عجيب وابتسمت، أردف طارق:

- الإنسان بطبيعته... بيعيد أخطائه.

- وضح.

- كل إنسان ليه نجم في السما، إنت كان ليك.. مُدَّئِب، مسار طويل، ودورة يتكرر كل عدد محدد من السنين، لما المُدَّئِب رجع، عرفت إن القصة القديمة بدأت تتعاد، وعرفت إني هقابلك تاني، والرهان كان.. يا ترى هتعمل إيه المرة دي؟ ما خالفتش توقعاتي...

- لكن أنت إزاي شكلك...؟

- أنا غيرت ٩٠٪ من جسمي تقريباً، حتى جلدي، عشان أستنى اللحظة الفريدة دي، نوفمبر الجاي هاتم مية وسبع سنين، مفيش داعي ترفع سلاحك على راجل قد جدك.

هزرت رأسي لعلّي أعود إلى سريري بكلمة «لا أحلام» نومض في عدستي، كان ذلك حين التفتت تاليا، اقتربت مني، ابتسمت ولاست خدي ثم قالت:

- عقلك المحدود، وعلومك الي درستها مقيدة تفكيرك، سبب الحقيقة تحرك.

كان ذلك حين دس طارق يده تحت المخدة فالتقط مسدساً عتيقاً، مسدساً انتحرت به يوماً قبل أن أولد ندياً، تحفزت أعصابي حين شد الزناد، لكنه ابتسم مطمئناً وصوب الفوهة إلى رأس تاليا، وأطلق.. انفجار ودوي أصلاً أذني، ودون دماء، تناثرت الرقائق المعدنية حولها وتهاوى الصنم الذي طالما سجدت له، على الأرض بين قدمي.. بلا حركة.

تاليا لم تكن غزاً لا فريداً من نوعه...

تاليا لم تكن سوى روبوت من روبوتات بيت الحور!

قبل أن أجفل، قبل أن أستوعب، وقبل أن أنأمل رأساً صناعياً تخبو أنواره، ضغط طارق زناذه ثانية، طار المسدس من يدي واشتعل رسغي بآلم رهيب، نافورة دم ولحم أبيض يبرز من ثقب تبتك، صرخت وسقطت على ركبتي، ثم سجدت محاولاً التقاط أنفاسي، أغرقتي العرق وبأغتنني هبوط اضطراري للدماء، اقترب طارق في هدوء، أطاحت قدمه بمسدسي بعيداً، ثم انحني وضغط على رسغي بقبضة لا تناسب رجلاً تحطى المائة...

- ماكانش صعب عليّ أخلق لك طعم يناسبك يا يوسف.. قصدي يا نديم!

ونظر إلى كتلة معدنية كانت تفوح بالمسك منذ دقائق ثم تابع:

- التبتو بذوقك كان سهل، اشتريت أحدث روبوت من الحي الغربي، برجمت شبه قريب من الممثلة الي نمت معاها يوم ما شافتك

ليلي! الشعر الأحمر، الردود اللي فيها ندية، الرائحة من فرمونات حيوانية مركزة، والدلع، وطبعًا تظهر لك بعد ارتباط رسمي، في مرحلة الملل، وأكد، عشان اللعبة تحلو، لازم يكون فيه منافس ليك؛ أنا، والقصة تتعاد. كل كلمة بصوت تاليا كانت مني، كنت باحركها زي العروسة الماريونيت، دُرت بيها على قائمة طويلة من ناس اتولدت في أسبوع اختفاء روحك من الفيلا، التحدي الوحيد كان معرفة مكان ولادتك، كنت باتحيل إن ممكن الروح ترجع في الهند مثلاً، لكن اللي الناس ما تعرفوش، إن الانسان في العود للعالم تاني، بيبختار يصلح حياته اللي فاتت، بيبختار أبوه وأمه، وللأسف، غالبًا بيبختار واحدة من معجباته ويحفظها من حبيبها برضه، بنفس الطريقة...

كلماته باتت أقوى من ألم رسغي، أقوى من الحية التي خرقت أذني، أقاوم الإغواء والعرق الذي تسلك إلى عيني فأحرقهما، كان عليه إنهاء مهمته.

لم على الجزار أن يسلم قبل الذبح!؟

- الموسيقار المشهور عشان يكفر عن حياته السابقة، دور لا إرادياً على ليلي، وليلي كان لازم تدور عليّ أنا، الديون لازم تسدد، وأنا كان لازم ألاقى وسيلة أعرف بيها على روحك...

أخرج من جيبه الجهاز الصغير الذي استخدمته تاليا في إبطال شريحتي وشريحة مريم، ثم أردف:

- في زمن التيه؛ فترة وجود روحك في الفيلا، طورت الجهاز ده عشان أقدر أقيس بصمة روحك في لحظات حضورك، كل نفس لها بصمة طيف، زي البصمة الوراثية، بدرجة حرارة لون معددة برقم، يوم ما دخلت الملاذ يا صديقي؛ أتأكدت تمامًا إني باقابل يوسف مروان لتاني مرة، بس المرة دي اسمه نديم، وهنا جه وقت السحر الرخيص، طلعت خاتم الحاخام من دولابك لما اتكلمت عنه، وحطيت في إيدك، إنت اللي خدعت روحك، وإنت اللي قدمت لي المفاجأة، خلّنتي أقابل مريم، أو ليلي، للمرة الثانية في حياتي لما زرت بيتك، صدفة استنتها أكثر من أربعين سنة...

تحاملت لأفتح فمي:

- وأديك انتقامت.

- في البداية كان ده الهدف، بس بعد عُمر ميت سنة، متعرف إن مفيش حاجة فارقة، متعرف تسامح، تغفر، متعرف تقرأ علامات ربك اللي بتنكر وجوده، متفهم صمته، الصمت اللي ساعات بيبكون إجابة، و متعرف إنه بيحبك رغم جنونك، وإن بتك اللي ماتت وما لحقتش تعيش حياتها، راجعة تاني، في حياة ثانية، وثالثة، لأن دي مش أول مرة ليها على الأرض، الحياة القصيرة ما تكفيش كثير منّا ينضج ويفهم ويتحول، وانتظارك يا صديقي كان تجربة غير تني، زي ما غيرت هادي اللي علمني إن الإنسان لازم يتجرد من الدنيا تمامًا، حتى من هدمه، وما يقاشر عنده شيء يجنيه، بعد ما خاض تجربة شاف فيها حياة سابقة عاش فيها كذاب كبير.. أنا قلت لك في يوم إني أنييت صراعاتي مع نفسي ما صدقتنيش، المشكلة عندك إنت، رجعت الحياة بعد ميت حياة، وانجوزتها تاني، وختتها.. تاني، و هتقع في حبها تاني، وهتنتي تاني، إنها حب حياتك الوحيد، ما بتتعلمش يا يوسف، ما بتتعلمش يا نديم، ومش ممكن تتغير غير لو قابلت المذنب في حياتك.. مرتين.

هانّ الألم، تحول إلى نبض ثابت، في جسد بات غريبًا، جلست بصعوبة، تأملت وجه رجل انتظرتي نصف قرن، بلا ميعاد، بأمل عجيب، رجل وضع فوهة المسدس على جبهتي، في موضع الندبة، وابتسم:

- فرصة سعيدة!

ثم ضغط الزناد...

Madonna / Whore Complex عقدة المادونا / العاهرة: هي عدم الشعور بالشهوة الجنسية خلال علاقة حب والتزام زوجي، فالرجل المصاب بتلك العقدة يرى زوجته «مادونا»؛ والمقصود سيدة طاهرة مُبجلة لا يصح تدنيسها، لذا ينفر من ممارسة الجنس معها رغم حبه الشديد، وقد ظهرت تلك الفكرة في كتابات «سيجموند فرويد» باسم «عقدة أوديب».

سمسارا: مصطلح باللغة السنسكريتية القديمة يعني «الطواف الدوراني»، والمقصود به دائرة أو عجلة العود للحياة ثانية بعد الموت في عقيدة استنساخ الأرواح.

- «ستيفن جاي جولد» يقول إن إحنا مازلنا على قيد الحياة لأن الأرض ما اتجمدتش بالكامل خلال العصر الجليدي، ولأن مجموعة الأسماك اللي قدرتش تحول زعانفها لأقدام وتخرج للبر، دبّرت أمرها وتعايشت وواجهت الطبيعة القاسية، وتطوّرت، كان نفسي يكون فيه جواب أفضل لكم، لكن للأسف، مفيش.. الإنسان ما اتخلّش فجأة، مهما كانت المقولة دي بتخالف اعتقادات نشأنا عليها، التطور حقيقة علمية، زي الشمس والنجوم، زي المذنب... على صعيد آخر، وبنفس العلم اللي بيدور على حافة عدم اليقين، تظل التساؤلات قائمة بدون إجابات: الأحلام! تجارب استرجاع الحياة السابقة! مين اللي فجّر النور الأول في الكون؟ له فيه كارما(*****)؟ تأملتُ وجوهاً أنهاكها الفكر والشك والغضب ثم استأنفت:

- القانون الثاني للديناميكا الحرارية بيقول «إذا كان هناك نظام منضبط، فإن كل تفاعل طبيعي يحدث بداخله سيؤدي تدريجياً ومع الوقت إلى عشوائية في هذا النظام، حتى تحدث الفوضى الكاملة والتفكك»، يعني مهما كان أي نظام متناسك فالزمن كفيل بإفقاذه التماسك ده، الحديد بيصدّي، الإنسان بيشيخ، والممالك والدول مهما تضخّمت بتفكك... فيه كينونة حافظت على الكون ده من التفكك، نفس الكينونة اللي فجّرت الضوء الأول، نسميها الإله، نسميها الطبيعة، المهم إننا مش قادرين نثبت وجودها بالعلم الحالي، وبالمقابل، وبنفس الحسابات، لا يمكن إثبات عدم وجودها، يمكن في حياة ثانية.. اللي مُستعد يعرف الحقيقة، لازم يخوض الرحلة، لازم يتخلص من كل حقيقة وصل لها، لازم يكون مرن، وما يخافش من الشك، الشك هو قمة الإيمان، المُلحد هو أكثر إنسان مهووس بمعرفة الإله، وما تستبعدش أبداً يكون كل اللي تعرفه وعشت عُمرَك مطمئن لوجوده، مُجرد وهم.. الشيء الوحيد الثابت، اللي العلم ما قدرش يشكك في وجوده، هو الحب، السبب المنطقي الوحيد خلّق هذا الكون.

أنهيت مُحاضرتي فأضأت الأنوار وجهاً رائقاً دفن ضغيته بصعوبة على عُرق سبعين مترًا في صدر يشف من تحته الأوردة الخضراء، كانت جالسة في الصف الأول من المسرح، مثلها تقابلنا أول مرة، عادت لتسمع هُرائي، إفرازات شكوكي، اضطراب نفسي من حيوات سابقة عشت فيها حاوياً وحدّاداً وحاحاماً، عادت لترى الكُرّه في وجوه المتجمدين، والإعجاب الحذر في أعين الباحثين عن الحقيقة...

عادت لترى الغزلان المتربصة تتوارى خلف الأشجار...

وعُدّت لاكتشفها...

كما اكتشف الإنسان يوماً أن النار تُنضج اللحم...

وأن الإله الأول قبل طغيان الذكور.. كان امرأة...

وأن بعض المذنبات لا تعود...

حتى في موسم صيد الغزلان...

نظرياً!

طارق لم يقتلني، طارق ضغط الزناد فقط قبل أن يرحل عن الملاذ بلا رجعة، فصيد الفهود أشقى من صيد الغزلان. ترك نالياً، ترك هادي، وترك مسدساً لم يكن فيه سوى طلقة واحدة، استقرت في أسفل منتصف غروري، لم أسمع عنه ثانية، ولا أظنه سيرغب في رؤيتي، تركني غارقاً في أفكار، مُزعّجاً، والورم الذي طالما ألّمني دون أن أعرف مصدره ملقى على الأرض بجاني، ورم في حجم رأسي! اقترَب العجوز فهِرَسَه تحت قدمه الخافية، وسندني رغم الوهن حتى وقفت، ثم اتبسم في وجهي قبل أن أسمع صوته لأول مرة في تلك الحياة:

- حمد الله على السلامة.

النهاية

(*****) كارما (بالسنسكريتية): مفهوم أخلاقي يشير إلى مبدأ السببية، حيث النية وعمل الخير يُسهمان في مستقبل سعيد، والنية السيئة والفعل السيئ يُسهمان في إيجاد الكارما السيئة والمعاناة.